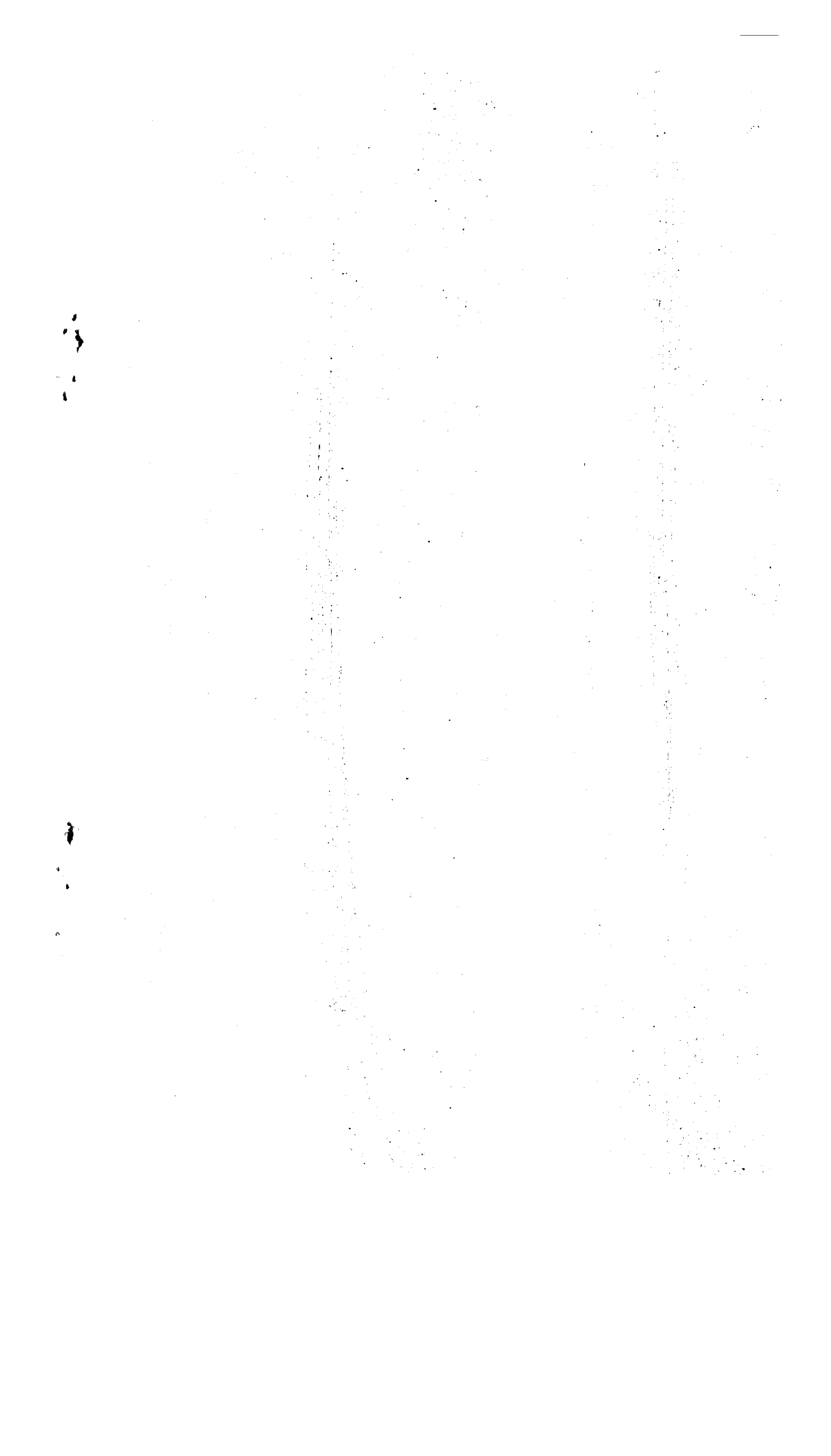
سلسلة أبحاث جامعية محكّمة يشرف على إصدارها الدكتور حامد طاهر

دراسات عربية وإسلامية

٢١

صفحة



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

كنت حريصاً جداً على صدور هذا الجزء من السلسلة ، نظـــراً لأنه الجزء الذى يتجاوز العشرين . والواقع أنه كلما صدر جـــزء مـــن السلسلة قلت لنفسى : متى أتوقف؟ لكن الإصرار يدفعنى من جديد على المواصلة ، وكذلك سؤال الإخوة الباحثين عن أخبار الجزء الجديد، ومن قبل ذلك كله توفيق الله تعالى وعونه لى بالاستمرار .

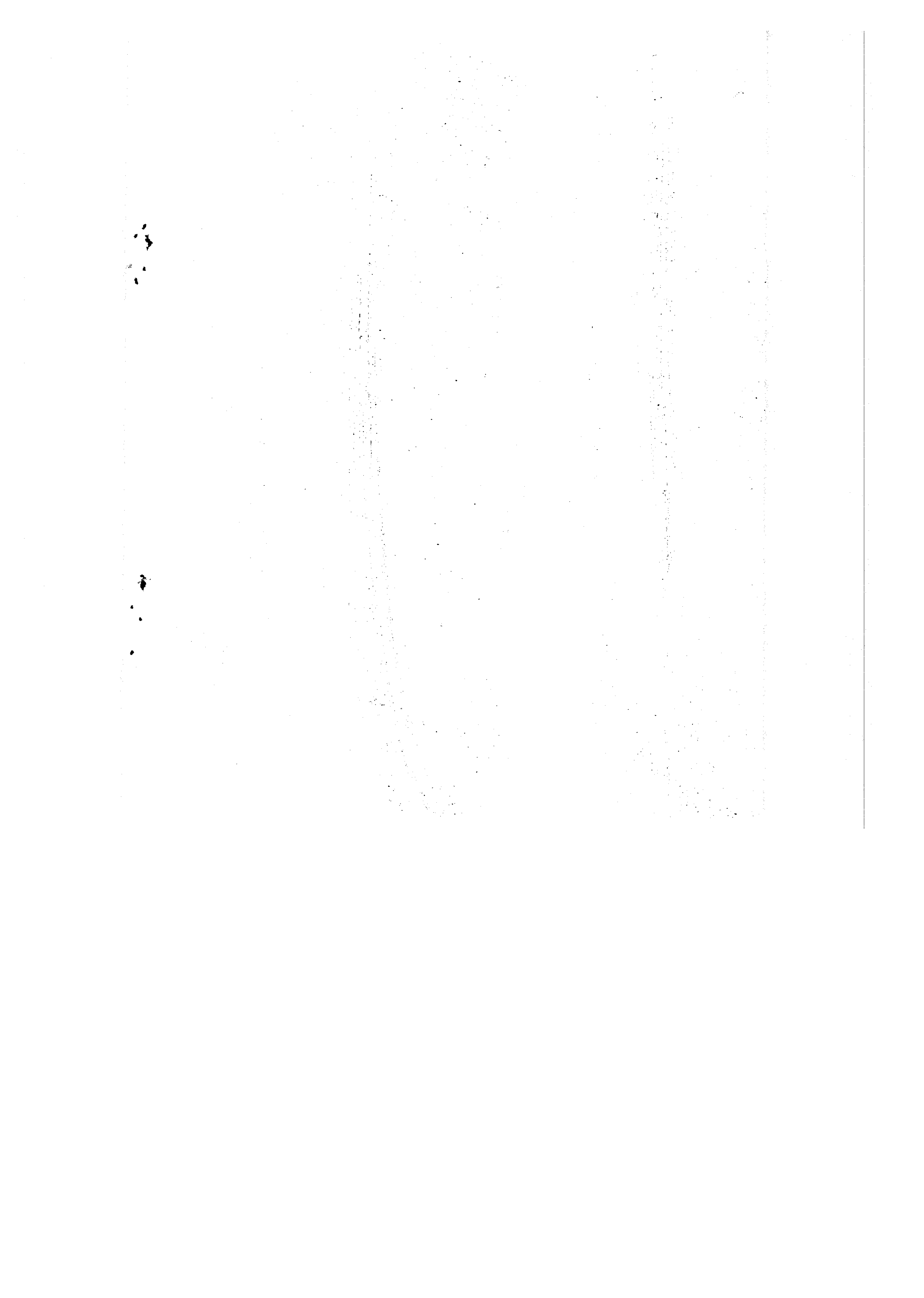
إن هذه السلسلة ، التى بدأت قوية منذ خطوتـــها الأولـــى فـــى عام ١٩٨٣ ، ما زالت تحتفظ بخصائصها الذاتية ، التـــى يـــأتى فـــى مقدمتها الصرامة فى اختيار البحوث ، وعدم المجاملة فى نشرها . حتى أصبحت بحمد الله مرجعاً لكثير من الدراسات الجادة ، وموضع تقديـــر من لجان التحكيم فى الجامعات المصرية والعربية .

وفى هذا الصدد ، لابد أن أتقدم بالشـــكر والتقديـــر إلـــى كـــل المساهمين فى هذا الجزء ، والأجزاء السابقة ، مع دعوة كل البـــاحثين الجادين إلى المساهمة ببحوثهم العلمية ، والتى أرجو أن تتضمن جديداً ، أو تصحح خطأ ، أو تفتح أفقاً فى مجال الدراسات العربية والإسلامية .

والله ولى التوفيق

المشرف على السلسلة

أ.د. حامد طاهر



القُرآن الكَريمُ

بين ترتيب النزول وترتيب التلاوة

أ.د. صلاح روّاى *

لسور القرآن الكريم نظامان من الترتيب ، ولكل نظام منهما غاية عظمى ، وهدف سام ، كانا وراء اللجوء إليه والأخذ به .

الأول : ترتيب النزول

ويعنى ترتيب السور بحسب ما نزل أولاً منها ، ثم ما نزل ثانياً . . وهكذا ، حتى آخر ما نزل من القرآن الكريم .

---

* أستاذ النحو العربى بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

الثانى : ترتيب التلاوة :

أى بحسب ترتيب السور فى المصحف الذى بأيدى الناس ، الذى يتلون القرآن ويحفظونه عليه.

وسنفرد لكل نظام منهما قولاً يخصه ، موضحين الغاية والهدف منه ، مؤيداً بالأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة من الأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين .

أولاً : ترتيب النزول :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾.[١] وقد ذهب المفسرون فى كيفية إنزال القرآن فى هذه الليلة مذاهب أربعة:

أولها : أن الله تعالى أنزله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم أخذ جبريل يتنزل به على محمد ﷺ منجماً بحسب الوقائع والأحداث ، على ما أخرجه الحاكم والبيهقى ، وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه. [٢]

ثانيها : أن القرآن أنزل إلى بيت العزة فى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ فى عشرين ليلة قدر ، أو ثلاثاً وعشرين ، أو خمساً وعشرين. فى كل ليلة ما يقدّر الله إنزاله فى السنة كلها ، ثم نزل بعد ذلك على النبى ﷺ منجماً على مدار السنة . بهذا قال فخر الدين الرازى ، ونقله

---

[١] سورة القدر : الآية الأولى .

[٢] البرهان : ١/ ٢٩٩.

القرطبى عن مقاتل بن حبان .[١]

ثالثها : أنه ابتدئ فى إنزال القرآن على النبى ﷺ فى ليلة القدر، ثم تكرر نزوله عليه بعد ذلك منجماً ، وبه قال الشعبى .[٢]

رابعها : أنه أنزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة فى ليلة القدر إلى السفَرة الكرام الكاتبين فى سماء الدنيا ، فنجّمته السفرة على جبريل فى عشرين ليلة ، ثم نجمه جبريل على النبى فى عشرين سنة . وهذا ما حكاه الماوردى ، بناء على ما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه.[٣]

نخلص مما تقدم أن القرآن الكريم أنزل على النبى ﷺ منجّماً على مدى عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين سنة ، أو خمس وعشرين ، بحسب مدة إقامته فى مكة بعد البعثة . وقد ثبت أن من الصحابة من كتب لنفسه مصحفاً مرتباً فيه السور بحسب نزولها كمصحف على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، الذى كان أوله سورة (العلق) ثم سورة المدثر ، ثم ن ، ثم المزمل ، ثم المسد ، ثم التكوير.[٤]

ومعلوم أن من السور ما لم تكن تنزل بكاملها مرة واحدة ، وإنما كان ينزل أولها ، ثم يزاد فيها من الآيات بحسب ما يشير به جبريل

---

(١) الإتقان : ١/ ٤٠.

(٢) البرهان : ١/ ٢٢٨.

(٣) الإتقان: ١/ ٤٠.

(٤) الإتقان: ١/ ٦٢.

على النبى ﷺ من قوله : ضع هذه الآية بعد آية كذا فى سورة كـــذا ؛ وفى هذا يقول ابن عباس : " كان إذا نزلت فاتحة سورة بمكة ، كتبـــت بمكة ، ثم يزيد الله فيها ما شاء " . [1]

وقد ذهب بعض الصحابة والتابعين إلى ســـرد ســـور القـــرآن بترتيبها النزولى ، كابن عباس ، وجابر بن زيد ، وعكرمة ، والحســـين بن أبى الحسن ، وقتادة ، ومنهم من نظم هذا السرد أبياتاً كابن الحصار ، وبرهان الدين الجبرى الذى نظمه قصيدة سماها : تقريب المأمول فـــى ترتيب النزول ، [2] وأشهر هؤلاء ابن عباس الذى قال : " كان أول مـــا أنزل من القرآن سورة اقرأ باسم ربك ، ثم ن ، ثم يا أيها المزمل ، ثـــم يا أيها المدثر ثم الحمد ، ثم تبت يدا أبى لهب ، ثم إذا الشمس كـــورت، ثم سبح اسم ربك الأعلى ، ثم والليل إذا يغشـــى ، ثـــم والفجـــر ، ثـــم والضحى، ثم ألم نشرح ، ثم والعصر ، ثم والعاديات ، ثم إنا أعطينـــاك، ثم ألهاكم التكاثر ، ثم أ رأيت الذى يكذب ، ثم قل يا أيها الكافرون ، ثـــم ألم تر كيف فعل ربك ، ثم قل أعوذ برب الفلق ، ثم قل أعـــوذ بـــرب الناس ، ثم قل هو الله أحد ، ثم والنجم ، ثم عبس ، ثم إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، ثم والشمس وضحاها ، ثم والسماء ذات البروج ، ثم والتين ، ثم لإيلاف قريش ، ثم القارعة ، ثم لا أقسم بيوم القيامة ، ثم ويـــل لكـــل همزة، ثم والمرسلات ، ثم ق ، ثم لا أقسم بهذا البلـــد ، ثـــم والســـماء والطارق ، ثم اقتربت الساعة ، ثم ص ، ثم الأعراف ، ثم قل أوحـــى ،

---

[1] الإتقان : ١/ ١٠.

[2] الإتقان: ١١/١ ، ٢٥.

ثم يس ، ثم الفرقان ، ثم الملائكة ، ، ثم كهيعص ، ثم طه ، ثم الواقعة، ثم طس الشعراء، ثم طس ، ثم القصص ، ثم بنى إسرائيل ، ثم يونس، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الحجر ، ثم الأنعام ، ثم الصافات ، ثم لقمان ، ثم سبأ ، ثم الزمر ، ثم حم ، ثم المؤمن ، ثم حم السجدة ، ثم حم عسق، ثم حم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ، ثم الذاريات ، ثم الغاشية ، ثم الكهف ، ثم النحل ، ثم إنا أرسلنا نوحا ، ثم سورة إبراهيم، ثم الأنبياء ، ثم المؤمنين ، ثم تنزيل السجدة ، ثم الطور ، ثم تبارك الملك ، ثم الحاقة ، ثم سأل ، ثم عم يتساءلون ، ثم النازعات ، ثم إذا السماء انفطرت ، ثم إذا السماء انشقت ، ثم الروم ، ثم العنكبوت، ثم ويل للمطففين ، فهذا ما أنزل الله بمكة ، ثم أنزل بالمدينة : سورة البقرة، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم النساء ، ثم إذا زلزلت ، ثم الحديد ، ثم القتال ، ثم الرعد ، ثم الرحمن ، ثم الإنسان ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم إذا جاء نصر الله، ثم النور ، ثم الحج ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم التحريم ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الصف ، ثم الفتح ، ثم المائدة ، ثم براءة " . [١]

الحكمة فى إنزال القرآن منجما :

تولى الله – تبارك وتعالى – بيان الهدف والحكمة من هذا الإنزال المنجم للقرآن الكريم ، حينما تساءل الكفار الذين ألفوا فى حياتهم اليومية أن القصيدة تلقى بكاملها جملة واحدة ، وعهدوا الكتب

---

[١] الإتقان: ١/ ١٠.

السماوية تنزل على الرسل جملة واحدة أيضاً ، على ما سمعوه من اليهود أن التوراة نزلت على موسى جملة واحدة ، فقالوا : (لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) [1] ، فقال الله – تبارك وتعالى – مبيناً لرسوله الكريم الهدف والحكمة من هذا الإنزال المنجم : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ . [2]

قال أبو شامة [3] : " أي : لنقوى به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب ، وأشد عناية بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل". [4]

وثمة هدف سام ، وحكمة بالغة في هذا النزول المنجم ، ألا وهو تيسير حفظه على النبي ﷺ واستظهاره له ، حيث كان أمياً لا عهد له بالقراءة ولا الكتابة ، فلو أنزل عليه القرآن جملة واحدة لعسر عليه حفظه ، وشق عليه استظهاره ، بخلاف غيره من الرسل ممن كان كاتباً

---

[1] سورة الفرقان : آية ٣٢.

[2] سورة الفرقان : آية ٣٢.

[3] عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدس ، فقيه شافعي ، له المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز ، وشرح الشاطبية ، توفي سنة ٦٦٥ هـ (شذرات الذهب : ٥/ ٣١٨).

[4] الإتقان: ١/ ٤١.

قارئاً ، وفى هذا يقول ابن فورك [1]: " أنزلت التوراة جملة ، لأنها نزلت على نبى يقرأ ويكتب – وهو موسى – ، وأنزل القرآن منجماً لأنه أنزل غير مكتوب على نبى أمى " . [2]

وقيل : لم ينزل جملة واحدة ، لأن منه الناسخ والمنسوخ ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه ما هو إنكار لقول قيل ، أو فِعلٍ فُعِل ، ومن ثم قال ابن عباس : " ونزله جبريل بجواب كلام العباد أو عملهم " ، وقد فسر به قول الله – تعالى : ﴿ ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ . [3]

ومن أجل الأهداف والحكم فى إنزال القرآن مفرقاً ما صرح به مكى بن أبى طالب [4] فى كتابه (الناسخ والمنسوخ) بقوله : " . . . فإنه أدعى إلى قبوله إن نزل على التدريج ، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهى " . [5]

---

(1) محمد بن الحسن بن فورك ، ويكنى أبا بكر ، متكلم أصولى ، له فى معانى القرآن وأصول الفقه أكثر من مائة كتاب . توفى سنة ٤٠٦ هجرية . (ابن خلكان : ١/ ٤٨٢).

(2) الإتقان: ١/ ٤١.

(3) سورة : الفرقان آية : ٣٣ ، والإتقان: ١/ ٤٢.

(4) حموش بن محمد بن مختار القيسى المقرئ ، من القيروان ، كثير التأليف فى علوم القرآن ، توفى سنة ٤٣٧ هـ . (إنباه الرواة : ٣/ ٣١٣).

(5) صحيح البخارى : ٦/ ١٨٥.

ويؤيد قول مكى ما روى عن عائشة ، رضى الله عنها ، : "إنما أنزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شئ (لا تشربوا الخمر) ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو أنزل (لا تزنوا) لقالوا : لا ندع الزنا أبداً " [1] ، وما أثر عن على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه : " أنزل القرآن خمساً خمساً إلا سورة الأنعام ، ومن حفظه خمساً خمساً لم ينسه " [2] ، وما أخرجه ابن عساكر عن طريق أبى نضرة قال : " كان أبوسعيد الخدرى يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشى ، ويخبرنا أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات " . [3]

ترتيب التلاوة :

لا ريب أن ترتيب التلاوة مرتبط ، بل مترتب على جمع القرآن، ولا سيما مصحف عثمان بن عفان ﵁ ، ومن ثم نرى أنه من الواجب أن نتناول موضوع جمع القرآن بشئ من التفصيل ، ومعلوم أن القرآن قد جمع ثلاث مرات :

---

(١) الإتقان: ١/ ٤٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر نفسه .

الجمع الأول :

كان ذلك فى عهد النبى ﷺ ، حيث كان جبريل ينزل عليه بالآية أو الآيات أو السورة بكاملها ، فيمليها الرسول على كتبة الوحى ، فيكتبونها فى اللخاف والعسب والأكتاف والأقتاب ، ثم تحفظ عند رسول الله ﷺ وكان النبى يوقف الكتبة على ترتيب الآيات تبعاً لتوقيف جبريل، فقد أخرج الحاكم فى (المستدرك) عن زيد بن ثابت أنه قال : " كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع " . [1]

أى : نرتب السور والآيات وفق إشارة النبى ﷺ وتوقيفه فى شئ من جلد أو ورق أو كاغد ، مما كان يتيسر لكتاب الوحى من أدوات الكتابة [2] ، ويقول المحاسبى [3]: " . . . وكان ذلك بمثابة أوراق وجدت فى بيت رسول الله ﷺ ، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شئ " . [4]

وقد أثر أن جبريل كان ينزل على النبى فى شهر رمضان ليستعرض معه ما نزل من القرآن طيلة العام . ولما كان العام الذى لحق فيه النبى بالرفيق الأعلى ، أتاه جبريل واستعرض معه القرآن كله،

---

(1) البرهان : ١/ ٢٣٧.

(2) مباحث فى علوم القرآن لصبحى الصالح : ٦٩.

(3) الحارث بن أسد المحاسبى ، من أكابر الصوفية ، كان عالماً بالأصول والمعاملات ، أستاذ أكثر البغداديين (توفى ببغداد سنة ٣٤٣هـ ، الأعلام : ٢/ ١٥٣).

(4) البرهان : ١/ ٢٣٨ ، الإتقان: ١/ ٥٨.

وقيل استعرضه مرتين ، وسميت هذه العرضة الأخيرة ". [١] وأخـــرج الإمام أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال : " كنت جالساً عند رســول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : أتانى جبريل فـــأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه الســـورة " إن الله يـــأمر بـــالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى " إلى آخرها . [٢]

ومعلوم أن النبى ﷺ قرأ سوراً عديدة بترتيب آياتها فى الصلاة، أو فى خطبة الجمعة بمشهد من الصحابة ، فكان ذلك دليلاً صريحاً على أن ترتيب آياتها توقيف من قبل الله ، تبارك وتعالى ، وأنه بذلـــك بلـــغ مبلغ التواتر .

نخلص من ذلك إلى أن القرآن الكريم كتب كله فى عهد رســول الله ﷺ غير مجموع فى مصحف واحد ، فقد أغنى عـــن ذلـــك حفـــظ الصحابة واستظهارهم لهم ، على ما وقفهم عليه النبى من ترتيب سوره وآياته بتوقيف من الله ، تبارك وتعالى ، وعن هذا يقـــول الزركشـــى : " وإنما لم يكتب فى عهد النبى ﷺ مصحف لئلا يفضى إلى تغييره فـــى كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ". [٣] وقال الخطابى : " إنما لم يجمع النبى ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزولـــه

---

[١] الإتقان: ١/ ٦٢.
[٢] الإتقان: ١/ ٥٧.
[٣] البرهان : ١/ ٢٦٢.

بوفاته . ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك " .[1]

الجمع الثانى :

وذلك فى عهد أبى بكر الصديق ﷺ سنة اثنتى عشرة للهجرة بعد موقعة اليمامة ، حيث استشهد فيها سبعون من حفظة القرآن الكريم من الصحابة ، فهال ذلك عمر بن الخطاب ﷺ فجاء إلى أبى بكر يقترح عليه جمع القرآن الكريم حتى لا يضيع بموت الحفظة ؛ ويروى زيد بن ثابت قصة هذا الجمع بقوله : " أرسل إلىّ أبو بكر ، مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبوبكر ﷺ إن عمر أتانى فقال : إن القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإننى أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر . قال زيد : قال أبوبكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبوبكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى

---

[1] الإتقان : ١/ ٥٧.

بكر وعمر . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال . . . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر " . [١]

وروى أن أبابكر قال لعمر وزيد بن ثابت : " اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شئ من كتاب الله فاكتباه " . [٢]

وروى أن عمر بن الخطاب قدم إلى المسجد فقال : " من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به"، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان . [٣]

وفسر ابن حجر العسقلانى الشهيدين بأنهما : الحفظ والكتابة.[٤] وفسرهما السخاوى فى (جمال القراء) بأنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ. [٥]

وروى الحارث المحاسبى أن مصحف أبى بكر كانت طريقة كتابته مشتملة على وجوه القراءات المطلقة على الحروف السبعة التى نزل بها القرآن على نحو ما كان عليه فى الجمع الأول على

---

[١] صحيح البخارى : كتاب فضائل القرآن ، ومسند أحمد : ١/ ١٣ ، وطبقات ابن سعد : ٣/ ٢٠١.

[٢] الإتقان: ١/ ٥٨.

[٣] المصدر السابق .

[٤] المصاحف لابن أبى داود : ٤.

[٥] الإتقان: ١/ ٥٨.

عهد النبى ﷺ . [1]

وأخرج ابن أشتة قال : " لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق ، قال أبوبكر : التمسوا له اسماً ، فقال بعضهم : (السفر) . قال : ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوا ذلك ، وقال بعضهم : (المصحف) فإن الحبشة يسمون مثله (المصحف) ، فاجتمع رأيهم على أن سموه (المصحف)".[2]

الجمع الثالث :

وذلك فى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد علمنا أن طريقة الكتابة فى كل من الجمعين الأول والثانى كانت مشتملة على وجوه القراءات المطلقة على الحروف السبعة التى نزل بها القرآن ، فلما كان فى عهد عثمان اختلف الناس فى القراءة ، ففزع عثمان من هذا الاختلاف ، وهذا أنس بن مالك يروى لنا القصة بقوله :

" اختلفوا فى القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون ، فبلغ ذلك عثمان بن عفان ، فقال : عندى تكذبون به وتلحنون فيه ، فمن نأى عنى كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً ، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً " . [3]

---

[1] الإتقان: ١ / ٦٠.

[2] الإتقان: ١/ ٥٨.

[3] صحيح البخارى : كتاب فضائل القرآن ، والمصاحف لابن أبى داود : ١٨.

وروى عن على بن أبى طالب أنه قال : " لا تقولوا فى عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا ، قال: ما تقولون فى هذه القراءة ؟ فقد بلغنى أن بعضهم يقول : إن قراءتى خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً ، قلنا : فما ترى ؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف . قلنا: فنعم ما رأيت " . [1]

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش . فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق " .

---

[1] الإتقان: ١/ ٥٩.

ولما كان المصحف الإمام حمّال أوجه فى قراءته نظراً لكونه خلوا من النقط والتشكيل ، لم يكتف عثمان بإرسال نسخة منه إلى كل مصر ، وإنما أرسل معه حافظاً يوافق قراءته ، فكان زيد بن ثابت مقرئ المصحف المدنى ، وعبدالله بن السائب مقرئ المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرئ الشامى ، وأبو عبدالرحمن السلمى مقرئ الكوفى ، وعامر بن عبدالقيس مقرئ البصرى . [١]

هل ترتيب السور فى المصحف توقيفى أو من عمل الصحابة ؟

انقسم العلماء حيال ترتيب التلاوة – أى ترتيب السور فى المصحف – إلى فرق ثلاثة :

الأول : يقول بأن هذا الترتيب هو من عمل الصحابة . ويمثل هذا الفريق الإمام مالك بن أنس ، والقاضى أبوبكر الباقلانى – فى أحد قوليه – ، وابن فارس القزوينى ، حيث يقول ابن فارس :

" جمع القرآن على ضربين : أحدهما تأليف السور ، كتقديم السبع الطوال ، وتعقبها بالمئين ، فهذا الذى تولته الصحابة . أما الجمع الآخر ، وهو جمع الآيات فى السور ، فهو توقيفى ، تولاه النبى ﷺ كما أخبر به جبريل عن ربه ، ولذلك اختلاف مصاحف السلف فى ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على النزول ، وهو مصحف علىّ ، كان أوله : اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ن ، ثم المزمل ، ثم تبت ، ثم التكوير ، وهكذا إلى آخر المكى والمدنى ، وكان أول مصحف ابن مسعود :

---

[١] مناهل العرفان للزرقانى : ١/ ٣٩٦.

البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، على اختلاف شديد ، وكذا مصحف أبى وغيره " . [1]

ويستدل هذا الفريق إلى جانب اختلاف مصاحف السلف بما روى عن أبى محمد القرشى أنه قال : " أمرهم عثمان أن يتابعوا السبع الطوال ، فجعلت سور الأنفال وسورة التوبة فى السبع ولم يفصل بينهما بسم الله الرحمن الرحيم " . [2]

الثانى : يقول بأن ترتيب أكثر السور توقيفى ، وبعضها يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة ، ويمثل هذا الفريق ابن عطية ، والبيهقى ، وأبو جعفر بن الزبير .

الثالث : يقول بأن ترتيب السور فى المصحف توقيفى ، ويمثل هذا الفريق القاضى أبوبكر الباقلانى – فى أحد قوليه – وأبوبكر بن الأنبارى ، والكرمانى ، والطيبى ، حيث يقول ابن الأنبارى :

" أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرقه فى بضع وعشرين ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر ، ويوقف جبريل النبى ﷺ على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، كله عن النبى ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن ".[3]

---

[1] الإتقان: ١/ ٦٢.
[2] الإتقان: ١/ ٦٢.
[3] المصدر السابق.

وقال الكرمانى : " ترتيب السور هكذا . هو عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب ، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه ، وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين ، وكان آخر الآيات نزولاً : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[1]، فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدين " . [2]

الحكمة فى ترتيب التلاوة :

أثر عن السلف الصالح قولهم : " التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر " ، أى أن التعليم فى الصغر يثبت فى الحافظة ويدوم على مر الأيام ، ولا يمحى من الذاكرة مهما طال الزمن ، حيث تكون حافظة الطفل خالية من المعارف والمدركات كالصفحة البيضاء ، قابلة للإمساك بكل ما يلقى فيها ، وفى هذا يقول الشاعر :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ∴ فصادف قلباً خالياً فتمكنا

هذا بخلاف ما إذا كان العلم فى الكبر ، فهو مظنة النسيان والمحو من الذاكرة بمرور الزمن ، حيث تكون الحافظة قد شغلت بأنواع المعارف وشتى المدركات ، ولم يعد بها مكان للحفظ والاستظهار.

---

(1) سورة : البقرة : آية ٢٨١ .

(2) الإتقان: ١/ ٦٢.

ومن ثم يدفع الناس بصغارهم إلى كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم ، حتى يتسنى لهم حفظ كتاب الله الكريم واستظهاره قبل أن تشغل صفحتهم البيضاء بغيره من العلوم الدنيوية ، والمعارف المعيشية ؛ إذ أننا - على مدى التاريخ - لم نسمع بمن حاول حفظ القرآن الكريم في سن متقدمة وسلم له ذلك مهما قاسى وعانى فى سبيل ذلك ، حيث لم تعد حافظته قادرة على الإمساك بما حفظه ، والاحتفاظ بما استظهره .

فضلاً على المنهج الملتزم فى جميع كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم الذى يبدأ فى تحفيظ الصغير بالمفصل - وهو السور القصار - ثم يتدرج معه إلى الأطول فالأطول حتى يصل إلى المثانى ، ثم إلى المئين، ثم إلى السور الطوال ، فهذا أدعى إلى ترسيخ الحفظ فى حافظة الصغير ، وتثبيت التحصيل فى ذاكرته .

علاوة على تشجيع الصغير على مداومة الحفظ والاستمرار فيه، حيث كلما انتقل من سورة إلى أخرى ، انشرح صدره ، وسعدت نفسه ، وأقبل على حفظ السورة الجديدة فى غبطة وسرور ، واستقبلها بهمة عالية ، واستعداد متجدد ؛ لما أننا - على مدى التاريخ - لم نصادف من حاول حفظ القرآن الكريم بادئاً بسورة البقرة ، ومتدرجاً فى الحفظ نزولاً إلى قصار السور وسلم له ذلك مهما قاسى فى هذا الأمر وعانى ، لما فى ذلك من مخالفة للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهى التدرج فى كل الأمور صعوداً من الأسهل إلى الأصعب ، وفى هذا يقول جلال الدين السيوطى : " . . . ثم ظهرت لذلك حكمة فى التعليم وتدريج

الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها تيسيراً من الله على عبـــاده ، لحفظ كتابه " . [1] وقال الزركشي : " فإن قلت : فهلا كـــانت الكتــب السابقة كذلك؟ قلت : لوجهين . أحدهما : أنها لم تكن معجزات من جهة النظم والترتيب ، والآخر : أنها لم تيسر للحفظ " . [2]

وقال الزمخشرى : " . . . ومنها أن القارئ إذا ختـــم ســورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ فى آخر ، كان أنشـــط لـــه ، وأبعــث علـــى التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطـــع ميلاً أو فرسخاً نفس ذلك فيه ونشط للسير ، . . . ومنها أن الحــافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها ، فيعظــم عنده ما حفظه " .

الأسرار الإلهية فى كل من ترتيبى النزول والتلاوة :

خلصنا مما تقدم إلى أن ترتيب سور القرآن الكريم عند نزولــه ، وترتيبها فى المصحف كلاهما ترتيب توقيفى من قبل النبى ﷺ على ما أخبره به جبريل عن رب العزة ، تبارك وتعـــالى ، وطالمـــا أن ذلــك توقيف من قبل الله – عز وجل – ليس فيه ثمة تدخل من جانب البشــر ، إذن لابد أنه ينطوى على أسرار لا قبل بها لبشر ، ولا يحيط بها ســوى رب القوى والقدر .

---

[1] الإتقان: ١/ ٦٦.

[2] البرهان : ١/ ٢٦٦، والإتقان ١/ ٦٦.

ولعل من أجل هذه الأسرار الإلهية فى هذا الأمر ، هو الوحـــدة أو الترابط والتناسق بين السور فى كلا الترتيبين ، بحيث تبدو كما لـــو أنها نظمت فى خيط واحد ، يأخذ بعضها بحجز بعض ، فى وحدة تامة، وتناسق وثيق ؛ وما علينا إلا أن نفرد قـــولا لكـــل مـــن الـــترتيبين ، نستعرض فيه شيئا من هذه الأسرار على سبيل التمثيل ، وليس الحصر، إذ ربما من الله علينا بإتاحة الفرصة لاستعراض هذه الأسرار فى كـــل سور القرآن كله على الترتيبين.

أولا : ترتيب النزول :

نعلم أن نزول القرآن كان منجما بحسب الوقـــائع والأحـــداث ، أو إجابات على أسئلة تثار ، أو تشريع يسن لإصلاح حال المجتمـــع ، مما قد يوحى بأنه من غير الممكن أن يكون ثمة ترابط أو تناسق بين ما نزل وفقا لهذه الأمور المتباينة ، مما حدا بواحد مـــن كبـــار العلمـــاء كعز الدين ابن عبدالسلام أن يقول :

" إن ربط آيات القرآن على ترتيب نزولها تكلف لا يليق ، إذ أنه يشترط فى حسن الكلام أن يقع فى أمر متحد ، مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلـف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضـــلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كـــان كذلـــك لا يتـــأتى ربـــط بعضـــه ببعض". (١)

---

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطى (الدراسة) ص ٣٠.

ولكن الشيخ ولى الدين الملوى يرد هذا الزعم بقوله :

" قد وهم من قال : لا يطلب للآية الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المفرقة ، وفصل الخطاب أنه على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً " . [1]

ونحن نضم صوتنا إلى صوت الشيخ الملوى ، فنقول وبالله التوفيق :

نزل القرآن بعضه بمكة ، وبعضه بالمدينة المنورة ، وما نزل بمكة نزل فى بيئة كافرة ، وأمة مشركة ، تعبد الأصنام ، وتجلها ، وتعتقد تمام الاعتقاد فى نفعها وضرها ، فحينما تنزل رسالة تبشر بدين جديد ، يدعو إلى نبذ هذه الآلهة المصنوعة ، التى على إجلالها وتعظيمها تقوم حياة القوم ، وترتب معيشتهم ، وتؤكد مكانتهم وسيادتهم، لابد أن تمثل هذه الرسالة الجديدة منهجاً لتأسيس الدعوة الجديدة ، وتكون وسيلة إقناع بهذه العقيدة القادمة ، وطريقة مثلى للتبشير بها والنذير بسوء ما عليه القوم ، حتى إذا ثاب الناس إلى رشدهم ، ودخلوا فى الدعوة الجديدة ، صارت هذه الرسالة السماوية أسلوب حياة وبناء وحضارة ، ودستوراً يحكم العلاقات بين أفراد المجتمع ، بما يحقق لهم حياة سعيدة فى الدنيا والآخرة ، وهذا ما تكفل به الشطر الذى نزل بالمدينة المنورة .

---

[1] المصدر السابق.

فإذا أمعنا النظر ، وأعملنا الفكر فى أول ما نزل من القرآن الكريم ، وهو قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . [1] وجدنا أن ذلك مما يطلق عليه البلاغيون (براعة الاستهلال) ، حيث إن من عهد إليه بهذه الرسالة رجل أمى لا عهد له بقراءة ولا كتابة ، ونزل عليه جبريل ومعه رقعة من الديباج الأخضر مكتوب فيها شئ من القرآن ، وقال له : اقرأ ، فرد الرسول الكريم : ما أنا بقارئ – مرتين ، فتلا جبريل عليه هذه الآيات ، أى " استعن على القراءة باسم ربك الذى خلق الكائنات من العدم ، وخلق الإنسان من حيوان كالعلقة ، اقرأ وسيعينك ربك الأكرم على ذلك ، فهو الذى علم الإنسان كيف يخط بالقلم ، وعلمه ما لم يكن يعلم.

وما أن أقرأ جبريل محمدا هذه الآيات ، حتى نزل محمد مسرعا إلى زوجته خديجة يرتعد ويرتجف من هول ما حدث ، وقال : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى ، ولما ذهب عنه الخوف ، وهدأت نفسه ، أخذت خديجة تستوضحه الأمر ، فحكى لها القصة .

ولم يمض إلا وقت يسير ، حتى شاع الخبر فى أنحاء مكة ، فحدث بينهم لغط شديد فى تفسير ما حدث ، ولم يجد كفار مكة ومشركوها تفسيرا لهذه الظاهرة إلا أن محمدا قد مسه شئ من الجنون ، فهاله أن يصفه قومه بالجنون ، وهو من عهدوه رجاحة فى العقل ، وسلامة فى الفكر ، وصدقا فى القول ، وحفظا للأمانة .

---

[1] سورة العلق : الآيات ١– ٤.

فأراد الله – تبارك وتعالى – أن يطمئن رسوله على سلامة عقله، وبراءته من الجنون ، وأنه أعظم قومه أخلاقا ، بعد أن يعلمه أن دعوته الجديدة قوامها العلم والمعرفة واستشراف حقائق الكون ، معبرا عن ذلك بأداة العلم وهو القلم ، ومن ثم نزلت ثانية السور المكية وهي سورة القلم، حيث افتتحها – سبحانه – بالقسم بذاته العلية [1] ، وبالقلم ، وبالكتابة وذلك لشرف العلم وأدواته ، فيقول – سبحانه – : ﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ . [2]

ثم يحذره رب العزة من الكفار العالمين بصدق دعواه ، ثم يخفون الحقائق خوفا على جاههم وسلطانهم ومكانتهم كالوليد بن المغيرة الذى سمع القرآن فأعجبه وأثنى عليه بقوله : " إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أدناه لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما هو بقول بشر " ، ولما زجره أبو جهل ، وذكره بالأرستقراطية القرشية ، نكص على عقبيه ، وعاد يحلف لهم ويقسم أن ما نزل على محمد إن هو إلا أساطير الأولين ، حيث يقول – جل وعلا–: ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه

---

[1] انظر بحثا لنا بعنوان (نون الوقاية . . ليست للوقاية ، منشور بحوليات دار العلوم – العدد العاشر ١٩٨٢ ، توصلنا فيه إلى أن المتكلم هو حرف النون).

[2] سورة القلم : الآيات ١– ٤.

آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم ﴾ . [١]

ثم يبين الله – تعالى – لنبيه حال المشركين المكذبين فى الدنيا ، وما ينتظرهم فى الآخرة بقوله – تعالى – : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين﴾.[٢]

ثم يأمره – سبحانه – بالصبر على نشر الدعوة الجديدة ، ويحذره من السأم والضجر منها كحال سيدنا يونس بن متى ، حيث يقول – سبحانه – ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ . [٣]

ثم ختم السورة ببيان دهشة الكافرين عند سماعهم القرآن حتى اتهموه بالجنون ، وما هذا القرآن إلا تذكرة لهم ولغيرهم من العالمين ، حيث يقول : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون . وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ . [٤]

آمن بالدعوة الجديدة جمع قليل ، وثارت فى وجهها عاصفة من العداء والمقاومة التى من شأنها أن تفت فى عزيمة أقوى الرجال

---

[١] سورة القلم : الآيات ١٠- ١٦.

[٢] سورة القلم : الآيتان ٤٤ ، ٤٥.

[٣] سورة القلم : الآيات ٤٨ – ٥٠.

[٤] سورة القلم : الآيتان ٥١ ، ٥٢.

وأشدهم صلابة ما لم يكن مؤمنا بقوة عليا قاهرة ، هى أقوى من كـــل القوى البشرية مجتمعة.

ومع العناية الرحيمة الفائقة من الله – تعالى – على رســوله ﷺ فقد وجهه إلى التزام منهج تربوى جديد ، من شأنه أن يجعل الإنســـان على صلة دائمة بمصدر هذه القوة القاهرة ، مســـتعدا للوفــاء بــأعظم الأعمال ، والثبات أمام أشد التبعات والأهوال ، فنزلت سورة (المزمل) وفى صدرها هذا المنهج الجديد للرسول وأتباعه الذيـــن ألقيــت علـــى كواهلهم التبعات الأولى للدعوة الجديدة . [١]

وهذا المنهج التربوى يتمثل فى قيام الليل ، وترتيـــل القــرآن ، استعدادا لقول ثقيل سوف يلقى عليه ﷺ وهو الأمر بالجـــهر بـــالدعوة الجديدة ، وإنذار القوم من مغبة النكوص عن الدخـــول فيـــها ، حيـــث يقول – سبحانه – : ﴿ ياأيها المزمل . قم الليل إلا قليـــلا . نصفـــه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا ﴾. [٢]

ثم عاد – سبحانه – للحديث عن أحوال الكافرين من أمثال الوليد ابن المغيرة ، وما ينتظرهم من عذاب يوم القيامـــة ، حيـــث يقـــول : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرني والمكذبيـــن أولي النعمة ومهلهم قليلا. إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعامـــا ذا غصـــة

---

[١] تناسق السور (الدراسة) : ٣٢.

[٢] سورة المزمل : الآيات ١– ٦ .

وعذابا أليما ﴾. [1]

ثم يتم – سبحانه – المنهج التربوى الذى ارتضاه للمؤمنين بالأمر بألا يشقوا على أنفسهم ، فيقرأوا ما تيسر من القرآن . لأنهم سوف يكون منهم مرضى ، ومنهم من يضرب فى الأرض ، ومنهم من يقاتل فى سبيل الله ؛ وأن يستغفروا الله الذى سوف يغفر لهم ، حيث يقول : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾. [2]

وبعد أن أرسى – سبحانه – لنبيه ومن معه هذا المنهج التربوى العظيم استعدادا للقول الثقيل الذى سيلقى عليهم ، نزلت سورة المدثر ، التى تتصدر بذلك القول الثقيل ، حيث تبدأ بقوله – تعالى – : ﴿ يا أيها المدثر. قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ﴾.[3]

ثم يربط الله – تبارك وتعالى – هذه السورة بما قبلها ، حيث يأمره بالصبر على تحمل هذه التبعة فيقول فى (المزمل) : ﴿ فاصبر

---

[1] سورة المزمل : الآيات ١١– ١٣.

[2] سورة المزمل : الآية ٢٠.

[3] سورة المدثر : الآيات ١– ٥.

لحكم ربك ﴾ [١] ، ثم يقول فى هذه : ﴿ ولربك فاصبر﴾ [٢] ، كما يربط بينهما بالحديث عن الوليد بن المغيرة الذى عاد بعد زجر أبى جهل له ، ففكر وهذى ، وادعى أن القرآن سحر ، وأنه من قول البشر ، حيث يقول – تبارك وتعالى – : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر ﴾. [٣]

ثم عاد – سبحانه – ليربط السور الثلاث : القلم ، والمزمل ، والمدثر فى قرن واحد ، حيث تحدث فى ثلاثتها عن القرآن ، فقال فى (القلم) : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [٤] ، وقال فى (المزمل) : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ [٥] ، وقال فى (المدثر):﴿فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ [٦] ، وقال فيها أيضا : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾.[٧]

---

[١] سورة القلم : الآية ٤٨.
[٢] سورة المدثر : الآية ٧.
[٣] سورة المدثر : الآيات ١١- ٢٦.
[٤] سورة القلم : الآية ٥٢.
[٥] سورة المزمل : الآية ١٩.
[٦] سورة المدثر : الآية ٤٩.
[٧] سورة المدثر : الآية ٥٤.

وبعد الأمر بقيام الليل ، وتلاوة القرآن الكريم ، كان لابـــد مـــن وجود صيغة ، محددة يلتزم بها الجميع فى الصلاة ، ولابد من وجـــود قرآن يتلى ، إذ السور الأربعة ما هى إلا بيان لمنهج الدعوة الجديـــدة ، والتهيئة لها ، وبيان موقف الكفار منها ، فلابد من قرآن تعبدى خـــالص يناجى فيه المؤمن ربه ، فنزلت سورة (فاتحة الكتـــاب) التـــى ســـماها الرسول الكريم (أم الكتاب) وقال : " لا صلاة إلا بأم الكتاب " ، كما قال عنها : إنها تعدل ثلث القرآن ، وأجمع المفسرون على أنها اشتملت على كل المعانى التى جاءت مفصلة فى القرآن كله ، حتى إذا قرأوها فكأنما قرأوا القرآن كله.

بعد أن استعرضنا هذه السور الخمسة ، هل نرى ترابطا يفـــوق ذلك الترابط الذى يسودها جميعا ، وذلك التناسق فيما بينها التى يجمـــع بينها فى عقد فيجعل منها وحدة واحدة ، فهو ترابط يساير تطور ســـير الرسالة الجديدة ، وتسلسل أحداثها ووقائعها ؛ إذ تبين ســـورة (العلـــق) فضيلة العلم ، وأنه قوام الدعوة الجديدة ؛ وإذ ينكر الكفار الوحى ومـــا نزل به على محمد ، ويصفونه بالجنون ، فتنزل سورة (القلـــم) لتؤكـــد فضيلة العلم وتنفى عن الرسول ﷺ صفة الجنون، بل تصفه بأنه علـــى عظيم ؛ ثم تنزل سورة (المزمل) فترسم للمؤمنين منهجا تربويـــا يلتزمونه لضمان نجاح دعوتهم ، حتى إذا تحقق ذلـــك نزلـــت ســـورة (المدثر) لتأمر الرسول ومن آمن معه بالجهر بالدعوة ، وإنذار القوم من مغبة ما هم عاكفون عليه . ولما كان المنهج التربوى يتطلـــب طقوســـا معينة وصيغا محددة ، توحيدا لذلك المنهج ، وعدم الاجتهاد والتفـــرق فيه، نزلت سورة (فاتحة الكتـــاب) لتكـــون هـــى عمـــاد قيـــام الليـــل

وتلاوة القرآن.

ثانيا : ترتيب التلاوة :

بعد أن كان القرآن الكريم – فى ترتيبه النزولى – منهجا لتأسيس دعوة جديدة ، وأسلوب إقناع بعقيدة سماوية ، وطريقة تبشير وإنذار ، ودحض لمنطق الإلحاد والكفر ، وتدرجا بالكافرين والمشركين إلى مرتبة الإيمان والتصديق.

نجده فى ترتيبه المصحفى – حيث يتلوه المسلمون ويستظهرونه، وبه يتعاملون ويتقاضون – أسلوب حياة ، وبناء حضارة ، ودستورا للعالم يكفل الوفاء بكل احتياجاته ومتطلباته . وما علينا إلا أن نسوق – فى هذه العجالة – شيئا من ألوان الترابط والتناسق بين بعض السور فى ترتيبها المصحفى ، على النحو المتقدم فى ترتيب النزول.

فقد افتتح الله – تبارك وتعالى – كتابه الكريم بسورة **(فاتحة الكتاب)** لأنها جمعت مقاصد القرآن جميعها . ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس ، والواقية ، والكنز ؛ فصارت كالعنوان ، وما يعرف لدى البلاغيين ببراعة الاستهلال . وعنها يقول الحسن البصرى : " إن الله أودع علوم الكتب السابقة فى القرآن ، ثم أودع علوم القرآن فى المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فى الفاتحة ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة ". [1]

---

[1] شعب الإيمان للبيهقى : ٢/ ١٨٧.

ويقول الطيبى [1] : " وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلا ، فإنها واقعة فى مطلع التنزيل ، والبلاغة فيه أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغى أن يقيد شئ من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق " . [2]

أما سورة (البقرة) فقد افتتحت بقول الله – تعالى – : ﴿الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾[3]، وفيه إشارة إلى الصراط المستقيم فى قوله فى الفاتحة : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [4] . فإنهم لما سألوا الله الهداية إلى الصراط المستقيم ، قيل لهم : ذلك الصراط المستقيم الذى سألتم الهداية إليه ، فقد روى عن على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – أنه قال : " الصراط المستقيم كتاب الله " [5] . وقال الخوئى [6]: " أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة (الفاتحة) ، لأن الله – تعالى – لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ما طلبتم: " هذا الكتاب هدى لكم ، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول". [7]

---

[1] الحسين بن عبدالله بن محمد الطيبى ، أحد كبار علماء الحديث والتفسير واللغة ، توفى سنة ٧٤٣هـ . (الدرر الكامنة : ٢/ ١٥٦).

[2] شرح الكشاف للطيبى : ١/ ٢٩ (خ).

[3] سورة البقرة : الآية الأولى .

[4] سورة الفاتحة : الآية ٧.

[5] جامع البيان : ١/ ١٧٣ ، والمستدرك : ٤/ ٨٣.

[6] أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر ، توفى بدمشق سنة ٦٢٧ هـ. (شذرات الذهب : ٣/ ٢٥).

[7] البيان فى تفسير القرآن للخوئى : ٢/ ٢٧.

وكما ختمت (الفاتحة) بدعاء المؤمنين بألا يسلك الله بهم طريق المغضوب عليهم ، ولا الضالين إجمالا ، ختمت سورة (البقرة) بدعائهم بألا يسلك بهم طريقهم فى المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وحمل الإصر ، وما لا طاقة لهم به تفصيلا فى قوله – تعالى – ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾[١]. وقد روى أن معاذ بن جبل ﷺ كان يقول (آمين) فى آخر البقرة ، كما هو مشروع فى آخر الفاتحة .[٢]

ولما كانت سورة البقرة هى أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال، حتى سميت (فسطاط القرآن) [٣] الذى هو المدينة الجامعة ؛ كما أنها أطول سورة فى القرآن ، وقد افتتح بالسبع الطوال ، وأنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فناسب البدء بها وتقديمها على جميع السور . [٤]

أما سورة (آل عمران) فهى قرينة سورة (البقرة) وكالمكملة لها، فعملا بقاعدة أن كل سورة تعد شرحا لما أجمل فى السورة التى قبلها ، نلاحظ من مظاهر الترابط بينها والتناسق ما يلى :

---

[١] سورة البقرة : الآية ٢٨٦.

[٢] تفسير ابن كثير : ١/ ٥٠٩.

[٣] سنن الدارمى : ٢/ ٤٤٦.

[٤] تناسق السور : ٨٢.

١- لما ورد فى سورة الفاتحة ذكر اليهود والنصارى علـــى حسـب ترتيبهم فى الزمان ، حيث فسر الرسول الكريم (المغضوب عليهم) باليهود ، و(الضالين) بالنصارى [١] ؛ فقد عقب - سبحانه - بسـورة (البقرة) وجميع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة ، ثـم ثنى بسورة (آل عمران) وأكثر ما فيها من خطاب أهـل الكتـاب للنصارى.

٢- افتتحت (البقرة) بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه ، وفصل فى (آل عمران) فقال : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بيـن يديـه وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ . [٢]

٣- أجمل فى (البقرة) فقال : ﴿ وما أنزل من قبلك﴾ [٣] ، وفصل فـى (آل عمران) فقال : ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل مـن قبـل هـدى للناس ﴾[٤]

٤- أجمل فى (البقرة) فقال : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ [٥] ، وفصل فى (آل عمران) فقال : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسـونهم بإذنـه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكـم مـا تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم

---

[١] تفسير ابن كثير : ١/ ٤٦.

[٢] سورة آل عمران : الآية ٣.

[٣] سورة البقرة : الآية ٤.

[٤] سورة آل عمران : الآيتان ٣، ٤.

[٥] سورة البقرة : الآية ٢١٦.

ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعـدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغـم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنـا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مـا لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لـو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلـي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم واللـه عليـم بـذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنمـا اسـتزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم. يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحي ويميت واللـه بمـا تعملـون بصير . ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من اللـه ورحمـة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشـرون . فبمـا رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضـوا مـن حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمـت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ . [١]

---

[١] سورة آل عمران : الآيات ١٥٢ – ١٥٩.

٥- أجمل الحديث عن الشهداء فى (البقرة) بقوله : ﴿ أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ [١] ، وفصل فى (آل عمران) بقوله : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . ﴾. [٢]

٦- أجمل فى (البقرة) فقال : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ [٣] ، وفصل فى (آل عمران) فقال : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾. [٤]

٧- أجمل فى (البقرة) فقال : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ [٥]، وفصل فى (آل عمران) فقال : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ . [٦]

---

[١] سورة البقرة : الآية ١٥٤.

[٢] سورة آل عمران : الآيات ١٦٩- ١٧١.

[٣] سورة البقرة : الآية ٢٤٧.

[٤] سورة آل عمران : الآية ٢٦.

[٥] سورة البقرة : الآية ١٩٦.

[٦] سورة آل عمران : الآية ٩٧.

٨- ذكر فى (البقرة) دعوة إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ﴾ [١] وذكر الاستجابة فى (آل عمران) بقوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ . [٢]

أما سورة (النساء) فتضمنت أحكام العلاقات بين الناس كالنسب والصهر، وما يتعلق بهما من نكاح النساء ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام . . إلى غير ذلك من العلاقات ؛ أما ارتباطها بما قبلها فواضح جلى ، حيث تعد شارحة أيضا لما تقدم من مجملات :

١- أجمل - سبحانه - فى (البقرة) بقوله : ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [٣] ، ثم فصل فى (النساء) فقال : ﴿اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تتساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ . [٤]

٢- أجمل فى (البقرة) آية اليتامى ، وآية الوصية ، والميراث ، والوارث بقوله : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ [٥] ، وفصل كل ذلك فى (النساء) فى الآيات : ٧، ١١، ١٢، ٢٢، ١٧٦.

---

[١] سورة البقرة : الآية ١٢٩.

[٢] سورة آل عمران : الآية ١٦٤.

[٣] سورة البقرة : الآية ٢١.

[٤] سورة النساء : الآية الأولى .

[٥] سورة البقرة : الآية ٢٣٣.

٣- أجمل فى (البقرة) نكاح الأمة بقوله : ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ﴾ [١] ، وفصل فى (النساء) ذاكرا شروطه بقوله : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾ . [٢]

٤- أجمل فى (البقرة) ذكر الصداق بقوله : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ﴾ [٣]، وشرحه مفصلا فى (النساء) بقوله: ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾. [٤]

وأما وجوه اعتلاق (النساء) بـ (آل عمران) فمنها :

١- أن (آل عمران) ختمت بالأمر بالتقوى فى قوله - تعالى -: ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [٥]، وافتتحت (النساء) به فى قوله :

---

[١] سورة البقرة : الآية ٢٢١.

[٢] سورة النساء : الآية ٢٥.

[٣] سورة البقرة : الآية ٢٢٩.

[٤] سورة النساء : الآيتان : ٢٠، ٢١.

[٥] سورة ال عمران : الآية ٢٠٠.

﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ . [١]

٢- ذكر فى (آل عمران) قصة غزوة أحد مستوفاة ، وذكر فى (النساء) ذيلها وهو قوله سبحانه : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين.. ﴾.[٢]

٣- ذكر فى (آل عمران) قصة خلق عيسى بلا أب ، وأقيمت له الحجة بخلق آدم ، وفى ذلك تبرئة لأمه ، خلافا لما زعم اليهود ، وتقرير لعبوديته ، خلافا لما ادعته النصارى ، وذكر فى (النساء) الرد على الفريقين معا ، فرد على اليهود بقوله : ﴿وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴾ [٣] ، وعلى النصارى بقوله : ﴿ لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ إلى قوله : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ﴾ . [٤]

٤- لما ذكر فى (آل عمران) خطابا للمسيح : ﴿ إني متوفيك ورافعك إلي ﴾ [٥] ، رد فى (النساء) على من زعم قتله بقوله : ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا

---

[١] سورة النساء : الآية الأولى

[٢] سورة النساء : الآية ٨٨.

[٣] سورة النساء : الآية ١٥٦.

[٤] سورة النساء : الآيات ١٧١ - ١٧٢.

[٥] سورة آل عمران : الآية ٥٥.

اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه﴾.[1]

ومن أجل صور الترابط والتناسق بين السور الأربعة المتقدمة ، أن الله – سبحانه – لما ذكر اليهود والنصارى على حسب ترتيبهم الوقتى فى (الفاتحة) ، قص فى كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب ذاته ، فكانت (البقرة) مختصة باليهود ، وكانت (آل عمران) مختصة بالنصارى ، وجاءت (النساء) ، وفى صدرها ذكر اليهود فى قوله – تعالى – : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [2]، وفى ختامها ذكر النصارى فى قوله : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾.[3]

---

[1] سورة النساء : الآيتان : ١٥٧– ١٥٨.

[2] سورة النساء : الآية ٤٦ وما بعدها .

[3] سورة النساء : الآية ١٧١.

قياس الدلالة وحجيته

د. محمد على إبراهيم *

اعتمد العلماء على قياس الدلالة كثيرا فى استدلالاتهم ، ويعرف ذلك بإلقاء أدنى نظرة فى كتب الفروع الفقهية . قال الإمام الغزالى عن قياس الشبه ، وهو نوع من قياس الدلالة : ولعل جل أقيسة الفقهاء ترجع إليها – قياس الشبه – ؛ إذ يعسر إظهار تأثير العلل بالنص والإجماع ، والمناسبة المصلحية . [١]

---

* أستاذ مساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة.

[١] المستصفى بتحقيق الأشقر ٢/ ٣١٩.

وإذا كان أكثر الاستدلالات القياسية فى الفروع من قياس الدلالة ، كان من المناسب أن يفرد ببحث مستقل يوضح فيه ماهيته وأقسامه ، ومدى حجيته فى إثبات الأحكام.

وقد اختلفت مناهج الأصوليين فى تناول البحث فى قياس الدلالة، فجعل بعضهم قياس الشبه نوعاً منه ، وهو منهج جل علماء الأصول فى بغداد فى القرن الرابع ، فقياس الدلالة عندهم : هو الجمع بين الأصل والفرع بما دلّ على العلة ، سواء كان لازماً من لوازمها أو شبهاً يغلب على الظن دلالته على العلة الجامعة.

والبعض الآخر ، وهو أكثر المتأخرين قصروه على إلحاق الفرع بالأصل بلازم العلة ، وتناولوا قياس الشبه ببحث مستقل ، ولكن هؤلاء اختلفوا فى كونه مسلكاً من مسالك العلة ، أو ليس بمسلك.

وذهب البعض إلى أنه مسلك من مسالك العلة ، وآخرون إلى أنه ليس بمسلك ؛ لأن المسالك إنما هى مثبتة لعلية الوصف للحكم، والشبه ثبتت عليته بالمسالك .[1]

ومن العلماء الذين جعلوا قياس الشبه نوعاً من قياس الدلالة :

١- أبو إسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦هـ ، قال معرفاً له : قياس الدلالة هو أن يرد الفرع بغير العلة التى تعلق الحكم بها فى الشريعة ، وإنما يجمع بينهما المعنى الذى يدل على العلة ، وهذا

---

[1] تيسير التحرير ٤/ ٥٣.

أيضاً طريق إثبات الأحكام ؛ لأن العلل تارة تذكر للحكم ، وتـــارة يذكر ما يدل على العلة ، ثم قسمه إلى ثلاثة أضرب مع التمثيل لكل ضرب:

1) الاستدلال بخصيصة من خصائص الحكم على ثبوت الحكم.

2) الاستدلال بالنظير على النظير.

3) قياس الشبه ، وهو على ضربين.

أ- ضرب فيه نوع من دلالة تدل على الحكم .

ب- ضرب ليس فيه نوع دلالة ، وإنما هو مجرد شبه . [1]

2- أبو الوليد الباجي المتوفى سنة ٤٧٤هـ ، وقد سار في كتاب إحكام الفصول على منهج الشيرازي نفسه ، حيث قسمه إلى ثلاثة أضرب:

الأول : الاستدلال بحكم من أحكام الأصل موجود في الفرع على دخول الفرع في حكم الأصل.

الثاني : الاستدلال بثبوت حكم يشاكل المختلف فيه في الفرع على إثبات الحكم المختلف فيه.

الثالث : قياس الشبه ، وهو أن يحمل الفرع على الأصل بضرب من الشبه. [2]

---

[1] شرح اللمع ٢/٨٠٦- ٨١٢.

[2] إحكام الفصول في أحكام الأصول ص ٦٢٩.

٣- أبو الخطاب الكلوذاني المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، وقد جعل قياس الدلالة أربعة أضرب ، فزاد على ما ذكراه ضربا رابعا ، وهو قياس الاسم الخاص على الاسم الخاص .[١]

٤- القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣هـ ، قال عن قياس الشبه : هو قياس الدلالة ، وهو الجمع بين الفرع والأصل بما لا يناسب الحكم ، ولكن يستلزم ما يناسب الحكم .[٢]

٥- إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨هـ ، قال بعد ذكر أقسام القياس: وألحق ملحقون قياس الدلالة بهذه الأقسام واعتقدوه قسما سادسا، ولا معنى لعده قسما على حياله وجزءا منه على استقلاله ؛ فإنه يقع منبئا عن معنى تارة ، وتارة شبها ، وهو في طوريه لا يخرج عن قياس المعنى أو الشبه.[٣]

٦- الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ ، وقال في أثناء مناظرته للمخالفين له في حجية قياس الشبه : أهل بغداد وسائر العراقيين يطلق على هذا - قياس الشبه - قياس الدلالة . .[٤]

وقد سرت على هذا النهج في البحث ، وهو : اعتبار الشبه من قياس الدلالة ؛ لأنه يمكن أن يكون من الشبه ما هو دال على العلة

---

[١] التمهيد ١/ ٢٩- ٣٠.

[٢] نفائس الأصول ٧/ ٢٩- ٣٣.

[٣] البرهان ٢/ ٨٨.

[٤] شفاء الغليل في مسائل التعليل ص ٣٨١.

الغائبة عن المجتهد فى محل الحكم ؛ وذلك لأن الأحكام مبنية على علل تتضمن مصالح العباد ، فإذا ظن المجتهد أن شبها يدل على العلة فى محل الحكم فله أن يلحق المسكوت بذلك المحل عملاً بظنه.

واعتبار كون الشبه دليلاً على العلة فى قياس الشبه ، وليس عين العلة يخرج عن الغموض ، والإشكال الذى يكتنف الشبه فى حالة اعتباره علة.

قال الغزالى : المشكل فى الشبه جعل الوصف الذى يناسب مناطاً للحكم مع أن الحكم لم يضف إليه . (١)

القياس وبيان أركانه .

لما كان هذا البحث فى أحد أقسام القياس من حيث ذكر العلة ، وعدم ذكرها ، وهو قياس الدلالة ، رأيت من المناسب أن أوضح بين يدى البحث حقيقة القياس والعلة ، وبعض ما يتعلق بها ، مما له علاقة قريبة بالبحث ؛ لأن قياس الدلالة جُمِع بين الأصل والفرع بدليل العلة.

تعريف القياس :

تعريفه لغة : هو تقدير الشئ بالشئ ، والمقدار مقياس ، يقال : قست الشئ بغيره وعلى غيره ، إذا قدرته على مثاله . (٢)

---

(١) المستصفى ٢/ ٣٢٤.

(٢) معجم المقاييس فى اللغة : ٨٦٨ ، لسان العرب ٥/٣٧٧٤.

القياس اصطلاحاً : اختلف العلماء فى تعريفه كثيراً ، وأختار من بينها تعريف الإمام البيضاوى [1] ؛ لوضوحه ، وقلة الاعتراضات الوجيهة الواردة عليه. وقد قال : " إثبات مثل حكم معلوم فى معلوم آخر ، لاشتراكهما فى علة الحكم عند المثبت " . [2]

وقوله : إثبات : كالجنس يشمل المعرّف وغيره ، والمراد بالإثبات هنا: القدر المشترك بين العلم والاعتقاد والظن ، ويشمل القياس القطعى والظنى ، والقدر المشترك : هو حكم الذهن بأمر على أمر ، سواء كان إثباتاً أو نفياً.

وقوله : مثل حكم : المقصود بالحكم هنا نسبة أمر إلى أمر ، أو نفيه عنه ، وهو يشمل الحكم الشرعى والعقلى ، إيجاباً أو سلباً.

وقوله : فى معلوم آخر : بيان أن القياس لا يكون إلا بين أمرين.

وقوله : لاشتراكهما فى العلة : بيان أن القياس لا يثبت بغير علة، ولابد من وجود علة فى الأصل والفرع بكمالها وتمامها.

---

[1] هو عبدالله بن عمر البيضاوى ، ويعرف بالقاضى ، كان إماماً مبرزاً ، نظاراً ، صالحاً ، فقيهاً أصولياً ، ومفسراً ، وأديباً نحوياً ، وله عدة مصنفات منها : منهاج الوصول فى معرفة علم الأصول . توفى سنة ٦٨٥هـ . الفتح المبين فى طبقات الأصوليين ٢/ ٨٨.

[2] الإبهاج فى شرح المنهاج ٣/ ٥.

وقوله : عند المثبت : أتى به ؛ ليصدق التعريف على القياس الصحيح والفاسد ؛ لأن الاشتراك فى العلة إذا أطلق انصرف إلى الاشتراك فى الواقع ونفس الأمر.

أركان القياس :

يظهر من خلال التعريف أن القياس مبنى على أربعة أركان .

الركن الأول : الأصل وهو محل الحكم المقيس.

الركن الثانى : العلة وهى الوصف الجامع بين الأصل والفرع. وهى الركن الأعظم من مقصود القياس.

الركن الثالث : حكم الأصل المقيس عليه.

الركن الرابع : الفرع ، وهو المقيس.

تعريف العلة :

تعريف العلة لغة : المرض ، يقال : اعتل إذا مرض . [١]

تعريفها اصطلاحاً : اختلف الأصوليون فى تعريفها كثيراً ، وأكتفى بذكر تعريفين مشهورين من تعريفاتهم .

أحدهما : تعريف جمهور أهل السنة ، **والثانى** تعريف المعتزلة.

---

[١] لسان العرب ٤/ ٣٠٨١ ، معجم مقاييس اللغة : ٦٤٩.

الأول : عرفها الجمهور بأنها : الوصف المعرف للحكم . [1] ويراد به الوصف الذى جعله الشارع علامة على الحكم يعرف به وجود الحكم من غير أن يكون موجبا للحكم ، والموجب للأحكام هو الله سبحانه وتعالى.

الثانى : نقل أصوليون عن المعتزلة أنهم يعرفونها بأنها : " الوصف المؤثر بذاته فى الحكم " .. [2] المراد بالمؤثر : ما به وجود الشئ أى : أن الحكم ثبت بسببه . وهذا التعريف بناء على أن الحكم تابع لحسنه وقبحه ، وكون الوصف مؤثرا فى الحكم باعتبار ما اشتمل عليه من حسن وقبح ذاتى عندهم.

وليس تأثير العلة الشرعية كتأثير العلة العقلية ؛ فإن تأثير العلة العقلية على سبيل الإيجاب ، والشرعية على سبيل الاختيار.

قال أبو الحسين البصرى [3] مبينا الفرق بينهما : العلة الشرعية لا تختص بهذه الشرائط – أى شرط العلة العقلية – ؛ لأنها لما كان تأثيرها فى الحكم لا على طريق الإيجاب ، وإنما كان وجه تأثيرها كونها لطفا للمكلف وداعيا إلى اختيار فعل آخر صار تأثيرها متعلقا بالاختيار. [4]

---

[1] الإبهاج شرح المنهاج ٣/ ٤٣.

[2] حاشية البنانى على شرح الجلال المحلى ٢/ ٢٤٣.

[3] هو محمد بن على الطيب البصرى ، أحد أئمة المعتزلة ، وكان مبرزا فى علمى الأصول والكلام ، وله عدة مصنفات منها : المعتمد فى الأصول توفى سنة ٤٣٦هـ . انظر : فتح المبين فى طبقات الأصوليين ١/ ٢٣٧.

[4] شرح العمد ٢/ ٥٨.

العلاقة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى للعلة :

اختلف الأصوليون فى بيان العلاقة بينهما ، قال البعض : إن العلة لها تأثير فى الحكم كتأثير المرض فى ذات المريض.

قال الغزالى : " العلة فى الأصل ما يتأثر المحل بوجوده ؛ ولذلك سمى المرض علة ، وهى فى الاصطلاح على هذا المذاق " . [1]

قيل سميت العلة علة ؛ لأنها ناقلة لحكم الأصل إلى الفرع ، كالانتقال بالعلة من الصحة إلى المرض.

وقيل : العلة مأخوذة من العَلل بعد النَهل ، وهو معاودة شرب الماء مرة ، بعد مرة ؛ لأن المجتهد فى استخراجها يعاود النظر بعد النظر . [2]

طرق إثبات العلة :

ولما كانت الأصول قسمين ، قسم معلل ، وقسم غير معلل ، والمعلل يجتمع فيه أكثر من وصف مع احتمال أن يكون كل واحد منها صالحاً للعلية ، كان لابد من إقامة دليل يميز بين الوصف الصالح للعلية عن غيره ، ولا يلتفت إلى من يقول : إن إقامة الدليل على علة الأصل غير واجب ، ولذا ذكر علماء الأصول فى كتبهم طرق إثبات العلية للوصف ، وهى المعروفة عندهم بمسالك العلة ، وإليك مجمل

---

[1] شفاء الغليل : ص ٢٠.

[2] قواطع الأدلة : ٤/ ١٨٧.

هذه الطرق : [1]

الأول : نص الشارع ، وظاهره ، أو إيماؤه على العلة.

الثانى : الإجماع : إذا أجمع العلماء على علية وصف لحكم ثبتت عليته، ووجب المصير إليه.

الثالث : المناسبة : وهى كون الوصف بحيث لو رتب الحكم عليه يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً ، ولا يصح طريقاً لإثبات العلية إلا إذا اعتبره الشارع ، واعتبار الشارع للوصف يكون بواحد من أربع اعتبارات :

١- اعتبار نوع الوصف فى نوع الحكم ، مثال اعتبار الإسكار فى الحرمة، فإن الشارع لما شرع التحريم عند الإسكار عُلِم أن الإسكار معتبر عنده ، فكان علة. فالإسكار نوع من الوصف يندرج تحته إسكار خمر وإسكار نبيذ ، والتحريم نوع من الحكم ، تحته تحريم خمر ، وتحريم نبيذ ، وتحريم ربا .

٢- اعتبار نوع الوصف فى جنس الحكم ، مثل امتزاج النسبين مع التقديم ، فإن امتزاج النسبين نوع من الوصف يندرج تحته : امتزاج نسب زيد ، وعمرو وخالد ، وهم أفراد لا أنواع ، ومطلق التقديم جنس يندرج تحته : تقديم زيد فى الإرث ، وتقديم فى النكاح، وتقديم فى تحمل الدية ، وكل واحد من هذه الأمور نوع

---

[1] شفاء الغليل : ٢٣- ٥٠ ، الإبهاج فى شرح المنهاج ٣/ ٤٦- ٨٨ ، تيسير التحرير ٤/ ٣٨- ٥٣.

تحته : تقديم زيد وبكر الشقيقين .

٣- اعتبار جنس الوصف فى نوع الحكم ، مثل اعتبار المشقة فى سقوط الصلاة ، فإن المشقة جنس ؛ لأن تحته نوعين ، هى مشقة السفر ، ومشقة الحيض ، باعتبار أن المندرج تحت هذين النوعين أفراد ، فمشقة سفر زيد ، ومشقة سفر عمرو ، ومشقة سفر خالد أفراد لمشقة السفر ، ومشقة زينب وسعاد وفاطمة أفراد لمشقة الحيض ، وسقوط الصلاة نوع يندرج تحته سقوط الصلاة عن زيد وعمرو وخالد وهؤلاء أفراد لا أنواع ، والشارع قد اعتبر مطلق المشقة فى سقوط الصلاة ، لأنه شرع سقوط بعض الصلاة عند مشقة السفر ، ومشقة السفر نوع من مطلق مشقة ، والنوع محقق للجنس ؛ لأنه خاص ، الجنس عام ، والخاص فيه العام وزيادة ، فالشارع باعتباره مشقة السفر يكون قد اعتبر مطلق المشقة ، وبذلك يكون جنس الوصف قد اعتبر فى نوع الحكم .

٤- اعتبار جنس الوصف فى جنس الحكم ، مثل مطلق مظنة مع مطلق حكم ، فإن المظنة من حيث هى تشمل مظنة الوطء كالخلوة بالأجنبية ، ومظنة القذف بشرب الخمر ، فإن من شرب الخمر سكر ، ومن سكرى هذى ، ومن هذى افترى ، فكان الشرب مظنة الكذب ، والافتراء ، والشارع قد اعتبر مطلق المظنة فى مطلق الحكم ؛ لأنه شرع التحريم عند مظنة الوطء حيث حرم الخلوة بالأجنبية ، ولا شك أن مظنة الوطء تحقق مطلق مظنة ؛ لأن الخاص يحقق العام ، كما أن تحريم الخلوة يحقق مطلق الحكم ؛ لأنه خاص ، ومطلق الحكم عام ، بذلك يكون الشارع عند ما اعتبر

التحريم عند الخلوة ، كأنه اعتبر مطلق الحكم عند مطلق المظنة ، وهو اعتبار الجنس فى الجنس .

الرابع : الشبه : وقد اختلف العلماء فى تفسيره : فقيل : الوصف الذى لا يناسب الحكم ، وعرف بالنص تأثير جنسه القريب فى الجنس القريب لذلك الحكم . وقيل : وصف غير مناسب ، لكنه يوهم اشتماله على المناسبة. وقيل : ما تردد فيه الفرع بين أصلين ووجد فيه المناط الموجود فى كل واحد من الأصلين ، إلا أنه يشبه أحدهما فى أوصاف هى أكثر من الأوصاف التى بها مشابهته للأصل الآخر ، فإلحاقه بما هو أكثر مشابهة هو الشبه.

الخامس : الدوران : هو أن يوجد الحكم بوجود وصف وينعدم بانعدامه، وبه يثبت الوصف المدار أنه علة للحكم الدائر معه.

السادس : السبر والتقسيم : وهو أن يحصر جميع المعانى فى الأصل ، ثم يختبر كل معنى من هذه المعانى ، ثم يبطل ما لا يصلح للعلية ، وما بقى منها يكون علة للحكم .

السابع : الطرد : هو أن يثبت الحكم مع الوصف فيما عدا المحل المتنازع فيه ، فيكون علة فى المحل المتنازع فيه إلحاقاً للفرد بالأعم الأغلب.

اشتراط العلم فى طريق إثبات العلة

ذهب أكثر الأصوليين إلى عدم اشتراط العلم فى طريق ثبوت العلة ، بل يكفى الظن الحاصل عن أمارة .

وذهب آخرون إلى أنه يجب العلم فى طريق ثبوتها ، والظن غير كاف [1] ، ورأى الجمهور أقرب إلى الصواب ؛ لأن العلة لا تزيد على الأحكام الشرعية نفسها ، فإنها لا تثبت كلها عن طريق القطع ، وإنما يثبت بعضها ظناً ، كالأحكام الثابتة بالقياس ، وخبر الواحد ، والعمومات.

أقسام القياس باعتبار ذكر العلة وعدم ذكرها :

ينقسم القياس باعتبارات كثيرة مختلفة ، وأختار منها فى هذا المقام انقسامه باعتبار ذكر العلة فيه صراحة وعدم ذكرها.

وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام : [2]

الأول : قياس العلة : ويقصد به القياس الذى جمع فيه الأصل والفرع بالعلة سواء كانت منصوصة أو مستنبطة .

الثانى : قياس الدلالة : هو الذى لم يصرح فيه بالعلة ، وجمع الأصل والفرع بدليل العلة.

الثالث : القياس فى معنى الأصل : وهو ما ألغى فيه الفارق بين الأصل والفرع ، فيشتركان فى الحكم .

---

[1] شرح العمد ٢/ ٥٧.

[2] شرح اللمع ٢/ ٧٩٥ ، إحكام الفصول فى الأصول : ٦٢٦ ، البرهان ٢/ ٨٧٣ ، التمهيد ١/ ٢٤، فواتح الرحموت ٢/ ٣٢٠.

تعريف قياس الدلالة :

قياس الدلالة لغة : المعنى اللغوى لهذا المركب يعرف بمعرفة جزئيه ، القياس ، والدلالة ؛ لأن المركب من أجزاء يعرف معناه بمعرفة أجزائه ، وقد سبق أن عرفت القياس لغة واصطلاحا .

وتعريف الدلالة لغة : مصدر دل ، يقال : دل عليه دلالة بتثليث، ودلولة ، فاندل ، شدده إليه ، وتقول : دل الشئ يدل دلالة على كذا ، أشار ، منه قولهم : هذا مما يدل على أن الرجل مظلوم ، أى : مما يشير أو يعطى بينة أو دلالة .[1]

الدلالة اصطلاحا : عند أهل الأصول والجدل والمنطق هى أن يكون الشئ بحالة يلزم من العلم به العلم بشئ آخر .[2]

والشئ الأول يسمى دالا ، والآخر يسمى مدلولا ، والمقصود بالشئ ما يعم اللفظ وغيره.

والمراد بالعلم فى التعريف : الإدراك المطلق الشامل للتصور والتصديق القطعى والظنى ، ويقصد أهل العربية والأصول باللازم مطلق اللزوم سواء كان خارجيا أو ذهنيا ، ولا يشترطون اللزوم الذهنى، وأما أهل المنطق فإنهم يقصدون باللازم اللزوم الذهنى ، ولا اعتبار للازم ما لم يكن ذهنيا فى الدلالة.

---

[1] ترتيب القاموس ٢/ ٢٠٦ ، الهادى إلى لغة العرب ٢/ ٥٥.

[2] كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٢٨٤.

ويحصل من هذا أن معنى قياس الدلالة لغة : هو القياس المنسوب إلى الدلالة أى : القياس الذى جمع فيه بين الأصل والفرع بلازم من لوازم الجامع بينهما .

تعريف قياس الدلالة اصطلاحا :

قياس الدلالة اصطلاحا اختلفت عبارات العلماء فى تعريف قياس الدلالة.

١- قال أبو إسحاق الشيرازى [١]: هو أن يرد الفرع إلى الأصل بغير العلة التى تعلق الحكم بها فى الشريعة ، وإنما يجمع بينهما الذى يدل على العلة . [٢]

٢- قال القاضى أبو بكر الباقلانى [٣] : هو الجمع بين الفرع والأصل بما لا يناسب الحكم ، ولكن يستلزم ما يناسب الحكم . [٤]

---

[١] هو إبراهيم بن على بن يوسف ، الفقيه الشافعى ، الأصولى ، كان زاهدا ورعا ، له عدة مصنفات منها : التنبيه فى الفقه ، اللمع فى الأصول وشرحه . توفى سنة ٤٧٦هـ انظر : الفتح المبين فى طبقات الأصوليين ١/ ٢٥٥.

[٢] شرح اللمع ٢/ ٨٠٦.

[٣] هو محمد بن الطيب البصرى ، المالكى ، الفقيه ، المتكلم ، الأصولى ، انتهت إليه رئاسة المالكية فى عصره ، وله مؤلفات كثيرة منها : أمالى إجماع المدينة ، التمهيد فى أصول الفقه ، والمقنع فى أصول الفقه ، الفتح المبين فى طبقات الأصوليين ١/ ٢٢٢.

[٤] نفائس الأصول شرح المحصول ٧/ ٣٣٢٨.

٣- قال الزركشي [١] : هو أن يكون الجامع وصفا لازما من لـــوازم العلة أو أثرا من آثارها ، أو حكما من أحكامها. [٢]

٤- قال صاحب [٣] مسلم الثبوت : قياس الدلالة ما لم تذكر فيه العلـــة صراحة ، ودل عليها بلازمها . [٤]

٥- قال الطوفي [٥] قياس الدلالة : هو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة ؛ لأن اشتراكهما في دليل العلة يلزم منـــه اشـــتراكهما فـــي العلة. [٦]

---

[١] هو محمد بن بهادر بن عبدالله بن بدر الدين الزركشي الشافعي الأصولي الفقيه ، كـــان متبحرا في العلوم ، وله مصنفات كثيرة منها : البحر المحيط فـــي أصـــول الفقـــه ، وتشنيف المسامع بجمع الجوامع في أصول الفقه ، ولقطة العملان في أصـــول الفقـــه والحكمة والمنطـــق توفـــي ســـنة ٧٩٤هـــ انظـــر الفتـــح المبيـــن فـــي طبقـــات الأصوليين ٢/ ٢٠٩.

[٢] البحر المحيط ٥/٤٩.

[٣] هو محب الله بن عبدالشكور البهاري الهندي ، الفقيه الحنفي الأصولـــي ، المنطقـــي ، البحاثة المحقق ، ولي قضاء لكنو ثم قضاء حيدر أباد ، وله عدة مصنفات منها : مسلم الثبوت في أصول الفقه ، وسلم العلوم في المنطق ، ورسالة المغالطة العامة الـــورود توفي سنة ١١١٩ هـــ . الفتح المبين فـــي طبقـــات الأصولييـــن ٣/ ١٢٢ ، الأعـــلام ٥/ ٢٨٥.

[٤] فواتح الرحموت ٢/ ٣٢٠.

[٥] هو سليمان بن عبدالقوي نجم الدين الطوفي الأصولي الفقيه ، كان قوي الحافظة شـــديد الذكاء ، وله عدة مصنفات منها : مختصر الروضة وشرحها ، والذريعة إلى معرفـــة أسرار الشريعة توفي سنة ٧١٦هـــ . الفتح المبين ٢/ ١٢٤.

[٦] شرح مختصر الروضة ٣/ ٢٣٨.

٦- قال صاحب التيسير والتحرير [١] هو ما لم تذكر العلة فيه ، وذكر ما دل عليها من وصف ملازم لها . [٢]

٧- قال الشربينى [٣] قياس الدلالة : هو ما عبر فيه عن أحد المتلازمين بالآخر . [٤]

٨- قال إمام الحرمين [٥] قياس الدلالة : هو الذى اشتمل على ما لا يناسب بنفسه ، ولكن يدل على معنى جامع . [٦]

والمقصود بالمعنى الجامع : هو الوصف غير المناسب المتضمن للمناسبة ، مثاله : الاستدلال على نفوذ ظهار الذمى بأنه : من صح طلاقه صح ظهاره كالمسلم .

---

[١] هو محمد بن محمد بن الحسن المعروف بابن أمير الحاج ، الفقيه الحنفى الأصولى ، وله مصنفات منها : شرح التحرير فى أصول الفقه توفى سنة ٨٧٩هـ . الفتح المبين ٣/٤٦.

[٢] تيسير التحرير ٣/ ٢٧٥.

[٣] هو الشيخ عبدالرحمن الشربينى الفقيه الشافعى الأصولى المصرى ، كان ورعا تقيا من مؤلفاته : تقرير على حاشية البنانى على الجلال المحلى توفى سنة ١٣٢٦هـ . الفتح المبين فى طبقات الأصوليين ٢/ ٢٠٣.

[٤] تقرير الشربينى على حاشية البنانى على شرح الجلال المحلى ٢/ ٢٠١.

[٥] هو عبدالملك بن أبى محمد عبدالله بن يوسف الجوينى الأصولى الفقيه الشافعى ، وكان أعلم أهل زمانه بالكلام والأصول والفقه ، وله مصنفات كثيرة منها : البرهان فى أصول الفقه ، كتاب التلخيص فى أصول الفقه ، والورقات فى أصول الفقه . توفى سنة ٤٧٨هـ ، الفتح المبين ١/ ٢٦٠.

[٦] البرهان ٢/ ٨٦٧.

وجه تضمنه للوصف المشعر بالمناسبة : أن الطلاق يقتضى تحريم البضع بالنسبة للمسلم والذمى ، وكل منهما متمكن من التصرف فيه ، والظهار محرم كالطلاق ، وإلحاق أحدهما بالآخر مشعر بالمعنى الجامع بينهما.

وقوله : معنى جامع يريد بقوله : معنى : تمييز قياس الدلالة عن قياس الشبه المحض ، وهو الذى يجرى فيه إلحاق الفرع بالأصل بوصف غير مناسب فى نفسه ، ولا مشعر بمعنى مناسب ، مثاله : قياس الوضوء على الصلاة فى وجوب الموالاة ، بجامع أن كلا منهما قربة ينقضها الحدث ، وليس بين كونها قربة ينقضها حدث ، ووجوب الموالاة مناسبة، ولا ما يشعر بالمناسبة ، وهذا التعريف عنده لنوع من قياس الدلالة ؛ لأن قياس الدلالة عنده نوعان :

أحدهما : هذا المعرف ، والآخر بمعنى قياس الشبه ، وهو ما كان الإلحاق فيه بوصف غير مناسب ولا دال على المناسب ، ولكن يغلب على الظن ربط الحكم به ؛ لأنه يرى أن قياس الدلالة تارة فيه وصف ينبئ عن المناسبة وتارة شبه يغلب على الظن إناطة الحكم به ، حيث قال عن قياس الدلالة : " ولا معنى لعده قسما على حياله وجزءا منه على استقلاله ؛ فإنه يقع منبئا عن معنى تارة وتارة شبها ، وهو فى طوريه لا يخرج عن قياس المعنى أو الشبه " [1].

---

[1] البرهان ٢/ ٨٨٠. ومناسب الشبه عنده ثلاثة أقسام :

الأول : إلحاق الشئ على قرب بالمنصوص عليه وهو المسمى بقياس فى معنى الأصل وهو مقطوع به . الثانى : قياس الدلالة . الثالث : قياس الشبه المحض، وهو

ومثال هذا النوع الاستدلال على وجوب النية فى الوضوء بأنه : طهارة من حدث وجبت فيها النية كالتيمم ، لا مناسبة بين كونها طهارة من حدث ووجوب النية ، ولكن يغلب على الظن أن هذا الشبه علامة جامعة بين الأصل والفرع .

مثال آخر : فى الاستدلال على صحة ظهار الذمى بأنه : صح طلاقه صح ظهاره كالمسلم.

وإذا اعتبرنا الأصل فى هذا القياس المسلم وظهاره ، والفرع الذمى وظهاره ونفوذ الطلاق من المسلم والذمى جامعا بينهما ، فإن هذا الجامع يغلب على الظن فى ربط الحكم به.

قال ابن الهمام : [1] هو ما لم تذكر - العلة - فيه بل ما يدل عليها. [2] التعبير بالملازم دون اللازم يدل على أن المعتبر فى اللازم من الجانبين . ويقصد به القياس الذى جمع فيه بين الفرع ، والأصل بوصف لازم للوصف المناسب الذى هو العلة من غير ذكرها اكتفاء بدلالة الملازم لها ، وقد مثل له بمثالين :

ما جمع فيه بين الأصل والفرع بوصف غير مناسب أصلا ولا هو مشعر بالمناسبة . البرهان ٢/ ٦٨٨ - ٨٧٣.

[1] هو محمد بن عبدالواحد بن عبدالحميد الفقيه الحنفى الأصولى المشهور بابن الهمام ، كان حجة فى الفقه وأصوله ، وله عدة مصنفات منها : التحرير فى أصول الفقه ، وفتح القدير فى الفقه ، توفى سنة ٨٦١ هـ . الفتح المبين فى طبقات الأصوليين ٣/٣٦- ٣٩.

[2] تيسير التحرير ٣/ ٢٧٥.

الأول : استدلال الشافعى رحمه الله على ضمان السارق الذى قطعت يده للمسروق فى حالة هلاكه ، بأنه يجب رده قائما فيجب رده فى حالة هلاكه قياسا على المغصوب ، فإنه يجب رده قائما وضمانه هالكا بجامع أن كلا منهما فيه اعتداء على حق الغير ، وهذا الوصف لازم للعلة المناسبة ؛ لأنه العلة الحقيقية فى رد مال الغير من الغاصب قائما وضمانه هالكا هى قصد الشارع حفظ مال الغير ، ورد المال من المعتدى لازم لحفظ المال لصاحبه.

الثانى : الاستدلال على وجوب الحد على شارب النبيذ بقياسه على الخمر بجامع أن الرائحة الشديدة الدالة على الطرب ، فإن الرائحة الشديدة وصف للإسكار الذى هو علة تحريم الخمر ، وهو وصف يشتمل على المناسبة ، بخلاف الرائحة الشديدة ، فإنها لا مناسبة بينها وبين تحريم الخمر.

وهذا القدر من التعريفات كاف فى توضيح مقصود الأصوليين من قياس الدلالة ، ومحصلها : أنه ما جمع فيه بين الأصل والفرع بوصف غير مناسب يدل على العلة ، سواء كان لازما من لوازمها أو وصفا شبهيا يغلب على الظن أنه متضمن للعلة الغائبة عن المجتهد ، وهذا على مذهب من جعل قسما من الشبه من قياس الدلالة.

أقسام قياس الدلالة :

وعلى هذا يكون قياس الدلالة على ثلاثة أقسام :

الأول : ما جمع فيه بوصف غير مناسب دال على العلة.

الثانى : ما جمع فيه بوصف غير مناسب يظن أنه متضمن للعلة.

الثالث : ما جمع فيه بوصف شبهى يظن تعلق الحكم به.

وكل قسم من هذه الأقسام تحته أنواع ، وإليك بيان أنـــواع كـــل قسم مع الأمثلة.

أنواع القسم الأول أربعة على النحو التالى :

النوع الأول : أن يكون الدال علة فيه وصف لازم لذات العلة ، كما فى قياس النبيذ على الخمر بجامع شدة الرائحة الدالة على الطرب ؛ فإنـــها تدل على الإسكار ، وهى لازمة لذات الإسكار.

النوع الثانى : أن يكون الدال علة فيه وصف هو أثر من آثار العلـــة ، كما فى قياس القتل بالمثقل على القتل بالمحدد فى وجـــوب القصـــاص بجامع الإثم فى كل منهما ، والإثم ليس بعلة فى وجـــوب القصـــاص ، وإنما هو دال على العلة وهى القتل.

النوع الثالث : أن يكون الوصف الدال فيه على العلة حكم من أحكـــام العلة ، كما فى قياس قطع أيدى الجماعة بقطع اليد الواحدة علـــى قتـــل الجماعة واحدا فى وجوب القصاص عليهم جميعا بجامع وجوب الديـــة على الجميع ؛ فإن وجوب الدية حكم دال على العلة وهى القتل.

النوع الرابع : أن يكون الوصف الدال علـــى العلـــة أحـــد النتيجتيـــن المتلازمتين لعلة واحدة ، فيستدل بأحدهما على العلـــة وبالعلـــة علـــى النتيجة الثانية ، مثاله : فى الاستدلال علـــى أن المكـــره يجـــب عليـــه القصاص عند الشافعى بأن المكره يأثم إذا صدر منه القتل فوجب عليـــه

القصاص كالمكره ، فالإثم ووجوب القصاص أثران للقتل ، ثم إن وجود الإثم يدل على علة التأثيم ، وعليه يدل على وجوب القصاص.[1]

أنواع القسم الثانى أربعة على النحو التالى :

الأول : قياس شئ على شئ بجامع خاصية فى كل منهما ، فإن وجود خاصية الشئ يدل على وجود الشئ وعدمها على العدم ، وهذا يغلب على الظن أن هذا الوصف متضمن لعلة الحكم ، مثاله : قياس الوتر على النوافل فى كونه ليس بواجب ، بجامع أن كلا منه يؤدى على الراحلة ، وكون النوافل تؤدى على الراحلة خاصية فيها ، وهى معروفة بالشرع ، ولا تؤدى الفرائض على الراحلة.

الثانى : قياس شئ على شئ بجامع وجود نتيجة فيهما ، فإن وجود النتيجة يدل على وجود المنتج ، وعدمها على عدم المنتج ، وهذا يغلب على الظن أن هذا الوصف يتضمن علة الحكم الغائبة عن المجتهد ، مثاله : قياس بيع مال الغير على بيع ما لا يملك فى أنه لا ينعقد البيع بجامع أن كلا منهما لا يفيد الملك ، فإن عدم إفادته الملك نتيجة لبيع ما لا يملك.

الثالث : قياس الشئ على الشئ لكونه نظيرا له ، فإن كون الشئ نظيرا لآخر ، يغلب على الظن اشتراكهما فى علة الحكم يثبت الحكم لأجلها ، مثاله : الاستدلال على صحة ظهار الذمى ، بقياس ظهاره على طلاق المسلم بجامع أن كلا من الظهار والطلاق نظير للآخر ؛ لأنهما يقترنان

---

[1] شرح مختصر الطوفى ٣/ ٤٣٨ ، التنقيحات فى أصول الفقه : ٢٥٩.

ثبوتا ونفيا فى حق المسلم ، ثبوتا فى حق المسلم ، ونفيا فى حق الصبى المسلم ، وكونهما نظيرين يغلب على الظن اشتراكهما فى علة يثبت الحكم لأجلها ، ولما صح الطلاق من المسلم والذمى ، كذلك الظهار يصح منهما . [1]

مثال آخر : قياس الأمر فى اقتضائه الوجوب على النهى الذى يقتضى ترك الفعل على سبيل الوجوب بجامع أن كلا منهما نظير للآخر؛ لأنهما نوعان للطلب ، الأمر طلب للفعل ، والنهى طلب لترك الفعل ، وكونهما نظيرين يغلب على الظن اشتراكهما فى العلة . [2]

مثال آخر : استدلال الشافعى على وجوب الزكاة على الصبى والمجنون بقياس الزكاة على العشر بجامع أن كلا منهما نظير للآخر ، وهذا يغلب على الظن اشتراكهما فى العلة ؛ لأنهما اتفقا فى الوجود ، فلا يوجد أحدهما إلا بوجود الآخر ، ولا يعدم أحدهما إلا بعدم الآخر .

الرابع : قياس الاسم الخاص على الاسم الخاص ، مثاله : الاستدلال على عدم صحة إزالة النجاسة بالخل قياسا على رفع الحدث به بجامع أن كلا منهما طهارة شرعية ، واشتراكهما فى الاسم الخاص يظن أنهما يشتركان فى العلة . [3]

---

[1] شرح اللمع / ٨٠٩.
[2] التمهيد ١/ ٢٤.
[3] التمهيد ١/٢٩.

أنواع القسم الثالث : هذا القسم على نوعين :

الأول : الشبه فى الحكم ، مثاله : الاستدلال على وجوب الترتيب فـــى الوضوء بقياس الوضوء على الصلاة بجامع أن كلا منهما عبادة يبطلـها الحدث ، ولا مناسبة بين كونها عبادة يبطلها الحدث ووجوب الــترتيب فى الصلاة ، ولكن يظن تعلق الحكم بها.

الثانى : شبه فى الصورة المجردة ، مثاله : الاستدلال على سقوط القعدة الأخيرة فى الصلاة على القعدة الأولى بجامع أن كلا منهما قعود.

الفرق بين قياس العلة والدلالة :

بعد بيان قياس الدلالة وأقسامه يحسن ذكر الفرق بينه وبين قياس العلة أو المعنى ، قبل الحديث عن حجية قياس الدلالـــة ، زيـــادة فـــى الإيضاح ، وبيان الفرق بينهما من النواحى الآتية :

أولا : قياس العلة يكون الوصف فيه علامة يتعلق بها الحكـــم كتعلـــق المعلول بالعلة العقلية [1]، وقياس الدلالة يكون الوصف فيه علامة دالة

---

[1] العلة الشرعية والعقلية تتفقان فى شئ وتختلفان فى أشياء ، فتتفقان فى أن كل واحـــدة منهما بها من التعلق بالحكم التى هى علة له ما ليس لغيره ، وإن كان ما للعلة الشرعية من التعلق والتأثير ليس يساوى ما للعلة العقلية وتفترقان فيما يأتى :

١- العلة العقلية لا تحتاج فى اقتضائها الحكم إلى شرط ، بخلاف الشرعية فإنها ربما احتاجت فى اقتضائها للحكم إلى شرط.

٢- العلة العقلية إذا وجدت يوجد معها الحكم العقلى ، وإذا انعدمت انعدم ، بخـــلاف الشرعية لا يلزم من انعدامها انعدام الحكم إلا على مذهب من لا يرى تخصيـص العلة.

على الحكم ولا يتعلق بها الحكم كتعلق العلة بالمعلول .

ثانيا : قياس العلة يكون الوصف فيه متقدما على الحكم ذهنا وعينا ، وقياس الدلالة الوصف فيه متأخر عن الحكم ذهنا وعينا . [1]

ثالثا : قياس الدلالة فيه يجوز تقدم ثبوت الفرع على الأصل لجواز تأخر الدليل عن المدلول ، كالأثر عن المؤثر ، بخلاف العلة عن المعلول ، فإنه لا يجوز ؛ لأن الحكم يحدث بحدوث العلة ، فلو تأخرت عنه صار المتقدم متأخرا . [2]

رابعا : قياس العلة الوصف فيه دال على الحكم ، وقياس الدلالة الوصف الجامع فيه دال على العلة.

خامسا : قياس العلة اتفق القائسون على حجيته ، بخلاف قياس الدلالة فإنهم اختلفوا فى حجيته.

٣- العلة الشرعية كما تدل على الحكم يدل غيرها عليها ، فيثبت الحكم الواحد بعلتين، فإذا زالت إحداهما بقيت الأخرى ، ولذلك لا يلزم من انعدام العلة انعدام الحكم لاحتمال بقائه بعلة أخرى ، بخلاف العقلية فلا يثبت الحكم العقلى بعلتين أبدا .

٤- العلة العقلية تقتضى حكمين مختلفين ، بخلاف الشرعية فإنها لا يجوز أن تقتضى حكمين مختلفين . شرح العمد ٢/ ٥٩ ، الواضح ١/ ٣٨٠- ٣٨١.

[1] التنقيحات فى أصول الفقه : ٢٦٣.

[2] شرح مختصر الروضة ٣/ ٣١٣.

حجية قياس الدلالة :

ظهر من خلال البحث أن قياس الدلالة ثلاثة أقسام:

القسم الأول : الجمع بين الأصل والفرع بلازم العلة.

القسم الثانى : الجمع بينهما بوصف مشعر بالعلة ، وهذان القسمان فى الحقيقة يندرجان فى جملة قياس العلة ؛ لأن مرجعهما إلى الجمع بالعلة لتضمن كل واحد منهما المساواة فى العلة ، وقياس العلة حجة باتفاق القياسيين بالأدلة الدالة على حجية القياس ، وكتب أئمة الفقه على مدار العصور مليئة بهذين القسمين احتجاجا بهما من غير نكير مما يدل على صحة العمل بهما.

قال الإمام فخر الدين الرازى : قياس الدلالة مشعر بالمعنى الجالب للحكم ، وإن كان بواسطة، وعلى الجملة : إما أن يكون مشعرا بوجه الشبه ، فيدخل فى أقسام الشبه وهو حجة عند الأكثرين ، وإما أن يدل على المعنى ، فيندرج فى جملة قياس المعنى ، وقياس المعنى حجة باتفاق القياسيين. [1]

القسم الثالث : الجمع بين الأصل والفرع بوصف شبهى يظن تعلق الحكم به ، وقياس الدلالة بهذا المعنى اختلف الأصوليون فى حجيته :

ذهب أكثر المالكية ، والشافعية ، والحنابلة ، وبعض الحنفية إلى أنه حجة.

---

[1] انظر الكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل : ١٣٩.

وذهب بعض الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والحنابلة إلى أنه ليس بحجة . [1]

أدلة الفريق الأول ومناقشتها :

١- ولما كانت العلل الشرعية ليست كالعلل العقلية ، وإنما هي علامات على الحكم بوضع الشارع ، فلا فرق بين أن يجعل شبه الفرع بالأصل دليلا عليه في حكم من الأحكام ، وبين أن يجعل العلامة علة للحكم. [2]

٢- قياس العلة وقياس الشبه معناهما واحد في الحقيقة ، وإنما الفرق بينهما : أن الحكم في قياس العلة معلق كتعليق المعلول بالعلة العقلية، وفي قياس الشبه معلق على العلامة لا على سبيل تعليق المعلول بالعلة العقلية .

٣- رسالة عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، حيث قال : الفهم الفهم فيما تلجلج في نفسك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس عند ذلك على أشباهها بالحق . [3]

---

[1] إحكام الفصول في أصول الأحكام ٦٢٩- ٦٣٠ ، قواطع الأدلة ٤/ ٢٥٣ ، الإبهاج في شرح المنهاج ٣/ ٧٤ ، شرح اللمع ٢/ ٨١٣ ، التمهيد في أصول الفقه ١/ ١٩ ، شرح مختصر الطوفي ، ٣/ ٤٣١، شرح الكوكب المنير ٤/ ١٩٠ ، تيسير التحرير ٣/ ٥٣، ميزان الأصول : ٦٠٨.

[2] إحكام الفصول في أحكام الأصول ٦٢٩- ٦٣٠.

[3] أخرجه الدارقطني في السنن ٤/ ٢٠٦ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ١١٥.

وهى نص فى الاحتجاج بقياس الشبه ، وقد تلقى العلماء هذه الرسالة بالقبول ، وأجمعوا على صحة العمل بها . [1]

الجواب : قول عمر رضي الله عنه " اعرف الأشباه " يريد به : أن تستنبط المعنى ثم تقيس عليه بعد ذلك ؛ لأن من جهل المعنى لا يسمى عارفا .

يمكن أن يرد على هذا بأن هذا عدول عن الظاهر بغير موجب ، على أن من عرف الشبه الذى يظن ربط الحكم به يسمى عارفا أيضا .

٤- الشبه يقتضى غلبة الظن فى إلحاق الفرع بالأصل ، والظن يجب العمل به ، أصله خبر الواحد والعموم وقياس العلة . [2]

الاعتراض عليه من وجهين :

الوجه الأول : العمل به أصل والأصل لا يثبت إلا بالمقطوع به ، فلا يثبت حجية الشبه بالظن.

يمكن أن يجاب بأن الشبه يفيد غلبة الظن وهى تنزل منزلة العلم.

الوجه الثانى : قال البعض إن الشبه لا يفيد الظن . [3]

---

(١) إحكام الفصول : ٦٣٠.

(٢) التلخيص ٣/ ٢٤٣ ، البرهان ٢/ ٨٧٧ ، قواطع الأدلة ٤/ ١٦٤.

(٣) البرهان : ٢/ ٨٧٤.

ويمكن أن يجاب على هذا بأنه يشبه المكابرة فلا يلتفت إليه.

قال إمام الحرمين : النظر فى الشبه يوقع فى مستقر العادة غلبة الظن ، كما أن النظر فى المعنى يوجب ذلك ، ومن أنكر وقوع الظن كان جاحدا للعلم على القطع فإن العلم بوقوع الظن مقطوع به . [١]

٥- إن القياس تمثيل الشئ بالشئ وتشبيهه به ، والشئ إنما يمثل بما يشابهه ، فيجب إلحاقه بما يشابهه جريا على هذا الأصل.

يمكن أن يعترض عليه بأنه فى محل النزاع فلا يحتج به.

٦- الشئ إذا شابه الشئ ، الظاهر أنه مثله ، والظاهر يجب العمل به . [٢]

الاعتراض : يمكن أن يقال أيضا : الشئ إذا فارق الشئ ، الظاهر أنه لا يكون مثله ، وليس الجمع بالشبه بأولى من التفرقة بالفارق ، بل التفرقة أولى ؛ لأن الأصل التفرقة .

الجواب : ليس كل شبه يصح ربط الحكم به ، وإنما يربط به بشبه ظهر وسلم بعد السبر عن البطلان لظهور ما هو أولى منه يجوز الاعتماد عليه . [٣]

---

[١] المصدر السابق.

[٢] التمهيد ١/ ٣١.

[٣] شفاء الغليل : ٣٧٢.

٧- إجماع الصحابة على العمل بقياس الشبه فـــى جــزاء الصيــد ، وشبهوا النعامة بالبدنة ، وشبهوا الحمامة بالشاه . [١]

الاعتراض : هذا ليس من قياس الشبه المختلف فيه ؛ لأن الشارع نــص على المثل وحصر فى النعم ، وعلى المكلف تحقيق الوصف الذى تقــع عليه المماثلة ، وهو تحقيق مناط الحكم.

٨- الصحابة كانوا يلحقون ما لا ينص على حكمه بالمنصوص علـــى حكمه ، إذا غلب على ظنهم أنه يساويه فى الحكم سواء كان بشـــبه أو بعلة. [٢]

الاعتراض : الصحابة اعتبروا المعنى المؤثر فى القياس ، ولــم يعتبروا الشبه ، وروى أن علياً قال لما قبض النبى ﷺ : نظرنا فـــى أمرنا فوجدنا النبى ﷺ قدم أبا بكر فى الصلاة ، فرضينا من رضـــى رسول الله لدينا فقدمنا أبا بكر . [٣]

قال على رضي الله عنه : إذا شرب هذى وإذا هذى افترى ، فعليــه حـــد المفترى. [٤]

الجواب : يمكن أن يجاب من وجهين .

---

(١) الوصول إلى الأصول ٢/ ٢٩٧ ، قواطع الأدلة ٤/ ٢٦٠.

(٢) البرهان : ٢/ ٨٧٤.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٣/ ١٨.

(٤) أخرجه مالك فى الموطأ ١ / ٢٤٧ ، والحاكم فى المستدرك ٤/ ٣٧٥ ، والبيهقى فـــى السنن ٨/ ٢٢٠ .

الأول : هذا استدلال منهم بالمعنى المؤثر ، ولا يلزم منه عدم استدلالهم بالشبه إذا غلب على الظن.

الثانى : معارض بمثله ، فإنه صدر منهم اعتبار الشبه فى الأحكام فى كثير من المسائل.

٩- قياس الشبه على قياس العلة فى صحة العمل به بجامع أن كلا منهما إلحاق فرع بأصل بجامع. [(١)]

الاعتراض عليه من وجهين :

الأول : أن العمل بالشبه أصل من الأصول ، فلا يثبت بمثل هذا الدليل المظنون ، ولأن الأصل عدم العمل بالقياس ، وثبت العمل به بإجماع الصحابة ، ولم يرد من الصحابة العمل بالشبه ، فلا يجوز العمل به.

الجواب : يمكن أن يجاب :

أولا : كونه مظنونا لا يمنع الاحتجاج به فى إثبات العمل بالشبه ؛ لأن الشبه طريق لإثبات الأحكام الشرعية الفرعية ، ولذا بعض العلماء لا يرى طلب القطع فى إثبات الأصول لكونها أقرب إلى إثبات الأحكام الفرعية.

قال ابن عقيل : أصول الفقه لا يطلب لها القطعيات من الأدلة إذا كانت إثبات الأحكام أقرب ، وعن أصول الدين أبعد ، ولذا لا يفسق

---

(١) التلخيص ٣/ ٢٤١.

المخالف فيها و لا نبدعه . [1]

ثانيا : لا نسلم أن الصحابة لم تعمل بالشبه ، بل عمل به بعضهم.

الوجه الثانى للاعتراض : القياس مع الفارق ، فإن قياس العلـــة فيـه الوصف مناسب ، فأما قياس الشبه فالوصف غير مناسب.

لم أجد ردا عند المخالفين على هذا الاعتراض ، وهو وجيـه لا محيص عنه.

أدلة من ذهب إلى عدم حجيته ومناقشتها .

١- إن الوصف الذى جعل علة فى قياس العلة إذا تبين وعلـم أنـه ليس بعلة يفسد ويمتنع تعلق الحكم به ، كذلك يمنع تعليـق الحكـم بالشبه الذى اتفق المختلفون على أنه ليس بعلة . [2]

الاعتراض : ذلك يرجع إلى الدليل ، فإنه إذا لم يدل الدليل على تعليـق الحكم بالوصف الشبهى يمنع تعليق الحكم به ، كما أنه إذا لم يدل الدليـل على تعليق الحكم بالعلة يمنع التعليق بها ، فلا فرق بين قيـاس العلـة والشبه فى هذا .

٢- الاحتجاج بالشبه يؤدى إلى إثبات أحكام متضادة ، وهو بـاطل ؛ لأنه ما من فرع إلا وهو يشبه الأصل من وجه ، ويخالفه من وجـه آخر ، وليس الجمع بين الأصل والفرع من وجه الموافقة بأولى من

---

[1] الواضح ٥/ ٣٣١.

[2] إحكام الفصول فى الأصول : ٦٣١ ، قواطع الأدلة ، ٤/ ٢٥٦.

وجه المخالفة ، فيثبت به أحكام متضادة. [1]

الاعتراض : لا يؤدى إلى ذلك ؛ لأنه لا يحكم للفرع بحكم الأصل بمجرد الشبه بينهما ، وإنما يحكم له إذا قام الدليل على الجمع بينهما لأجل الشبه أولى من التفريق بينهما لأجل الاختلاف.

٣- المشابهة فى الأوصاف لا توجب المساواة فى الأحكام ؛ فإن جميع المحرمات يشابه بعضها بعضا فى الأوصاف ، وتختلف فى الأحكام. [2]

٤- المشابهة فيما يتعلق به الحكم لا يوجب المشاركة فى الحكم ؛ لأن العلة هى الجالبة للحكم، فما لا يتعلق به الحكم لا يجلب الحكم . [3]

الاعتراض : يمكن أن يعترض عليه بأن هذا الدليل فى محل النزاع فلا يحتج به ؛ لأن محل الخلاف فى تعلق الحكم بالشبه.

٥- إن مجرد الشبه صورة أو حكما لا يشعر بالمناسبة بين العلة والحكم ، فأشبه مجرد الطرد [4] ، والعمل بالطرد باطل . [1]

---

[1] إحكام الفصول فى أحكام الأصول : ٦٣٠ ، قواطع الأدلة ، ٤/ ٢٥٦.

[2] قواطع الأدلة ٤/ ٢٥٦ ، البرهان ٢/ ٨٧١.

[3] المصدران السابقان.

[4] الطرد عند إمام الحرمين : هو الذى لا يناسب ولا يشعر به ، وقال أيضا : الطرد تحكم محض لا يعضده معنى ولا شبه ، وعند الغزالى : كل وصف ظهر ولكنه ظهر فى مقابلته وصف أخر ، إما على البديهة أو بالتأمل ، وهو أولى وأخص من الأول ، فالأول لا يجوز الاعتماد عليه. الشبه عنده : كل وصف ظهر وسلم بعد السبر عن البطلان لظهور ما هو أولى منه. البرهان ٢/ ٧٨٨ ، ٨٦٠ ، شفاء الغليل : ٣٧٢.

...سراض : عيه من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : القياس مع الفارق ؛ لأن الطرد تحكم محض ، والشبه يقرب الفرع من الأصل فى الحكم المطلوب فافترقا .

الوجه الثانى : لو طلب المناسبة فى كل قياس لتجردت كثير من مسائل الفقه من الدليل ؛ لأن أكثر مسائل أدلتها القياس ، وكثير منه لا مناسبة فيه .

قال إمام الحرمين : " من مارس مسائل الفقه وترقى عن رتبة الشادين فيها ، ونظر فى مسالك الاعتبار تبين أن المعنى المخيل لا يعم وجوده المسائل ، بل لو قيل لا يطرد على الإخالة المشعرة عشر المسائل لم يكن مجازفا ، وهذه الطريقة إنما يدريها من توغل فى مسائل الفقه".[2]

الوجه الثالث : يمكن أن يعترض عليه بأن الدليل فى محل النزاع ؛ لأن محله الاحتجاج بالشبه الذى لا مناسبة بينه وبين حكم الأصل ، والاستدلال فى محل النزاع باطل.

٦- قول القائس : إن الفرع كالأصل لا يخلو ، إما أن يكون قوله عن علم أو ظن ، فلابد من مستند لهما ، أو يكون قوله عن لا علم ولا ظن ، وهذا لا يجوز ؛ لأن حكم الله لا يثبت بالجزاف ، وإن قصد تشابههما فى وجه يغلب على الظن تشابههما فى الحكم ، وهذا

---

(١) البرهان ٢/ ٨٧١ ، قواطع الأدلة ٤/ ٢٥٧.

(٢) قواطع الأدلة ٤/ ٢٦٠.

باطل؛ لأنه إذا كانت المشابهة فى وجه يفيد ظنا فالمفارقة فى سائر الوجوه تبطل الظن وتشوش على الظان ظنه .[١]

الاعتراض : يمكن أن يقال : نلتزم أن قوله لظن وله مستند ؛ لأن المجتهد لا يعتبر الشبه جزافا ، وإنما يعتبره بعد سبر سائر الأشباه سبرا حاصرا ، وما ترجح له من الأشباه يظن أنه مناط الحكم الدال على العلة الغائبة عنه.

٧- الأصل فى القياس إجماع الصحابة ، والمنقول عن الصحابة النظر فى المصالح والعلل المظنونة ، وأما العمل بمجرد الشبه فلم ينقل عنهم بوجه ما .[٢]

الاعتراض عليه من وجهين :

الوجه الأول : المنقول عن الصحابة لم ينحصر فى هذا ، فإن بعض الصحابة استدل بوصف شبهى ، إن عليا وزيدا رضي الله عنهما استدلا فى توريث الإخوة مع الجد بالشبه ، حيث قال على رضي الله عنه : إنهم بمنزلة خليج انخلج منه خليجان ، فأحدهما أقرب من الآخر [٣] ، وكذلك روى أن عمر رضي الله عنه كان يشك فى قود القتيل الذى اشترك فى قتله سبعة فقال له على رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين أرأيت لو أن نفرا اشتركوا فى

---

[١] قواطع الأدلة ٤/ ٢٥٩.

[٢] قواطع الأدلة ٤/ ٢٥٩.

[٣] مصنف عبدالرزاق : ١٠/ ١٦٥ ، سنن البيهقى الكبرى ٦/ ٢٤.

سرقة جزور ، فأخذ هذا عضوا ، وهذا عضوا ، ألست قاطعهم ؟ ، قال : نعم ، قال فذلك [1] . ومراده بقوله : " فذلك " أي: أنه مثله .

وهذا قياس شبهي بين ، وقد اتفق عليه هذان الإمامان رضي الله عنهما .

وقال زيد رضي الله عنه: الإخوة بمنزلة أغصان الشجرة فالبعض إلى البعض أقرب.[2]

قال الغزالي رحمه الله : المنقول عنهم لم ينحصر في هذا ، بل فهم من مسائلهم اتباعهم غلبات الظن ، وهو الحكم بالراجح. [3]

الوجه الثاني من الاعتراض : لازم من عدم عمل الصحابة به عدم جوازه ، لجواز أن يدل عليه دليل آخر.

هذا الاعتراض يمكن الرد عليه بأنه : إذا ثبت أن الصحابة تركوا العمل به لا يصح الاحتجاج به ؛ لأنه لا دليل في الواقع أقوى من إجماعهم يدل على العمل به.

٨- الوصف الشبهي إن كان مناسبا فهو معتبر بالاتفاق ، وإن كان

---

[1] مصنف عبدالرزاق ٩/ ٤٧٧ [رقم ١٨٠٧٧].

[2] أخرجه عبدالرزاق في مصنفه ١٠/ ٢٦٥.

[3] شفاء الغليل : ٣٥٦.

غير مناسب [١] فهو الطرد المردود بالاتفاق . [٢]

الاعتراض عليه من وجهين:

الوجه الأول : ليس كل وصف غير مناسب مـــــردودا بالاتفـــاق ؛ لأن الوصف غير المناسب إذا كان مستلزما لمناســـــب فـــهو مقبول عند البعض ، وكذلك إذا شـــهدت لـــه الأصـــول لا يرد.

الوجه الثانى : القول بأن الوصف غير المناسب مـــردود فـــى محـــل النزاع؛ لأن الشبه المختلف وصف غير مناسب.

٩- القائس إما أن يعلم المعنى المقتضى للحكم فقياسه قياس معنـــــى ، وإما أن لا يعلم المعنى المقتضى للحكم فإلحاق الفرع حينئذ بالأصل تحكم يمتنع شرعا . [٣]

الاعتراض : لا يجب على القائس أن يقطع بوجود المعنى فى الأصل ، وإنما يجوز له الإلحاق بالظن ، فإذا ظن أن الحكم لهذا المعنى جاز لـــه الإلحاق ، كذلك إذا ظن أن الشبه يدل على العلة الغائبة عنه جـــاز لـــه العمل به.

---

[١] اختلف الأصوليون فى اشتراط المناسبة فى الوصف الجامع بين الأصل والفرع ، ذهب الأكثر إلى الاشتراط ، وذهب آخرون إلى عدم الاشتراط ، انظر : الأحكـــام للآمـــدى ٣/ ١٨٦ ، نشر البنود ٢/ ١٣٠ ، مختصر ابن الحاجب ٢/ ٣١٣ ، شـــرح مختصـــر الروضة ٣/ ٣١٦ ، تيسير التحرير ٢/٤.

[٢] المحصول ٥/ ٢٨١ ، إرشاد الفحول : ١٧٣.

[٣] كتاب التلخيص ٣/ ٢٣٩ ، التمهيد ١/ ٣٠.

لو كان مجرد الشبه كافيا فى إلحاق الفرع بالأصل لما احتاج القياس إلى تفكر واجتهاد، واشترك العالم والعامى فى القياس ، والإجماع قائم على الفرق بينهما .

الاعتراض : يمكن أن يعترض عليه بأن قياس الشبه يحتاج إلى السبر الحاصر للأشباه فى الأصل والتأمل لمعرفة أقرب شبه يظن ربط الحكم به ، ومثل هذا لا يصدر من العامى.

١١- وقد استدل ابن القيم على بطلان قياس الشبه بأنه ورد فى القرآن مذموما ومردودا ، وقد حكاه الله تعالى عن المبطلين ، وساق أمثلة على ذلك ، وإليك بعض الأمثلة : (١)

١) قوله تعالى إخبارا عن إخوة يوسف عليه السلام أنهم قالوا لما وجدوا الصواع فى رحل أخيهم " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل " . (٢)

فألحقوا أحدهما بالآخر من غير علة ولا دليلها بمجرد الشبه بينهما.

الجواب : يرد على هذا الاستدلال من وجهين.

الأول : إن هذا خارج موضوع النزاع ؛ لأن الشبه المختلف فيه هو ظن المجتهد دلالته على العلة الجامعة بين الأصل والفرع بعد التأمل

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين : ١٤٨- ١٥٠.

(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٧.

وسبر أوصاف المحل ، وليس مجرد الشبه.

الثاني : أن بطلانه لا لكونه قياس شبه ، وإنما لعدم تحقق الحكم في الأصل ، وهو السرقة ؛ لأنه لم يصدر من يوسف عليه السلام حقيقة السرقة . [1]

٢) قوله تعالى إخبارا عن الكفار : أنهم قالوا : " ما نراك إلا بشرا مثلنا " [2]

فألحقوا نوحا عليه السلام بأنفسهم بمجرد الصورة الآدمية بلا اشتراك فى الحكم.

الجواب : بطلان هذا القياس لكونه قياسا مع الفارق ؛ لوجود الفرق بينهم وبين نوح عليه السلام ، حيث من الله تعالى عليه بالرسالة بدليل جواب الرسل على الذين أنكروا رسالتهم لكونهم بشرا مثلهم بقولهم : " إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن

---

[1] اختلف المفسرون فى السرقة التى نسبوها إليه عليه السلام على أقوال :

١-كان جده أبو أمه كافرا يعبد الأصنام ، فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان ، ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ، ففعل ذلك .

٢-قيل سرق دجاجة من أبيه ودفعها إلى المساكين.

٣-وقيل : إنهم قالوا ذلك عليه وبهتوه ، وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف عليه السلام بعد انقضاء تلك المدة الطويلة .

٤-وقيل غير ذلك.

[2] سورة هود الآية : ٢٧.

على من يشاء من عباده " .[1]

وفى هذه الآية إشارة إلى صحة قياس الشبه ؛ لأنه لو كان باطلا أصلا لبين الرسل عليهم السلام بطلانه ، ولا يودون عليهم بنفى الفارق بين المقيس والمقيس عليه ؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يصح.[2]

قال الفخر الرازى : إن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك ، لكنهم بينوا أن التماثل فى البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة ؛ لأن هذا المنصب منصب يمن الله تعالى به على من يشاء من عباده .[3]

٣) قوله سبحانه وتعالى : " وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون "[4]

فقاسوا الرسول على أنفسهم بجامع الشبه ، وهو الأكل والشرب الحاصل من الجميع فى نفى كونه رسولا .

---

[1] سورة إبراهيم الآية : ١١.

[2] هذا معروف عند الأصوليين بالقول بالموجب ، وهو موافقة السائل المسئول فى حكم العلة وموجبها مع استثناء النزاع فى المسألة أو فى بعض صورها . الكاشف عن أصول دلائل ١٠٩.

[3] تفسير الفخر الرازى ١٩/ ١٨.

[4] سورة المؤمنون ، الآية ٣٣ ، ٣٤.

الجواب : ليس فى هذا دليل على بطلان أصل العمل بالشبه ؛ لأنه ليس من نوع الشبه المختلف فيه.

٤) قوله سبحانه وتعالى حكاية عن المشركين : " قالوا إنما البيع مثل الربا " فقاسوا الربا على البيع بمجرد الشبه الصورى ، وهو أن كلا منهما مبادلة مال بمال.

الجواب : ليس فى هذا أيضا ما يدل على منع أصل قياس الشبه؛ لأن الشارع لم يتعرض لأصل القياس بالإبطال ، وإنما أبطله ببيان الفرق بين المقيس والمقيس عليه، وهذا يشعر أن أصل القياس صحيح ؛ لأنه لو كان باطلا لبين بطلانه ؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يصح.

بيان الرأى الراجح .

ظهر من التأمل فى أدلة الرأيين ومناقشتها رجحان الرأى الأول لدى ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : قوة أدلته وسلامتها من الاعتراضات الوجيهة القادحة فيها .

ثانيا : الأدلة التى دلت على حجية القياس مطلقة فى الجامع الذى يجمع بين الأصل و الفرع من غير تعيين ، على أن العلل الشرعية أمارات على الأحكام ، والشبه يصلح أن يكون أمارة على الحكم.

ثالثا : أن الأقيسة الصادرة من النبى ﷺ اشتملت على عدد كبير من أقيسة الشبه ، وإليك بعض الأحاديث الدالة على اعتبار النبى ﷺ الشبه.

١- عن أبى ﷺ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال : إن امرأتى ولدت غلاما أسود ، فقال النبى ﷺ، هل لك من إبل ؟، قال : نعم ، قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر ، قال هل فيها من أورق ؟ ، قال: إن فيها لورقا ، قال : فأنى لها ذلك؟ ، قال : عسى أن يكون نزعه عرق ، قال: وهذا عسى أن يكون نزعه عرق .[١]

وجه الدلالة : قاس الولد الأسود على الجمل بجامع الشبه فى كل منهما وهو احتمال نزوع العرق.

قال النووى : فيه إثبات القياس والاعتبار بالأشباه .[٢]

٢- عن النعمان بن بشير ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم ، كان لما استبان أترك ، ومن اجترأ علي ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله ، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه .[٣]

وجه الدلالة : قاس النبى ﷺ المتعاطى للشبهات على الراعى حول الحمى فى قرب الوقوع فى المحرم بجامع الشبه بينهما ، وهو الاقتراب من المحظور .

---

[١] أخرجه مسلم فى كتاب اللعان ، صحيح مسلم بشرح النووى ١٠/ ١٢٣.

[٢] المصدر السابق ١٠/ ١٢٩.

[٣] أخرجه البخارى فى كتاب **البيوع** ، **فتح** البارى ٤/ ٢٩.

٣- عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سحماء ، قال ، فلاعنها ، فقال رسول الله ﷺ: أبصروها ، فإن جاءت به أبيض سبطا ، قضئ العينين ، فهو لهلال بن أمية ، وإن جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء ، قال فأنبئت أنها جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين . [١]

وجه الدلالة : أن النبى ﷺ بين أن المولود يلحق بمن يشبهه ، وهذا يدل على اعتبار الشبه .

٤- عن عائشة رضى الله عنها قال : قلت يا رسول الله أرأيت لو نزلت واديا وفيه شجرة قد أكل منها ، ووجدت شجرا لم يؤكل منها فى أيها ترتع بعيرك ؟ ، قال : فى التى لم يرتع منها . [٢]

وجه الدلالة : أنها قاست المرأة البكر على الوادى غير مأكول الشجر بجامع الشبه بينهما، وهو عدم المس فى كل ، وقد أقرها النبى ﷺ على هذا القياس.

قال ابن حجر : فى هذا الحديث مشروعية ضرب المثل ، وتشبيه شئ موصوف بصفة مثله . [٣]

---

[١] أخرجه مسلم فى كتاب اللعان ، صحيح مسلم بشرح النووى ، ١٠/ ١٢٨- ١٢٩.

[٢] أخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، فتح البارى ٩/ ١٢٠.

[٣] فتح البارى ٩/ ١٢١.

٥- عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ دخل على مسرورا يبرق أسارير وجهه ، فقال : ألم تر أن مجززا [١] نظر آنفا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض . [٢]

وجه الدلالة : ألحق مجزز أسامة بن زيد بزيد بن الحارثة بجامع الشبه بينهما فى الأقدام ، وسر بذلك النبى ﷺ، وأقره على هذا القياس ، فدل ذلك على اعتبار الشبه فى الأحكام.

وهذا القدر من الأقيسة النبوية أراه كافيا فى رجحان رأى من ذهب إلى اعتبار الشبه فى الأحكام ، ومن يريد معرفة المزيد منها فليرجع إلى " كتاب أقيسة النبى ﷺ " تصنيف الإمام ناصح الدين عبدالرحمن الأنصارى ، المعروف بابن الحنبلى المتوفى سنة ٦٣٤هـ.

---

[١] هو ابن الأعور بن جعدة المدلجى الكنانى ، سمى مجززا ؛ لأنه كان فى الجاهلية إذا أسر أسيرا جز ناصيته . الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٣٦٥.

[٢] أخرجه البخارى فى كتاب الفرائض ، فتح البارى ١٢/ ٥٦.

حجم الجملة العربية

أ.د. على أبوالمكارم *

يتأثر حجم الجملة بصورة مباشرة فى التراث النحوى بعدد مـــن المقولات التى يمكن اعتبارها بمثابة الأسس النظرية التى يستند إليـــها النحاة العرب فى تحديده . وأبرز هذه المقولات ما يأتى :

* أستاذ النحو العربى ، وعميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

أولاً : مقولة الإسناد .

وتفترض هذه المقولة ضرورة وجود طرفين أساسيين فى كل جملة . وتتبع الأساس النظرى الذى أخذ به النحاة فى تحديدهم للحد الأدنى للجملة ، يسلم إلى إمكان كون هذين الطرفين كلمتين فحسب ، فى حين تشير النماذج النمطية التى عرضوا لها إلى إمكان كون المسند أكثر من كلمة واحدة أى تركيباً إسنادياً . ولكن المأثورات النحوية النظرية والنماذج التطبيقية تتفقان معاً فى ضرورة كون المسند إليه اسماً أى كلمة واحدة فحسب.

ولا مفر من الاعتراف بأن هذا التحديد لكل من الطرفين لا يتسم بالدقة الكاملة ، سواء فيما يتصل بالمسند أو ما يتعلق بالمسند إليه .

أما المسند فإن القواعد النحوية التفصيلية تضيف إلى جواز كونه كلمة مفردة أو تركيباً إسنادياً إمكان وقوعه مركباً فعلياً .

وأما المسند إليه فإن القواعد النحوية قد قطعت بإمكان وقوعه واحداً من أمور ثلاثة : كلمة مفردة ، ومركباً اسمياً ، وتركيباً إسنادياً.[1]

---

[1] الكلمة كما قرر النحاة لفظ يدل على معنى مفرد ، أما المركب فإنه لفظ مكون – فى الأصل – من أكثر من كلمة ، ويدل من حيث المعنى على معنى غير مفرد وغير تام ، ويؤدى نحوياً وظيفة الكلمة المفردة، فقد يؤدى وظيفة الفعل – كما فى نحو : حبذا النجاح ، وقد يؤدى وظيفة الاسم ، كما فى : بعلبك مدينة جميلة . وأما التركيب الإسنادى فنعنى به هنا ما يعم ما يشيع التعبير عنه فى التراث النحوى بالجملة الصغرى التى تقع فى إطار جملة أكبر تكون خبراً عنها أو حالاً لما فى حيزها ، أو

ومقتضى هذا أن الأشكال النمطية للجملة فى ضوء مقولة الإسناد التى أجازتها القواعد النحوية التفصيلية تنتهى إلى إمكان بلوغها تسعة أشكال تختلف باعتبار مكونات عنصرى الإسناد فيها ، على النحو الآتى:

مسلسل	المسند	المسند إليه
١	كلمة	كلمة
٢	كلمة	مركب اسمى
٣	كلمة	تركيب إسنادى
٤	مركب فعلى	كلمة -
٥	مركب فعلى	مركب اسمى
٦	مركب فعلى	تركيب إسنادى
٧	تركيب إسنادى	كلمة
٨	تركيب إسنادى	مركب اسمى
٩	تركيب إسنادى	تركيب إسنادى

ولا ينبغى أن يفوتنا أن نشير إلى وقوع التركيب الإسنادى مسندا إليه يتطلب دائما ما يسمى بأداة السبك ، لأنه فى قوة المصدر ، أو على

صلة له ، أو وصفا ، أو مضافا إليه ، وفى حالتنا هنا يتضح إمكان وقوع هذا التركيب أيضا مسندا إليه إذا سبق بما يتأول معه بمصدر. أنظر كتابنا : المدخل إلى دراسة النحو العربى – الجزء الأول.

حسب تعبير النحاة "مصدر مؤول " فى حين لا يشترط وجود هذه الأداة فى حالة وقوعه مسنداً .

وتشير الدراسات النظرية التى قدمها النحاة العرب إلى أن من الممكن أن توجد صورة مختلفة للإسناد فى إطار الجملة الواحدة ، ولو أخذنا فى الاعتبار معطيات الأحكام التفصيلية المستمدة من القواعد النحوية أيضاً لانتهينا إلى أن هذه الدعوى تستند إلى سند صحيح.

ذلك أن من الممكن ألا تحتوى الجملة إلا على عملية ذهنية واحدة هى العملية الإسنادية التى يتم فيها الحكم على أحد الطرفين (وهو المسند إليه) بالطرف الآخر (وهو المسند) ، كما فى نحو قول عمر بن أبى ربيعة : [١]

تشط – غداً – دار جيراننا وللدار – بعد غدٍ أبعد

فإن صدر البيت جملة تم فيها إسناد (تشط) أى تبعد ، إلى (دار الجيران) ، وعجز البيت جملة أيضاً أسند فيها شدة البعد إلى (الدار) ، والإسناد فى الجملتين مفرد لا تعدد فيه كما نرى.

ومن الممكن أيضاً أن تحتوى الجملة على أكثر من عملية ذهنية إسنادية واحدة وبذلك تتضمن أطراف إسناد تتعدد بتعدد العمليات الإسنادية الموجودة فى الجملة ، كما فى قول الله تعالى [٢] : (إن الذين

---

[١] البيت فى ديوانه ١٦٦.

[٢] من الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

فرقوا دينهم – وكانوا شيعاً – لست منهم فى شئ) . وقوله سبحانه [1]: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ، وقوله [2] : (قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا).

وتحليل الصور التى تحتوى فيها الجملة على أكثر من عملية إسنادية يكشف عن أن هذه الصور تأخذ – بشكل عام – أسلوبين مختلفين : فى أولهما يحدث ما يمكن أن يوصف بأنه (تداخل) فى عمليات الإسناد ، بمعنى أن طرفى عملية إسنادية يكونان فى مجموعهما طرفاً إسنادياً فى العملية الأخرى ، ففى آية (القصص) السابقة – مثلاً – نجد أن : (يدعوك) – وهى تتضمن عملية إسنادية ذات طرفين : (الفعل+ الضمير الواقع فاعلاً عند النحاة) – قد وقع مسنداً للعملية الإسنادية الأخرى : (إن أبى يدعوك) ، ومثلها من آية الكهف : (كان يرجو لقاء ربه) ، وفى الأسلوب الثانى لا نجد علاقة مباشرة بين أطراف العمليات الإسنادية ، بمعنى أن العمليات الإسنادية المحتواة لا يمثل أى منها – فى ذاته – طرفاً من أطراف الإسناد لغيره ، وإنما يذكر فى الجملة توضيحاً لغموض ، أو تفصيلاً لإجمال ، أو تفسيرا للبس ، فى آية القصص السابقة نجد أن دعوة الأب لموسى معللة بالرغبة فى أن يجزيه أجر ما صنع ، فثمة عمليتان إسناديتان أخريان فى الآية : الأولى (ليجزيك) ، والثانية (ما سقيت) وليست إحداهما طرفا إسنادياً فى الأخرى ، كما أنه ليس لهما معاً علاقة مباشرة بأطراف

---

[1] من الآية (١١٠) من سورة الكهف .

[2] من الآية (٢٥) من سورة القصص.

الإسناد السابقة عليهما فى الآية نفسها ، ولا يعنى نفى هذه العلاقة المباشرة بتر الصلة بين عمليات الإسناد فى الجملة ، إذ من المحتم أنها جميعاً – ما دامت فى إطار كلى واحد – ترتبط بعلاقة تجمعها : كتحديد الباعث ، أو الزمان ، أو المكان ، أو الكيفية ، أو الإضافة ، أو الربط (فى أسلوب الشرط) ، أو المقابلة ، أو المصاحبة ، أو نحو ذلك من العلاقات ، ومن ثم فإن النفى ينصب على صلتها بأطراف الإسناد ، أى من حيث وقوعها طرفاً إسنادياً لعملية إسنادية أخرى.

ونحن نؤثر أن نستخدم للإشارة إلى هذه الصور من الإسناد المصطلحات الآتية:

الصورة الأولى : إفراد الإسناد .

الصورة الثانية : تداخل الإسناد .

الصورة الثالثة : تعدد الإسناد .

ولا تحتوى الصورة الأولى إلا على طرفين فحسب ، هما : المسند إليه ، والمسند.

أما الصورة الثانية فإنها تتضمن أكثر من طرف من أطراف الإسناد ، بمعنى أنه يوجد فيها أكثر من مسند وأكثر من مسند إليه ، لكن بين هذه الأطراف جميعا صلة مباشرة إذ إن طرفى العملية الإسنادية فى بعضها طرف لبعضها الآخر.

وفى الثالثة تتعدد أطراف الإسناد فى إطار الجملة بتعدد العمليات الإسنادية فيها، لكن لا صلة مباشرة بين هذه العمليات الإسنادية ، بل

ثمة تغاير بين عناصر الإسناد فى كل منها .

وبهذا التصور لمقولة الإسناد يتضح أن تأثيرها فى (حجم الجملة و (شكلها) متعدد الأسباب ، وأهم هذه الأسباب ثلاثة :

١- طبيعة الإسناد .

٢- نوع المسند .

٣- نوع المسند إليه.

ثانياً : مقولة العمل :

تقرر هذه المقولة ضرورة أن تحتوى كل جملة على أطراف العمل الثلاثة : العامل ، والمعمول ، وأثر العامل فى المعمول الذى يرمز له بالحركة الإعرابية .

أما العامل فهو المؤثر فى الحركة الإعرابية فى آخر المعمول ، وقد يكون لفظياً- أى كلمة بعينها تتضمنها الجملة - وقد يكون معنوياً - أى معنى قائم بالذهن ليس له لفظ محدد مذكور.

وأما المعمول فهو اللفظ الذى يتغير آخره فى الواقع أو فى التقدير تبعاً للعلاقات التى تربطه بغيره من الكلمات فى إطار الجملة ، وقد يكون لفظاً محدداً كما قد يكون تركيباً.

وأما الحركة الإعرابية فهى رمز لتأثير العامل فى المعمول وعلامة عليه ، ومقتضى كونها رمزاً أن عدم وجودها فى اللفظ لا يستلزم بالضرورة نفى مدلولها - وهو هذا التأثير - جملة ، بل كل ما يمكن القطع به هو عدم وجود العلامة الدالة لفظاً فحسب.

والأصل فى الأفعال أن تكون عاملة ، لا يستثنى من ذلك إلا الأفعال المؤكدة لغيرها تأكيداً لفظياً ، أو الزائدة ، أى المقحمة على مبنى الجملة دون أن تكون لها علاقة لفظية مباشرة بأطراف الإسناد فيها ، ولا بعناصر العمل بها .

وكافة الأسماء والمركبات الاسمية عند النحاة معمولة ، فلا سبيل إلى وجود اسم أو مركب اسمى لم يتأثر بعامل لفظى أو معنوى ، ثم إن منها ما يمكن أن يعمل ، ولكنه عدد جد محدود (المصادر ، والمشتقات، وما ألحق بهما مما يعمل عمل الفعل) وبشروط خاصة ، وهذه أيضاً يتحتم أن تكون - فى الوقت نفسه - معمولة ، فهى تعمل باعتبار مخالف لاعتبار العمل فيها ؛ إذ تعمل إلحاقاً لها بالأفعال ، ويُعْمَل فيها بحكم كونها أسماء.

وأما الحروف فمنها ما يعمل ومنها ما يهمل ، ولكن لا سبيل إلى كونها معمولة قط.

ومقتضى ضرورة وجود (الاسم) فى الجملة ، بحكم كونه مسنداً إليه فيها ، أنه لا مفر من احتواء الجملة على (المعمول) ، الأمر الذى يستلزم حتماً وجود بقية الأطراف فيها ، وهكذا لا مناص عند النحاة من أن تتضمن كل جملة أطراف العمل الثلاثة : العامل ، والمعمول ، والأثر الإعرابى الظاهر أو المقدر ، بحيث إذا وجد واحد منها لم يكن بد من وجود بقيتها ، ولا سبيل - عند النحاة - إلى تصور وجود عامل من غير معمول ، ولا إلى إمكان وجود معمول من غير عامل ، كذلك لا مجال لتوهم حركة إعرابية ملفوظة أو مقدرة من غير عامل يحدثها ومعمول يحملها.

وتحليل العناصر الأساسية للجملة – **من حيث العمل** – ينتهى إلى عدد من النتائج ، أهمها :

١- أن المسند إليه معمول دائماً ، وقد يكون عامله لفظياً ، وقد يكون معنوياً .

٢- أن المسند قد يقع عاملاً ، وقد يقع معمولاً ، وقد يكون عاملاً باعتبار ، معمولاً باعتبار آخر.

فالمسند الفعلى عامل دائماً ، سواء أكان فعلاً أم مركباً فعلياً . وقد يكون معمولاً إذا كان من قبيل (الفعل المضارع) ؛ إذ إن المضارع معمول بحسب إعرابه ، عامل لحاجته إلى فاعل.

والمسند الاسمى معمول دائماً سواء أكان اسماً أم مركباً اسمياً ، وقد يكون عاملاً أيضاً إذا كان أحد المصادر أو المشتقات التى تعمل عمل الفعل ، فإنها تسند إلى معمولاتها ، وهى بالنسبة لهذه المعمولات عاملة فى الوقت الذى يعمل فيها غيرها.

٣- أن وجود (عامل) ما فى الجملة – أيا كانت علاقته بطرفى الإسناد فيها – يؤثر فى شكل الجملة وحجمها ، لأنه لابد أن يستوفى معموله، واحداً كان أو متعدداً.

٤- أن من الممكن أن يكون كل من (المسند) و (المسند إليه) معمولاً لعامل واحد ، كما أن من الممكن أن يختلف العامل فى كل منهما ، وفى كل من الحالتين يختلف حجم الجملة وشكلها .

ثالثاً : مقولة تعدد مستوى المبنى :

وتفترض هذه المقولة أن نص التركيب اللغوى الظاهر ليس دائماً – وفى كل الأحوال – المبنى الوحيد لهذا التركيب ، بمعنى أنه ليس سوى السطح الخارجى للتركيب أو الإطار الظاهرى له ، لكن قد يوجد في أحيان كثيرة بإزاء هذا السطح الخارجى بناء تحتى غير منظور ، وخلف هذا الإطار الظاهرى مقابل داخلى لا ينطق ولا يكتب ، ولكنه – برغم ذلك – الأساس الأصلى لكل ما ينطق ويكتب .

وثمة عوامل متعددة تؤثر فى السطح الخارجى للتركيب اللغوى – بما فى ذلك مبنى الجملة – على رأسها الموقف اللغوى ومقتضياته ، والاتساق التعبيرى وجمالياته ، وتترك هذه المؤثرات بصماتها فى المبنى ، أو إن شئنا الدقة ، فى سطح هذا المبنى وإطاره الظاهرى . وذلك فى صورة أو أكثر من صور (تشكيل) الجملة – بدءاً من اختيار الوحدات الداخلة فى تركيبها ، إلى تحديد النسق الذى يضمها. وقد تدعو الحاجة فى الموقف أو الحرص على جماليات التعبير إلى العناية ببعض مكونات الجملة أو الاهتمام ببعض العناصر فيها ، كما قد تحمل هذه الظروف على الاكتفاء ببعض هذه المكونات والعناصر دون بعض ، الأمر الذى يتجلى أثره فى صياغة الجملة . وأهم الجوانب التى يتضح فيها هذا التأثير سطح هذا المبنى وشكله الظاهر ، بحيث يبدو أكثر تحرراً من حيث عدم الالتزام بكافة الضوابط التى لابد من رعايتها فى المبنى وفقاً لضوابط الإسناد والعمل التى سلفت الإشارة إليها.

بيد أن هذا التأثير يظل وقفا على السطح الخارجى لا يتجاوزه إلى البناء التحتى الأساسى الذى يراعى دائما كافة المقومات ويلتزم بكل الضوابط ، سواء من حيث ذكر العناصر واستيفاء المكونات أو مراعلة ما تلزم مراعاته من ترابط واتصال أو الالتزام بالمواقع التى تقررها قواعد الترتيب ، فهو بهذا الاعتبار أكثر انضباطا من حيث الضوابط وأشد التزاما بالقواعد والنظم من السطح الخارجى.

وهكذا يتقرر فى هذه المقولة أن للتركيب مستويين :

الأول : المستوى الظاهر.

والثانى : المستوى الخفى.

وتشير دراسات النحويين إلى أنهم يتصورون أن المستوى الخفى أصل للظاهر ، وأن الظاهر فرع عنه ، ونائب له . [1] ومن ثم يتجوز فيه تبعا لبعض الظروف التى قد تدعو إلى التسامح فى الالتزام الكامل بالقواعد والنظم ، والتحرر من الخضوع المطلق لمقوماتها وضوابطها ، فى حين لا سبيل إلى شئ من هذا التسامح أو التحرر فى المستوى الخفى الذى يتمثل فى البناء التحتى . وهكذا تتأثر الأشكال النمطية للجملة بمؤثر جديد ، حيث يمكن أن تخلو هذه الأشكال – فى الظاهر – من بعض العناصر ، أو تفقد بعض الأطراف ، أو تهمل بعض العلاقات، إلى غير ذلك من الظواهر التى تترك بالضرورة أثرها فى

---

[1] انظر كتابنا : الحذف والتقدير فى النحو العربى ، وأيضا : بحثنا عن : التأويل فى النحو العربى.

الجملة شكلا وحجما معا.

لكن كيف السبيل إلى تعيين ما ليس له فى اللفظ وجود من العناصر والأطراف والعلاقات ؟ أى إلى تحديد البناء التحتى أو المستوى الخفى ؟ يرى النحويون أن الوسيلة الوحيدة لذلك هى "التأويل"، وهو عملية ذهنية تعتمد على ربط " النص اللغوى " ، الموجود بالفعل - الذى تستطيع أن تصفه بأنه السطح الخارجى للتركيب - بطرفين آخرين ، هما : الموقف اللغوى من ناحية . والقواعد النحوية المقررة من ناحية أخرى وفى ضوء ذلك يمكن أن تعثر تحت هذا السطح الخارجى على محذوف ، أو زائد ، أو مقدم ، أو مؤخر ، أو محرف ، أو مقدر ،أو متسع فيه ، أو مضمر ، أو مستتر ، أو مفصول ، أو معترض [1] إلى غير ذلك من الصور والأشكال التى يلجأ إليها النحاة فى تأويل البنية اللفظية للنص اللغوى ، أى الغوص تحت السطح الخارجى له ، ومحاولة الوصول إلى ما وراءه من بناء تحتى .

رابعا : مقولة الوجوه المحتملة :

محور هذه المقولة أن حجم الجملة - من حيث العناصر المكونة للبنية - من الممكن أن يحدد حده الأدنى ، لارتباط هذا الحد بمقومات ثابتة من الممكن تحقيقها فى أشكال محددة ، وقد حاول النحويون فعلا حصر هذه الأشكال للحد الأدنى للجملة ، سواء من التزم منهم بفكرة

---

(١) المصادر السابقة ، وكذلك : أصول التفكير النحوى ، ٢٦٥- ٢٦٢.

الفائدة أو من صدر عن مقولة الإسناد . أما نماذج الجملة - أى النسق الذى يضم كافة الأشكال النمطية الممكنة لها - فإنه من أعسر العسر حصرها ؛ لأن رصد هذه الأشكال إحصائيا مرتبط بالاحتمالات الممكنة لتشكيل مقومات الجملة - أى الناتجة عن وضع هذه المقومات فى أطر شكلية - وهذه الاحتمالات من التعدد والتنوع والتميز بحيث تعد معها محاولة رصدها وحصرها فى أطر ثابتة ومحفوظة نوعا من الترف الإحصائى الذى لا نتيجة عملية له ، والنتيجة الضرورية لهذه المقولة أن الأشكال النمطية للجملة من التعدد والتداخل والكثرة بحيث تتجاوز كل مدى محدود ؛ إذ إن هذه الأشكال نتاج تشكيل مقومات شتى: قد تتضافر وقد تتنافر ، وفى كل منها عناصر وأطراف قد تتسق وقد تختلف : عددا ، ونوعا ، وموقعا ، وحالة، الأمر الذى ينتج عنه صور لا سبيل أمام الباحث - وبإمكانات البحث المعتادة - لتصنيفها فضلا عن إحصائها.

ونكتفى بأن نشير هنا إلى أهم هذه المقومات المؤثرة - كما وكيفا - فى تعدد الاحتمالات ، فيما يأتى:

١- الاحتمالات الممكنة لتشكيل العناصر الأساسية .

ثمة مجموعتان من هذه العناصر ، ترتبط المجموعة الأولى بمقولة " الإسناد "، وتتصل الثانية بمقولة " العمل " .

وفى الإسناد عنصران أساسيان هما : " المسند " و " المسند إليه " ، لكنهما يختلفان من حيث مكوناتهما ، ومواقعهما ، ووظائفهما .

وللإسناد صور ثلاث : إذ قد يكون مفردا ، وقد يكون متداخلا ،

وقد يكون متعددا .

وأما العمل فثلاثى الأطراف ، وأطرافه هى : " العامل " و" المعمول " و"الحركة الإعرابية " ظاهرة أو مقدرة . ولا ترابط بين عناصر الإسناد وأطراف العمل، وإن وجب احتواء الجملة على هذه الأطراف والعناصر ، بمعنى أن العامل قد يكون مسندا ، وقد يكون المسند إليه ، وقد يكون شيئا خارجا عنهما.

٢- الاحتمالات المتوقعة للعلاقات الثانوية :

من المقرر أن هذه العلاقات - وفقا للمأثور فى التراث النحوى - نوعان : علاقات إسنادية ، وأخرى غير إسنادية .

وإذا كانت بعض صور العلاقات الثانوية الإسنادية المحتواة فى الجملة يمكن أن تدخل فى إطار ما اصطلحنا عليه " بتعدد الإسناد " فإن العلاقات الثانوية غير الإسنادية لا تدخل فى هذا الإطار ، وهى من التنوع والكثرة بحيث لا مجال لحصر الأشكال النمطية الناتجة عن وجودها . وبخاصة فى الحالات التى تحتوى الجملة على أكثر من علاقة منها كعلاقات : الإضافة ، والظرفية ، والتبعية ، والمفعولية ، ونحوها.

٣- الاحتمالات المتصورة للبنية الأساسية أو التحتية :

وهى احتمالات تمتد عما حول الصياغة اللغوية . ويمكن تحديد ما يحيط بهذه الصياغة فى أمور ثلاثة : أولها : النص نفسه ، أو لنقل كما ذكرنا من قبل : السطح الخارجى للتركيب اللغوى ، وثانيها :

الظروف المصاحبة له ، أو الموقف الـــذى يصـــاغ فيـــه ، وثالثـــها : معطيات القواعد النحوية .

وتتخذ هذه الاحتمالات أشكالا متنوعة تختلف باختلاف أســـاليب التأويل التى يلجأ إليها النحوى فى دراسته للنص اللغوى ، الأمر الـــذى يثرى النماذج النمطية للجملة بما يضفيه عليها من تصورات ، ويضيفــه إليها من احتمالات .

وإذا كان من المستطاع حصر النماذج الناتجة عن النــــوع الأول من الاحتمالات ، فإننا نحسب أنه لا سبيل أمامنا إلى الحصر الإحصائى الدقيق لهذه النماذج حين نضع فى الاعتبار مـــا ينتـــج عـــن النوعيـــن الأخيرين من إمكانات.

نخلص من هذا العرض إلى عدد من النتائج نحسب أنه لا مفـــر مـــن تسجيلها :

أولها : أنه ينبغى – موضوعيا – التفرقة بين الأشكال النمطية الـــواردة والمستعملة للجملة العربية ، وبين الدراسات التى عرضت لهذه الأشكال فى التراث النحوى.

فالأشكال النمطية تستمد مقوماتها من ورودها فـــى المـــأثورات اللغوية ، واستعمالها فى الأساليب التعبيرية ، أى أنها تعتمد على رصيد من واقع لغوى يتصف بالنمو والاستمرار ، ونعنى بالمأثورات اللغويـــة الحصيلة التى خلفها لنا عصر الاستشهاد من نصوص شعرية ونثريـــة ، ونقصد بالأساليب التعبيرية هنا نتاج ما بعد هذه العصر . ومن المؤكـــد

أن ثمة قدرا من التطور قد أصاب بعض الأشكال النمطية للجملة ، إما بسبب الموقف اللغوى والعناصر المشاركة فيه ، أو الزمن وأثره فى صياغة مكونات الجملة ، أو الجنس الأدبى ودوره فى تشكيل عناصرها، ومقتضى ذلك أن هذه الأشكال شأنها شأن كافة ظواهر اللغة، لا تتصف بالثبات المطلق ، بل إن الاستعمال يترك أثره فيها بما يغير منها فيضيف إليها .

أما التناول النحوى لهذه الأشكال فإنه يصدر عن رؤية ذهنية للواقع اللغوى ، وهى رؤية فى لحظة ثبات ، أى أنها تتناول بالضرورة واقعا محددا غير ممتد ، ونماذج بذاتها لا تقبل الإضافة . فالواقع اللغوى فى الدرس النحوى واقع من نوع خاص إذا صح هذا التعبير ، إنه أشبه ما يكون بالعينات المعملية بالنسبة لدارسى الطبيعة ، وثمة فارق لا مفر من الاعتراف به بين (العينة) داخل المعمل والظروف المصاحبة للجنس أو للعنصر الذى تنتمى إليه خارج المعمل . و(الواقع) اللغوى الذى يتناوله النحاة ليس أكثر من مجرد (عينة) مختارة، يصدق عليها ما يصدق على سائر العينات سواء فيما يتصل بأسس الانتقاء أو الاختيار ، أو التحليل ، أو النتائج.

ثانيها : أنه يجب – منهجيا – التمييز بين التناول النحوى لمقومات الجملة ، ودراسة اتجاهات النحاة فيها ، من الناحية النظرية ، والتحليل النحوى لهذه المقومات والاتجاهات فى إطار تناول الحجم ، الذى يمكن أن يعد - عمليا – بمثابة الناحية التطبيقية. فالدراسة النظرية تستند إلى مقولات ذهنية ، وهى مقولات تأخذ فى البحث النحوى شكل المقدمات المنطقية . وفى نطاق هذه المقولات والمقدمات تصبح النتائج ضرورية،

ومن ثم إذا اختلفت المقولات لم يكن بد من اختلاف النتائج . وهكذا بوسعك أن تجد فى دراسة مفهوم الجملة فى التراث النحوى اختلافا يكاد يصل حد التضارب بين النحاة ، فى مدى الاعتداد ببعض الأشكال سلبا أو إيجابا ، انطلاقا من تحكيم المقولات الذهنية ، والالتزام بمعطياتها .

أما الدراسة التطبيقية فإنها برغم تأثرها بالضرورة بالمقولات الذهنية لم تظل أسيرة هذه المأثورات دائما ، بل استندت إلى لحظ النماذج والأشكال اللغوية ، الأمر الذى أمكن معه حدوث تقارب فى المواقف العملية يكاد يصل فى بعض الأحيان مرحلة التوافق إزاء عدد من الأشكال النمطية التى كانت مثار تضارب فى الدراسة النظرية . ونحسب أن هذا يفسر تحول موقف النحاة الذين رفضوا الاعتداد بجملة النداء ونحوه من الأمثلة التى تخلو من الإسناد إلى قبولها عمليا باعتبارها شكلا من الأشكال النمطية للجملة العربية . ولعل هذا يؤكد من جديد ضرورة البدء فى التحليل النحوى من الواقع اللغوى ، ذلك أن تجاوز هذا الواقع وإن أسلم إلى بناء ذهنى قد يتسم بالاتساق فإنه مضطر إلى التضارب مع معطياته حين يواجهه ، فيتحول الاتساق النظرى إلى اضطراب تطبيقى .

ثالثها : أنه لا سبيل إلى تجاوز الحقيقة القائلة إنه برغم ما يتضمنه التراث النحوى من تعدد فى الاتجاهات واختلاف فى الآراء فإن من الممكن مع ذلك العثور على ما يمكن أن يعد أرضا مشتركة بين كافة الاتجاهات أو إطارا عاما لكل الآراء ، ويتمثل ذلك فى عدد من النقاط أهما :

١- أن الجملة - عملياً - هى التركيب اللغوى الإسنادى المفيد.
واستخدام لفظ (التركيب) يشير منذ الوهلة الأولى إلى طبيعية الجملة كما يحدد مستواها : أما طبيعتها فلأنها غير أحادية الأطراف ، أى متعددة العناصر . وأما مستواها فلأنها - شأن كل ما يقبل التركيب - تبدأ من البسيط ، فهى مرحلة تالية له ، ومن ثم مستوى متطور منه، فالجملة تبدأ من مكوناتها من الوحدات الصغرى الداخلة فى تركيبها من كلمات أو مركبات أو هما معاً ، ولكنها تبنى من هذه الوحدات أشكالاً جملية خاصة بها ، وبذلك تصبح هذه الوحدات لبنات فى بناء كلى جديد الشكل والوظيفة معاً .

ووصف هذه التركيب (بالإسنادى) لاستبعاد أنماط من التراكيب اللغوية غير الإسنادية ، وهى التى سبق أن أطلقنا عليها مصطلح (المركبات) فإن هذه التراكيب - بحسب وظيفتها دائماً ، وبحسب بنيتها وأشكالها أحياناً - ليست جملاً ، وإنما تستخدم استخدام الكلمات ، إذ توظف فى بناء الجمل فهى - من هذه الناحية - عناصر مفردة قابلة للتشكل فى إطار الجملة العربية .

وتحديد غاية هذا التركيب الإسنادى (بالفائدة) بغية الإشارة إلى أمرين : أولهما : استبعاد التراكيب الإسنادية التى تخلو من الفائدة اللغوية ، وإن تضمنت فوائد أخر : كالدلالة على الحالة النفسية أو العقلية أو السياسية أو الاجتماعية أو غيرها ، فإن محور الفائدة فى الجملة لغوى ، بحكم كونها مستوى من مستويات الأداء اللغوى . وثانيهما : احتواء كافة صور الفائدة اللغوية الممكنة دون اشتراط الجدة فيها أو الصدق معها ، وأياً كانت الظروف المصاحبة لها .

٢- أن مقومات الجملة - فى ضوء هذا التحديد - تدور حول محور طرفاه : (الإسناد) و (الفائدة) ، معا ، بيد أنه من الممكن - نظريا - أن يقتصر السطح الخارجى للجملة على أحد الطرفين ، ومن ثم يكون إطلاق لفظ (الجملة) عليه حينئذ على سبيل التجوز، أو بطريق الاختصار.

فقد يستخدم لفظ (الجملة) تجوزا فى التركيب غير الإسنادى - إذا كان مفيدا - كما فى النداء ، وبعض صور التمنى .

كما قد يستخدم اللفظ اختصارا عوضا عن (التركيب الإسنادى) الذى تنقصه الفائدة التامة ، كما فى الخبر ، والحال ، والصفة ، ونحوها.

٣- أن صياغة العناصر المكونة للجملة يقتضى وجود نسق محدد ، ونظام ثابت ، أى قواعد ملتزمة ، وهو ما تتكفل به مقولة (العمل) ، إذ هى بمثابة الخيوط العرضية التى تضفر عناصر الإسناد الممتدة فى نسيج الجملة العربية ، لكى تصل إلى هدفها من الفائدة فى الموقف أو السياق . وهكذا يمكن أن يضاف إلى مقومات الجملة التى سلفت الإشارة إليها من (الإسناد) و (الفائدة) مقوم ثالث ضرورى هو نظام (العمل) وعلاقاته وأطرافه.

٤- أن حجم الجملة من الثراء والتنوع بحيث يتعذر استقصاء كافة نماذجه المقبولة وأشكاله المعتد بها ، بيد أن من الممكن التمييز فيه بين البنية الأساسية التى يمكن أن تعد الحد الأدنى له ، والأشكال النمطية التى تتشكل فيها هذه البنية ، والتى هى نتاج عدد من

المؤثرات ، أهمها: طبيعة الإسناد ، وأنواع عناصره من مسند ومسند إليه، وطبيعة العلاقات الثانوية المحتواة ، وعددها وحجمها ، وأنواعها ، ومقومات العمل وأطرافه ، وعلاقاته بعناصر الإسناد من ناحية ، وبالعلاقات الثانوية من ناحية أخرى.

رابعها : أنه فى ضوء هذه الحقائق جميعاً ، ورعاية لمقتضياتها ، لا نجد حرجاً فى أن نحدد (الجملة) بأنها : " نظام من العناصر اللغوية المؤلفة لتؤدى معنى مفيداً فى الموقف أو السياق".

ولقد آثرنا أن نبدأ هذا التحديد بكلمة (نظام) للدلالة على أمرين متلازمين معا:

الأمر الأول : " التركيب " ذلك أن لفظ " النظام " لا يصف المفردات فى ذاتها ، ولا يسم الوحدات قبل تركيبها مع غيرها ، فوجود شئ أو شخص فى ذاته ، ودون اعتبار مكوناته ، أو حالته ، أو موقعه ، أى من غير مقارنته بغيره ، أو مقابلته بسواه ، لا يوصف بنظام ما سلباً أو إيجاباً ، ذلك أن " نظام " وصف - بالضرورة - للعلاقات القائمة أو المفترضة بين الوحدات المتعددة بالفعل أو بالقوة . وهكذا يستلزم " النظام " التركيب.

الأمر الثانى : أن التركيب بدوره يقتضى - تلقائياً - وجود ضوابط له ، ولا يخلو تركيب معتد به لغوياً من نظام التزم فيه وقواعد خضع لها ، ولا سبيل إلى توهم إمكان إيجاد تركيب مقبول يخلو من كل نظام أو تسوده علاقات عشوائية تخلط بين النظم . بل لا مفر من الالتزام المطلق بالنظام أو النظم التى تحكم مستويات التركيب والعناصر المكونة

له والوحدات الداخلة فيه . صحيح أن " النظام " ليس وحدة من هذه الوحدات الداخلة فى التركيب ، ولكن الصحيح أيضاً أنه ضرورة لكل الوحدات المكونة لكل تركيب ، لأنه سمة العلاقة التى تربط بينها .

وهكذا كما يقتضى " النظام " تركيباً ، يستلزم " التركيب " نظاماً.

وعدلنا إلى استخدام لفظ (العناصر) فى الإشارة إلى مكونات الجملة ، بدلاً من الكلمات ، لأمرين أيضاً :

الأمر الأول : أن مكونات الجملة فى الحقيقة ليست محصورة فى نطاق الكلمات فحسب، بل إن مكونات الجملة يمكن أن تقسم – لاعتبار توضيحى أو تعليمى – إلى مستويين : مستوى الوحدات الداخلة فى تركيبها ، ثم مستوى المقولات التى تنظم بينها ، ومن الثابت أن الكلمات ليست كل ما يدخل تركيب الجملة من وحدات ، فإن من هذه الوحدات أيضاً المركبات ، والتراكيب الإسنادية ، ونعنى بها ما شاع فى التراث النحوى الاصطلاح عليه بالجملة الناقصة الفائدة ، أو بتعبير أكثر دقة : محدودة الفائدة.

الأمر الثانى : أن من بين مكونات الجملة نتائج عدد من المقولات بما تقدمه فى تكوينها من معطيات أو تتركه فيها من مؤثرات، ونعنى بهذه المقولات بصفة خاصة : مقولة الإسناد بما قررته من ضرورة وجود طرفين – أو عنصرين – إسناديين : المسند والمسند إليه ، ومقولة العمل، بما استلزمته من وجود أطراف ثلاثة : العامل ، والمعمول ، والحركة الإعرابية الظاهرة أو المقدرة رمز تأثير العامل فى المعمول ، ثم الفائدة بما تتطلبه من رعاية الظروف المصاحبة للموقف أو السياق.

وهذه كلها (عناصر) مؤثرة فى تكوين الجملة ، ومن ثم لم يكن بد من العدول عن لفظ الكلمات فى الإشارة إلى هذه المكونات.

ووصف هذه العناصر المكونة للجملة (باللغوية) قيد لإخراج العناصر الأخرى التى تكون - أو تسهم فى تكوين - الظواهر غير اللغوية ، من بقية الظواهر الاجتماعية أو غيرها مما ينتمى إلى الطبيعة من ظواهر . فبناء الأسرة مثلاً - وهو ظاهرة اجتماعية - يتأثر بمجموعة كبيرة من العناصر والنظم التى تتآزر على تحقيق غاياته من الحفاظ على النوع والاستقرار الاجتماعى معاً ، ولقد تكون اللغة - بمستوياتها المختلفة - بعض هذه العناصر ، ولكنها ليست سوى جانب واحد منها ، فإلى جوارها علاقات الزواج ، والطلاق ، والميراث، ونحوها من بقية العناصر المؤثرة فيها . وشروق الشمس أيضاً ظاهرة طبيعية ، وهى - بدورها - نتاج العديد من النظم التى تتلاقى على جعل هذه الظاهرة حقيقة تتكرر فى الزمان والمكان بصورة ثابتة يمكن احتسابها سلفاً لآلاف السنين ، وهى جميعاً لا علاقة لها باللغة ومستوياتها .

وأما وصفها بكونها (مؤلفة) فمحاولة للإشارة إلى طبيعة العلاقات التى تربط العناصر فى حال تركيبها فى الجملة ، وهى علاقات ينبغى أن تتسم بالاتساق بين معطياتها والتوافق بين مكوناتها ، ومن ثم الانسجام التام فى مبنى الجملة ، وبين مبناها ومعناها.

وليست هذه الصفات - من الاتساق ، والتوافق ، والانسجام - صفات مفترضة ، بل إنها توشك أن تكون صفات كاشفة ، أى أنها -

فى الحقيقة – لا تعدو وصف ما هو قائم بالفعل فى تكوين الجملة من خصائص . ومن الصعب أن نتصور جملة لا تتحقق فيها هذه الصفات، جملة تتضارب فيها عناصر الإسناد ومقومات العمل مثلاً ، أو تتناقض فيها بعض هذه الأطراف والعناصر مع الفائدة التى تحتويها ، أو التى سيقت لأدائها.

والمعنى هو غاية هذا النظام كله وبغيته ، أى أن المبنى ليس سوى جانب واحد منه ، وهو جانب مهم لا مجال لتقليل قيمته ولابد من الالتزام الدقيق فيه بكافة الضوابط والنظم التى تحكم مكوناته وتسم علاقاتها ، بيد أنه إلى جوار هذا الجانب جانبان آخران لا سبيل البتة إلى إهمالهما أو إغفال دورهما أو التهوين من شأنهما : أولهما : المعنى الذى يتضمنه هذا المبنى فى ذاته ، أى تحمله الوحدات الداخلة فى تكوينه من كلمات ومركبات ، وثانيهما : الدلالة الناتجة عن استخدام هذا التكوين فى المقام ، وإذا كان المعنى الأول من الممكن فصم الصلة بينه وبين الموقف أو السياق ، وتناوله على أنه محصلة كلية لمعانى المفردات المركبة فى الجملة ، أى اعتباره نتاجاً ذاتياً لمفردات التركيب اللغوى ، فإن المعنى الثانى لا يمكن فصله عن الموقف أو السياق ، ومن ثم فإنه يتجاوز مجموع معانى كلماته ومركباته إلى معان مستفادة من الظروف المحيطة المؤثرة فى الموقف أو المصاحبة للسياق ، وهكذا يمكن أن تجد تشابهاً بين تركيب المفردات فى الجملة ، وتركيب العناصر فى الطبيعة ، يتمثل فى أن النتيجة فى كل منهما ليست بالضرورة مساوية للمجموع المكون لهما ، بل من الممكن الوصول إلى نتاج جديد هو حصيلة تركيب هذه الوحدات – أو العناصر – فى نطاق

الظروف التى يتم فيها . وبهذا قد يكون المعنى النهائى للجملـــــة أكـــبر من مجموع معانى مفرداتها .

قضية تعريب الطب

د. محمد الجوادى *

بادئ ذى بدء ، لابد أن نتساءل : ماذا كان سيصبح حال الـــدول الأوربية فى بداية عصر النهضة لو أنها انساقت وراء الدعاوى (القائمة يومها فرضاً) والتى تقول إنه لابد من الإبقاء على تعليم الطب باللغـــــة العربية لأنها اللغة التى تحتوى على ١٠٠% مـــــن الكتابـــات العلميـــة المسجلة فى الطب يومها ، ولأن الرازى وابن سينا والزهراوى وابــــن

* أستاذ مساعد بكلية الطب جامعة الزقازيق.

رشد – وهم علماء الطب المبرزين يومها – كانوا قد كتبوا بالعربية وترجمت مؤلفاتهم . . بل إن الأصول اليونانية للطب اليونانى القديم لم تكن موجودة يومها ، وإنما كان الموجود هو ترجمتها للعربية فحسب، وإذن فإن الأولى هو الاكتفاء باللغة العربية فى تعليم الطب.

ترى ما هو المستقبل الذى كان سينتظر الحضارة الغربية فى أسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا . .الخ ، لو فكرت بهذا الأسلوب فى بداية عصر النهضة (الرينسانس) وظلت محتفظة بالتراث الطبى السابق عليها كما وجدته عربياً ؟

أغلب الظن بل إنه من المؤكد أن إسهام هذه الحضارات فى العلوم الطبية لم تكن لتقوم له قائمة ، ولم يكن للتقدم الطبى فيها أن يحقق شيئاً يذكر على الإطلاق .

فى مرات عديدة كان يتاح لى وقت أجلس فيه (على مائدة طعام أو فى استراحة بين جلسات مؤتمر) مع بعض كبار أساتذة الطب العالميين ، وكانوا يسألوننى هل لا تزالون لا تدرسون الطب بالعربية ؟ ألا زلتم تدرسونه بالإنجليزية (فى المستعمرات الإنجليزية السابقة) وبالفرنسية (فى المستعمرات الفرنسية السابقة) ؟ كنت بالطبع أجيب بالإيجاب ولم أكن أسمع إلا صيحات التعجب التى تدل على أن مثل هذا السلوك مؤلم أو يستدعى الألم . .

هل نجد الجرأة لكى نتأول فنقول إن هؤلاء القوم لا يحبون لغاتهم فهم يدعوننا إلى هجرها . . أم هل نتمادى فى التأول فنقول إنهم يدفعوننا إلى طريق التهلكة حتى لا ننافسهم . .

أعتقد أننا جميعاً أصبحنا اليوم (فـــى مجموعنـــا وفـــى عقلنـــا الجماعى) بمنأى عن مثل هذه العقـــد المرتبطـــة بنظريـــة المؤامـــرة والتصورات الخاطئة . . وإذن فينبغى لنا أن نفهم أن مثل هؤلاء الأطباء الكبار لا يقولون ذلك إلا من نفس المنطق الذى يستنكرون بـــه إجـــراء عملية خاطئة أو فى غير موضعها ، أو وصف دواء لا لزوم له.

لماذا . . هذا هو السؤال الذى أجابت عليـــه منظمـــة الصحـــة العالمية حين دعت بكل قوة إلى أن تلتزم الدول جميعاً بتعليـــم الطـــب بلغاتها القومية فقد ثبت أن هذا كفيل فى النهاية بتحقيق مستوى أحســـن وأرفع من المستوى الذى يتحقق عند التدريـــس باللغـــة الأجنبيـــة . . والمقصود بالمستوى : مستوى التعليـــم الطبـــى ، وبالتـــالى مســـتوى الخدمات الصحية والطبية الكفيلة بتحقيق الصحة للجميـــع عـــام ٢٠٠٠ وهو الهدف الذى وضعته الصحة العالمية منذ أكثر من عقد من الزمـــلن أمام عينيها ونمت من خلاله كثير من المفاهيم المرتبطة بالتقدم الطبى.

وفيما يبدو فإنه لم يعد هناك على ظهر البسيطة كمـــا يقولـــون شعب لا يدرس الطب بلغته القومية سوى الشـــعب العربـــى " للأســـف الشديد " مع أنه يمتلك لغة من اللغات الرسمية الرئيســـية فـــى الأمـــم المتحدة، لغة لابد أن نسمعها وأن نجدها فى كل مؤتمر دولى كبير مـــن خلال سماعات الترجمة الفورية فى الأمم المتحدة ومنظماتها . .

ومع هذا لا يزال بعضنا يعتقد أن اللغة العربيـــة عـــورة مـــن العورات التى لابد له أن يسترها تماماً.

ومن أعجب ما يمكن أن الإسرائيليين يدرسون الطب باللغة العبرية ، وهى لغة ميتة بلا جدال ، وأن اليونان تدرس الطب باليونانية . .الخ ، إلا الشعب العربى صاحب اللغة المنتشرة فى ٢٢ قطراً !

وفى الحقيقة فإنه يبدو أن موقفنا من لغتنا لا يزال واقعاً تحت سيطرة عقد النقص القديمة ويكفى أن نقارن بين موقفين :

موقف بروتوكولات حكماء صهيون التى تجعل أول البنود والمهام إحياء اللغة العبرية . . وموقفنا جميعاً حين يفتح الله علينا بقرشين " أو لا يفتح " فنسارع من باب الوجاهة الاجتماعية (السامة) إلى إلحاق أبنائنا بما نسميه المدارس الأجنبية .

ومن أعجب ما يمكن أن يسارع الرجال الأفاضل إلى (الاعتراف) أو (القول) بضعف مستوى اللغة الإنجليزية عند طلاب الطب وعند خريجيه ومع هذا يصممون فى نفس الوقت على أن تدريس الطب بغير اللغة الإنجليزية سيضعف المستوى . . تماماً كالذى يعترف بأن السيارة تعانى من ضعف الموتور ، فإذا أشير عليه باستبدال الموتور قال : مستحيل ! ! إنها لن تمضى بدونه ! نحن يا سيدى لا ننصح بأن تمشى بدون الموتور ولكننا ننصح باستبدال الموتور . . ننصحك بأن تستخدم موتوراً آخر أقوى وأشد وأنسب !

وليس من شك أن مستوى الطلاب والخريجين فى اللغة العربية عموماً ليس هو المستوى الذى ينبغى أن يكون عليه إتقان اللغة القومية، ولكن هذا ليس إلا صورة من صور الإصابات المتعددة التى نحن مصابون بها لأننا نهرب من الحقيقة.

ومع هذا يبقى من البديهى أن مستوى أى مصرى فى اللغة العربية خير من مستواه فى اللغة الإنجليزية " مثلاً " حتى لو أرضع الإنجليزية وتكلمها كأهلها . . وأحب أن أذكر القارئ بالنكتة القديمة حين ذهب مصرى إلى بلاد الإنجليز وعاد ليقول إن أعجب ما فى رحلته أنه رأى الأطفال هناك يتكلمون " الإنجليزية " بأحسن ما يتكلمه الكبار عندنا . .

ولنقلب النكتة لنقول إن إنجليزيا حضر إلى مصر فقال إن الأطفال فى مصر يتكلمون العربية بما لا يقل عن مستوى أعظم المستشرقين الإنجليز . . أتراني فى حاجة إلى أن أذكر بالحقيقة الثابتة وهى أن لسان الأم هو لسان الأم ولهذا سمى بلسان الأم .

لست فى حاجة إلى أن أدلل على صحة ما أقول بما أثبته علم اللغة الحديث وليس فى كل ما أسلفت ما هو معجز فى التفكير ولكنها نقاط مضيئة تكفل لنا أن نعيد النظر فى هدوء إلى القضية لنتأملها من جوانبها الأعمق :

يحلو لبعض الأطباء الذين يستنكرون مجرد التفكير في تعريب الطب أن يسألوا فى ثقة شديدة : هل تريد للطلاب أن يسموا العضلات بالعضلة الصدرية ، وذات الرءوس الأربعة وهم يقولون لك فى ثقة شديدة إن تسميتها بالاسم الأجنبى مثلا أوقع كثيرا.

وفى الحقيقة فإن هؤلاء يمثلون صورة أخرى من ذلك الرجل الذى ظل سعيدا بأنه يعمل فى سينما سفنكس. . كان سعيدا جدا بوقع الاسم على مستمعيه وهو يقول لهم إنه هو المسئول عن تشغيل ماكينة

السينما فى سينما سفنكس ، وذات مرة قال له ابنه الذى أصبح فى السنة الثانية الإعدادية هل تعرف يا بابا معنى سفنكس ؟ ولم يكن الأب فى الواقع يعرف ، فلما قال له الابن إنها تعنى أبوالهول . . صعب ذلك على الأب وساءه بعد هذا العمر الطويل ألا يكون معنى سفنكس إلا أبوالهول ، فقد كان يريدها كلمة تحمل " سحر الغموض ".

ويبدو أن " سحر الغموض " هذا هو الذى يسيطر على بعض أطبائنا حين يريدون للطب المصرى بنية صادقة شيئاً من الوجاهة العلمية . . من كهنوت العلم ، وكهنوت العلم فى حد ذاته شئ لا بأس به!

كنت ذات مرة أعدد لطلاب البكالوريوس العلامات الطرفية فى مرض ارتجاع الصمام الأورطى ، ومن بينها علامة سميت باسم الشاعر الفرنسى دى موسيه ، وقد كانت والدته طبيبة اكتشفت العلامة وسمتها باسم ابنها الشاعر المريض بارتجاع الأورطى ، كان الطلاب سعداء بهذه المعلومة البسيطة . . ولكن أحد الزملاء حاول إقناعى أن أتجنب مثل هذا السلوك التعليمى لأنه سوف يعطى الطلاب الانطباع (الذى ربما كنت أخاف منه) بأنى أغلب الأدب على الطب حتى ونحن على أسِرَّة المرضى !

إلى هذا الحد بلغ بنا الاقتناع بجماد الطب حتى كأن الله خلق هذه العلامة المرضية مسماة باسم دى موسيه فلا يصح أن نذكر لماذا سميت هكذا ، وضاع منا فى ظل هذا الشعور المخدر الإحساس بأن العلم تطور على مدى مئات السنين وأن هذه المسميات ليست إلا نتاجاً لتطور العلم ، والملاحظة ، والتجربة ، والاكتشاف.

أكثر من هذا فإن طبيباً مسلماً " اسمه بهجت " اكتشف مرضاً فسماه مرض بهجت ، ولكن هذا المرضى فى المراجع الطبية يكتب بالطبع بطريقة أخرى تبعاً للحروف اللاتينية بحيث إذا قرئ فى العربية أصبح اسمه " بخست " ، وللأسف الشديد فإننا نصمم على أن ندرسه على أنه مرض بخست ، وليس الاسم " بخست " وإنما هو بهجت .

ولكن لابد كما قلنا من إيجاد " أو الحفاظ على " ما يسمى بسحر الغموض . وبالتالى فلو اكتشف طبيب لقبه (محمد) مرضاً وسمى باسمه فسننقله أيضاً إلى طلابنا تحت اسم" مرض " موهامد " لأن هذا هو الطريق الكفيل بتقدم العلم وعدم تخلفنا عن الركب !

ولعلنا قد ووجهنا بهذه الحقيقة المرة أخيراً حين اكتشفنا بعد سنوات أن الاسم الحقيقى لرئيس وزراء ماليزيا هو " محاضر محمد " وليس مهاتير " التى هى النطق الأجنبى للاسم المسلم ، وكنا ننقله عن اللغة المترجمة بدلاً من أن ننقله عن اللغة الأصلية التى هى لغتنا !

أطرف من هذا كله ذلك " التعالم " الذى لم تكتمل أركانه والذى نسمعه من بعض الذين يقولون لنا إن هذه المصطلحات الطبية ليست إنجليزية ولا فرنسية وإنما هى لاتينية .

وفى الحقيقة فإن كثيراً من هذه المصطلحات اللاتينية التى يحكون لنا عنها ليست إلا مصطلحات عربية الأصل وأصابها التطوير الصوتى ، وهى تدخل القاموس اللاتينى، وسأضرب مثلاً بكلمة واحدة ليس فى وسع أحد أن يزعم أنها خلقت هكذا من أيام أبوقراط ، أو أن يشتقها من أى فعل لاتينى (وإن كانت التجربة قد علمتنا أن لا نستبعد وجود من يفعل ذلك).

إنما القصة فى بساطة شديدة أن الأطباء العرب وجدوا نوعاً من العمى لا يمكن إرجاع سببه إلى إصابة فى العين نفسها ، إنما هو يحدث بسبب عصبى غير ظاهر لنا " كما نقول الآن " سبب يكون فى الدماغ (الرأس) ولهذا سمى العلماء العرب هذا النوع من العمى . . "عمى الرأس " فلما نقلت التسمية إلى اللاتينية أخذوها كما هى وحرفت فى لغتهم إل " أمايروسس " ، هل إذا سمينا هذا المرض باسمه العربى وفهمه الطالب فى ثلاث ثوان نكون مخطئين فى حق التقدم العلمى لأننا لم نضيع من الطالب ساعة فى فهم ما لا يكون فهمه إلا بتفسير ملتو شديد التعقيد !

يقول بعض الذين يتخوفون من تعريب الطب إن نتيجة التعريب ستكون فى صورة خريجين لا يعرفون الإنجليزية شأن خريجى الهندسة والتجارة والآداب . . على حين أن خريج الطب هو الوحيد اليوم (فى مصر) الذى يعرف الإنجليزية لأنه درس بها طيلة سبع سنوات . . كلام له بريق يرجع إلى التمشى مع عقيدة تفوق كلية الطب على غيرها من الكليات بلا استثناء . . " وهى بلا شك عقيدة من عقائدنا الفاسدة " التى ما زال مجتمعنا يدفع ثمنها !

يبدو أن المأساة تكمن فى اعتقادنا بمعرفة الخريج الإنجليزية على هذا النحو الذى نعرفه جميعاً ، مع أن الفارق بين هاتيك " الرواسب اللغوية " التى تتكون من جراء دراسة الطب باللغة الإنجليزية وبين اللغة نفسها هو كالفارق بين رواسب البحيرات من ناحية ، وبين المحيطات من ناحية أخرى ، بين الأملاح المتبقية التى فيها تركيز عال من مواد بعينها من ناحية ، وبين التدفق الذى لا حدود

له من ناحية أخرى ، بين السكوت التام من ناحية أخرى ، والحركة التى لا تهدأ ، بين القطعة من الحياة وبين قطعة من الأثريات أو الحفريات التى تدل على الحياة ، واسألوا أى طبيب عن هذه اللغة التى يزعمون أنه يعرفها نتيجة دراسته الطب فى الكلية بالإنجليزية وسوف تكون هناك إجابات مختلفة تبين لنا أسباباً متعددة ، أخذ بها من تعلموا الإنجليزية كلغة من بين الأطباء اللهم إلا السبب الوحيد المزعوم وهو أنهم درسوا الطب باللغة الإنجليزية !

لعل هذا يذكرنى بقصة قائد سيارة كان يحب سماع الأغانى ، ولم تكن تتاح له فرصة هذا السماع كما ينبغى إلا حين يقود سيارته على الطرق السريعة . وجاءته ذات يوم من الأيام فرصة شراء سيارة أخرى أعظم شأناً من سيارته ، فإذا به يتردد فى آخر لحظة لأن السيارة الجديدة كانت تفتقد جهاز التسجيل ! وعبثاً حاول زملاؤه إقناعه بأن هذا الأمر يمكن تداركه بمائة جنيه فقط يشترى بها جهاز تسجيل جديداً.

وللأسف الشديد فإن الصورة عندنا مشابهة إلى حد كبير ، فنحن لا نحتاج إلى الإبقاء على السيارة القديمة وإنما نحتاج جهاز التسجيل . . نحتاج أن نقرر دراسة اللغة الإنجليزية " واللغة العربية كذلك كما سيأتى " فى كليات الطب حتى ولو استمر تعليم الطب باللغة الإنجليزية.

ذلك أن مستوى خريجى الكلية فى اللغة الإنجليزية " التى سوف يحتاجونها للرجوع إلى المراجع كما يقول معارضو التعريب " يحتاج دفعة لن تتحقق إلا بتقرير دراسة اللغة كلغة فى كلياتنا الجامعية . .

وللأسف الشديد نحن نفعل هذا فى مرحلة متأخرة فـــى مرحلـــة الدراسات العليا ، وفى الغالب فيما بعد الماجستير ، وفيما بعد الدكتوراه حين يكون لزاماً علينا التقدم لامتحان التويفل TOEFL إذا ما أردنـــا أن نطأ بأقدامنا أعتاب الولايات المتحدة ، التى لم تخدع نفسها بتصديق أننـا درسنا الطب باللغة الإنجليزية ! بينما نحن نصر على خداع أنفسنا.

ولست أشك فى أن اللغتين العربية والإنجليزية لابد أن تحظيـــا بنصيب معروف من ساعات الدراسة الجامعية فى كليات الطب ، فلابـد أن يدرك الطالب كيف يصوغ لغة عربية سليمة تؤهله للتعامل بســـلامة مع المجتمع الذى يعيش فيه ، ويتعامل مع أفراده .

إن الفارق بين خريج الطب وخريجـــى الكليـــات الأخـــرى أن الطبيب يعتمد كثيراً جداً على تحليل المضمون فى ممارسته لمهنتــــه ، وتحليل المضمون يقتضى فهماً تاماً باللغة حين تقال وحين تكتـب ، وإذا كان تعامل الطبيب سيتراوح ما بيـــن المراجـــع والمجـــلات المكتوبـــة بالإنجليزية وبين المرضى الذين يتكلمون العربية ولهجاتها العامية فلابد له أن يحيط إحاطة تامة بإحدى وسائل أدائه لمهنته وهى اللغة.

نعرف أن اللغة لازمة للعالم فى معمله ، ولكنـــها ألـــزم كثـــيراً للأطباء فى عياداتهم، وتدريس اللغة فى كليات الطب ليس بدعة وليـــس صعباً ، إنما هى مهمة سهلة جداً مع شئ من التنظيم ، وفـــــى الكـــادر الجامعى درجات لمدرسى اللغة يشغلها عدد كبير جـــداً مـــن الأســـاتذة المخضرمين.

وقد انتبه المشرع للتعليم الجامعى إلى مدى الاحتياج إليهم فـــى التعليم الجامعى منذ مرحلة مبكرة ، ولكن المشكلة أننا كنا نـــأخذ هـــذه

الأمور بصورية شديد فنكتفى من دراسة اللغة بساعات محدودة فى سنة واحدة أى بالقدر الذى يشوه الفكرة ليس إلا .

بقيت نقطة هامة تتعلق بالقلق الذى يبديه بعضنا تجـــاه قصـــور إمكاناتنا (لأننا تعودنا الكسل) فى المستقبل القريب عن تـــأليف وطبـــع ونشر المراجع التى سوف نحتاجها لمواكبة تعريب الطب . ولا أحب أن أعدد للقارئ المراجع المتوفرة ولا أن أحدثـــه عـــن خطـــط ناجحـــة ، وإمكانات موجودة بالفعل.

ولكنى أؤثر أن أحدثه بمرارة عن أننا كنا ولا زلنا مســـتهلكين ، وعن أن هناك منتجين يعدون لنا ما نريد طبقاً لتقاليدنا ولقوانيننا دون أن يضيرهم هذا الالتزام بتقاليدنا وقوانيننا ، ولا أريد أن أذكره بأن الصيـــن تنتج لنا سجادات الصلاة وأن اليابان تنتج لنا ساعات الآذان .. ولكنـــى سأذكر له أن دار نشر أمريكية طبعت فـــى برنامجـــها العربـــى (٥٥) مرجعاً باللغة العربية فى عام واحد لكلية واحدة حين وجـــدت أن هـــذه الكليات تدرس المنهج بالعربية ، وليس بالإنجليزية !

فليطمئن الذين يتخوفون من نقص المراجع . . كـــأن المراجـــع لا تكتب إلا بأيديهم التى لم تتعود إلا على الكتابة بالإنجليزية . . وهـــو وهم ما بعده وهم .

نحو خطة إعلامية
لمواجهة تشويه صورة العرب
على شبكة الإنترنت

أ.د. عــدلـــى رضـــا *

مقدمة حول شبكة الإنترنت وأساليب دراستها:

أصبحت شبكة الإنترنت ظاهرة واســـعة الانتشـــار ، ووســـيلة اتصال وإعلام جديدة ومؤثرة تربط سكان العـــالم بعضـــهم ببعـــض ، وتتميز هذه الشبكة بالسرعة الفائقة والضخامة المتناهية ، وتعـــم كــل جوانب حياتنا ، وتوسع من قدراتنا على التفكـــير ، وضغــط مقـــاييس الزمن، وتغيير الطريقة التى نفكر بها ، والطريقة التى نتحادث بها مـــع الآخرين ، بل وما نقوله لهم ، وهو ما جعـــل صـــانعى هـــذه الشـــبكة

---

* الأستاذ بكلية الإعلام ، جامعة القاهرة ، والمستشار الإعلامى لوزير التعليم العالى.

ومطوريها يقودون النظام العالمى الجديد ، ويصوغون ثقافته ، ويوجهون سياساته ، ويتحكمون فى اقتصادياته ، مما يثير العديد من التساؤلات حول طبيعة تأثيرات شبكة الإنترنت أو الطريق السريع للمعلومات ، على الأفراد والمجتمعات ، بل وعلى وسائل الإعلام التقليدية ذاتها ومناهج دراستها وطرق تحليلها ، فالتأثيرات الإنسانية والاجتماعية أكثر أهمية من الوسيلة فى حد ذاتها .

وحتى وقت قريب تم تجاهل دراسة الإنترنت كوسيلة اتصال وإعلام ، والتركيز على وسائل الإعلام التقليدية ، فى الوقت الذى يفتح فيه الاهتمام بدراسة هذه الوسيلة الجديدة آفاقاً رحبة أمام الدراسات الإعلامية ، حيث تطرح عدة رؤى جديدة تقع فى لب المحاور الأساسية لدراسة الاتصال والإعلام وتتحدى بها النظريات الاتصالية التقليدية ، والمفاهيم التقليدية لعملية الاتصال وأطرافها " المصدر – الرسالة – المستقبل " ، كما تبرز أشكال متميزة من التفاعل والاتصال الشخصى ووسائل الإعلام الجماهيرية ، مما يجعل التصنيف التقليدى للاتصال المباشر والجماهيرى غير محدد المعالم وغير مناسب للاحتياجات الاتصالية الجديدة ، إذ تمثل الإنترنت أعلى مراحل الدمج بين وسائل الاتصال التقليدية والحديثة معاً . كما تطرح شبكة الإنترنت أو الطريق السريع للمعلومات Super Highway مداخل جديدة فى مجالات فاعلية الجمهور والتكنولوجيا ، وطبيعة المضمون ورجع الصدى ، فهى بصفة عامة سوف تجبر باحثى الاتصال والإعلام على إعادة التنظير والتأصيل لكثير من المفاهيم والنظريات الاتصالية والإعلامية السائدة.

ويمكن دراسة الإنترنت من خلال أسلوبين : الأول يركز على دراسة الإنترنت كوسيلة إعلامية واتصالية ، والثانى يركز على دراستها من زاوية البحوث التى تعنى بالاتصال عبر الكمبيوتر Computer-Mediated Communication والفارق بين المجالين هو أن الأول يعنى بالتأصيل والتنظير للإنترنت من خلال توصيف أشكالها الاتصالية، بينما يركز المجال الثانى على الكمبيوتر كوسيلة تكنولوجية قائمة بذاتها.

وعلى مدار السنوات القليلة الماضية ، استخدم الباحثون عدة مداخل لدراسة الاتصال الإنسانى عبر الكمبيوتر وأنظمة الاتصال عبر الشبكات ، وصاغوا لذلك عدة إطارات Fromeworks لتحديد وحدات التحليل Units of Analysis الملائمة لدراسة هذا المجال ، فدرس بعض الباحثين العلاقة بين خصائص وسائل الإعلام وخصائص الأفراد الذين يستخدمونها ، وعنى باحثون آخرون بدراسة المقومات الإنسانية لعمليات الاتصال التى تتم عبر الكمبيوتر ، وقاموا بتحليل العوامل النفسية والاجتماعية ، وأيضاً العوامل المتعلقة بالسياق المجتمعى الذى تتم فيه هذه العمليات الاتصالية . . واهتم باحثون آخرون بدراسة طرق نشر وتبنى وسائل الإعلام ذات الطبيعة التفاعلية Interactivity وركزوا على العوامل التى تسهم فى زيادة وتبنى تكنولوجيا وسائل الإعلام ، وطرحوا عدة نماذج تبين كيفية استخدام التكنولوجيا فى تنمية وتطوير المجتمع، كما عنى باحثون آخرون بتوصيف التغيرات الفردية والاجتماعية التى تحدثها الوسائل التكنولوجية الجديدة.

وفى مجال دراسة وسائل الاتصال المباشر أو على الخط On Line Communication ركز البعض على تحليل طبيعة اللغة المستخدمة ونوعية الخطاب الذى تطرحه هذه الوسيلة ، كما عنوا بفحص المحتوى الذى يبث على الخط أو الاتصال المباشر ، واستخدموا عدة مداخل لتحديد وحدات التحليل . وقد توصل الباحثون فى هذه المجالات إلى عدة نتائج هامة تتعلق ببناء الاتصال ومحتواه وطبيعة عملية الاتصال عبر الكمبيوتر ، وهى نتائج تساعد فى تفسير دور وتأثير تكنولوجيا الاتصال الحديثة فى عمليات التعلم .

وقد تعددت فئات ومجالات هذه الدراسات ما بين دراسة عمليات الاتصال من كمبيوتر إلى كمبيوتر ، والبريد الإلكترونى ، والجماعات الإخبارية News Groups ، وقوائم المناقشة Discussion Lists ، والشركات التجارية والخاصة العاملة فى مجال الخدمات On Line Services.

وقد حرصت الدراسات التى تمت فى مجال دراسة الاتصال عبر الكمبيوتر على طرح عدة سياقات أو إطارات تضبط طرق تحديد وحدات التحليل المستخدمة ، إذ بينما لا يعنى الباحثون فى وسائل الإعلام كثيراً بتعريف معنى وسيلة الإعلام ذاتها ، فإن التنوع فى أنظمة الاتصال عبر الإنترنت وتطبيقاتها دعت إلى التركيز فى وحدات التحليل المستخدمة لدراسة الاتصال عبر الإنترنت ، حيث لا يمكن النظر إلى الإنترنت كوسيلة مفردة ، فهى تتكون من عدد متنوع من وسائل الإعلام مجتمعة .

وعلى الرغم من توافر بعض الدراسات التى تناولت التــأثيرات الناجمة عن استخدام تكنولوجيا الاتصال الحديثة ، إلا أن هذه الدراسـات ما زالت تواجه عدة صعوبات فى تحديد هذه الوحدات ، أو تكوين إطار نظرى متكامل يساعد فى تفسير هذه الظواهــر الاتصاليــة الجديــدة ، أو طرح نماذج محددة تفسر طبيعة استخدام هــذه الوســائل وتبينــها ، وطبيعة عملية الاتصال عبر الكمبيوتر.

وبالإضافة إلى نقص التكامل النظرى والمعرفى الذى تعانى منه هذه الدراسات فإن التغيرات الهائلة والمتسارعة التى تحدث فى شــبكة الإنترنت منذ عام ١٩٦٩ وحتى عام ٢٠٠٠ تقدم أشكالا متنوعــة مــن عمليات الاتصال ، والتى لا تقتصر فقــط علــى الــبريد الإلكــترونى E-Mail أو جماعات النقاش Group Deiscussion أو مجــرد نشــر المعلومات والتحاور حولها ، بل توفر أدوات عديدة ووسائل لاســترجاع المعلومات Retrievel والاتصـــال Communication ، والتفــاعل Interaction مما يجعل مسألة التنظير لشبكة الإنترنت كوسيلة اتصالية وإعلامية جديدة ومتفردة تحتاج إلى جهد بالغ لاستكشافها والتأصيل لها.

لقد أفرزت هذه الثورة الاتصالية ، ظاهرة العولمة أو الكونيــة Globalization ، وتخطى الحدود الوطنيــة ، أو الســيادة القوميــة ، وهددت هويات العديد من المجتمعات لصالح اكتســاح ثقافــة وتقــاليد المجتمعات الغربية ، كما أدت إلى اختزال المســافات وســاعدت فــى تحرير الإنسان من قيود حجمه وإيقاع زمنه بشكل يجعله قــادرا علــى التفاعل مع إيقاعات زمنية تختلف نوعيا عن إيقاعه البيولوجى.

الإعلام العربى وتحديات ثورة الاتصالات والمعلومات :

يعيش العالم اليوم عصر الثورة التكنولوجية الثالثة ، والتى تعتمد أساساً على العقل البشرى ، والإلكترونيات الدقيقة ، والهندسة الحيوية ، والكمبيوتر والذكاء الصناعى وتوليد المعلومات ، وأدى ذلك لسرعة التغير الاجتماعى وزيادة تأثيره وعالميته ، وهو أمر انعكس سلباً على عمق الفجوة بين التقدم والتخلف فى العالم ، وزاد من حدّة مشكلة الفقر. وفى نفس الوقت فتح الباب على مصراعيه للبث الإعلامى الذى يتخطى الحدود الجغرافية والثقافية ، وزاد من مشكلة التخلف التقنى فى العالم الثالث لا على المستوى الاقتصادى فحسب ، بل على المستوى المعلوماتى وتبادل المعرفة ، الأمر الذى ترك الكثير من الأجهزة العلمية والثقافية فى تلك الدول أمام مأزق كبير ومعادلة صعبة الحل. ويدخل العالم والمنطقة إلى القرن الحادى والعشرين بصورة لم تحدث من قبل. فهذا الألف الثالث يقبل وهو مشحون بتغييرات مذهلة لم يشهد تاريخ الإنسان لها مثيلاً من قبل.

ويواجه العالم العربى مجموعة من التحديات يمكن أن تشكل تهديداً للذاتية الثقافية العربية ، وما لم يتم مواجهتها بعمل مشترك يهدف إلى خلق كيان إعلامى عربى مؤثر وفعال ، ويستمد مقوماته من قيمه وتراثه وينفتح على العالم أخذاً وعطاء ، فقد يصبح من الصعب – إن لم

يكن من المستحيل – أن يواكب عصره بمعطياته ومستجداته ويبقى متخلفاً عن ركب التطور وملاحقة كل جديد.

وتشهد الساحة الإعلامية تطوراً علمياً وتكنولوجياً كبيراً فى شتى وسائل الاتصال مما جعل العالم قرية إلكترونية صغيرة خاصة بعد انتشار تكنولوجيا الأقمار الصناعية وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ولقد ساعد وجود هذه الوسائل الحديثة على تخطى حواجز الزمان والمكان ، وبث ثقافات مختلفة عبر القنوات الفضائية وشبكة الإنترنت بكل ما تحمله من أفكار وقيم وسهولة استقبالها من كافة الشعوب ، ومنها الشعوب العربية.

وقد صاحب هذا التطور التكنولوجى فى مجال الاتصال متغيرات دولية ساهمت فى إعادة تشكيل العالم ، مع ظهور كيانات سياسية واقتصادية قطعت أشواطاً فى مجالات التعاون المختلفة ، وفتحت الحدود أمام السلع والمنتجات بما فيها المنتج الثقافى والإعلامى. ولما كان العالم العربى لا يستطيع أن يقف بمعزل عن تلك التطورات ، فقد أصبح لزاماً عليه أن يأخذ بالمبادئ التى ترسم أطرها الاتفاقات والمعاهدات الدولية مراعياً فى ذلك تحقيق المشاركة والتفاعل مع الأسرة الدولية بما يحقق مصالحه وقضاياه دون أن يفقد هويته العربية وذاتيته الثقافية التى يتميز بها .

وفى مواجهة هذه التحديات تبرز أهمية العمل العربى المشترك فى مجال الإعلام، وذلك للقيام بدور فعال فى خدمة قضاياه ، حتى يعكس رؤية عربية موحدة إزاء ما يجرى على الساحة الدولية من

متغيرات ، علاوة على نشر الرسالة الإعلامية ذات المضمون الهادف والقادر على جذب الجماهير العربية من خلال إنتاج متميز يضمن له القدرة على المنافسة ، والوقوف أمام البث الوافد لطرحه للبديل العربى الذى يحافظ على الأصالة مع الانفتاح على العالم . ويضاف إلى ذلك ضرورة قيام الإعلام العربى بالتصدى لتشويه صورته من خلال القنوات الفضائية ووسائل الإعلام الغربية ، وكذلك عبر شبكة الإنترنت. ومن الملاحظ من خلال دراسة واقع الرسائل الإعلامية فى وسائل الإعلام الغربية ، وعبر الإنترنت أن هناك حملة شرسة موجهة ضد الكيان العربى وقيمه وعاداته وتقاليده وثقافته بوجه عام ، مما يدفعنا إلى ضرورة الدعوة إلى تكاتف الجهود العربية لمواجهة هذه الحملات وتصحيح الصورة الخاصة بالواقع العربى وثقافته سواء من خلال أجهزة الإعلام العربية أو عبر شبكة الإنترنت نفسها .

تشويه صورة العرب على شبكة الإنترنت :

على الرغم من الفوائد المعلوماتية والبحثية التى توفرها شبكة الإنترنت لجميع من يتعاملون معها ، إلا أنه على الجانب الآخر يظهر الجانب السلبى لهذه المشكلة ، من خلال استخدامها فى تقديم معلومات أو صور مشوهة من جانب بعض الدول أو الهيئات أو الأفراد عن الشعوب والدول الأخرى ، مما يجعل الإنترنت وسيلة اتصالية خطيرة فى تزييف الواقع الخاص بشعب من الشعوب فى العالم . . والمتابع لما يتم بثه من خلال هذه الشبكة يلحظ تشويهاً متعمداً لكثير من الدول والشعوب والثقافات والأديان والتاريخ ، مما يؤدى إلى نقل معلومات مضللة أو مشوهة إلى الجماهير التى تتعامل مع هذه الشبكة . ولعل ما

يهمنا فى هذا الأمر ما تقوم به بعض الدول والجهات المشبوهة من تشويه لصورة الإنسان العربى وثقافته وعاداته وتقاليده من خلال الإنترنت مما يساعد على تكوين صورة ذهنية مشوهة وغير صادقة عن العرب لدى مواطنى الشعوب الأخرى فى العالم . ولقد أصبح المواطن العربى وثقافته مستهدفاً من وسائل الإعلام الغربية من ناحية ، ومن بعض الدول والجهات المشبوهة من خلال شبكة الإنترنت من ناحية أخرى . وهنا لابد من وقفة نؤكد فيها على ضرورة تكاتف الجهود العربية – وخاصة الإعلامية منها – لمواجهة هذا التشويه المتعمد للإنسان العربى وثقافته على شبكة الإنترنت.

إننا لابد أن نؤكد على اعتزازنا بثقافتنا وقيمنا وعاداتنا العربية فى إطار اعتزازنا بذاتيتنا الثقافية ، وإن كنا لا نعتبر تأكيد الذاتية الثقافية ضرباً من الانطواء على النفس ، أو صورة من صور التعصب القومى، بل هو على العكس يعنى الرغبة فى الإسهام والمشاركة ، وهو يعطى التعاون الثقافى الدولى مضموناً حقيقياً . فليس التفاهم بين الشعوب مجرد أمنية ، كما أنه لا يقوم على تسلط شكل واحد من أشكال الثقافة ، بل يتجسد ويتدعم عن طريق المساهمات الأصيلة لمختلف الشعوب بتقاليدها الثقافية وتراثها التاريخى وقيمها الإنسانية وأشكالها الأصيلة فى التعبير الفنى . . إن تأكيد الذاتية الثقافية لكل شعب من الشعوب ينبغى أن يقوم على أساس التنوع الثقافى ، والتحاور ما بين الثقافات والحضارات واحترام ذلك على أساس من المساواة فى الحق والكرامة باعتباره عاملا من عوامل السلام والتفاهم بين الشعوب.

وفى إطار دفاعنا عن ذاتيتنا ينبغى أن نؤكد على ضرورة مشاركتنا فى تقديم الصورة الصحيحة للعرب وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم للشعوب الأخرى ، وذلك من خلال إنتاج إعلامى متميز يقدم عبر وسائل الإعلام المصرية الموجهة بلغات أجنبية ، وكذلك عبر شبكة الإنترنت . . ومن ناحية أخرى لابد من إنتاج إعلامى عربى لمواجهة الحملات الشرسة التى تشوه صورة العرب فى وسائل الإعلام الغربية وعبر الإنترنت.

وعلى هذا الأساس فإننى أدعو هنا إلى أهمية ، بل وضرورة دراسة محتوى الرسالة الإعلامية المقدمة عن صورة العرب من خلال شبكة الإنترنت ، وذلك فى إطار دراسة الشبكة كوسيلة إعلامية واتصالية جديدة . والهدف من ذلك هو تسليط الأضواء على الواقع الخاص بتشويه صورة العرب على شبكة الإنترنت والآليات التى ينبغى أن تقوم بها الخطة الإعلامية العربية لمواجهة هذا التشويه الذى تبثه الشبكة عن المواطن العربى وثقافته ودينه وقيمه وعاداته وتقاليده .

عناصر الخطة الإعلامية العربية المقترحة :

تنطلق هذه الخطة من ضرورة الاستفادة من الطاقات الإعلامية والثقافية المتوافرة فى العالم العربى ، بما يساعد على تحقيق الاستفادة من هذه الطاقات وبما يخدم تقديم صورة حقيقية وموضوعية عن الإنسان العربى وثقافته وقيمه وعاداته وتقاليده على الشبكة الدولية للمعلومات " الإنترنت " .

وفيما يلى عرض لآليات ، يمكن تنفيذها من خلال هذه الخطة الإعلامية:

١- ضرورة إنشاء جهاز إعلامى عربى للبحوث يتولى رصد وتحليل واقع ما يقدم عن العرب فى وسائل الإعلام الغربية ، وفى الإنترنت، وإعداد الدراسات العلمية والحقائق التى يعتمد عليها فى الرد على ما يقدم من صورة مشوهة أو إساءة تتعلق بالعرب وثقافتهم ودينهم .

٢- ضرورة إنشاء جهاز عربى للإنتاج الإعلامى يتولى إنتاج برامج وأفلام وتقارير إخبارية وغيرها تتناول الصورة الحقيقية للمواطن العربى وثقافته وعاداته وقيمه ونقلها للشعوب الأخرى من خلال شبكة الإنترنت.

٣- إنشاء شبكة عربية للمعلومات ، يتم من خلالها نقل المعارف والمعلومات فى مختلف المجالات عن الوطن العربى بكافة أقطاره، بما يساعد على تبادل المعلومات بين أبناء الوطن العربى ، وسرعة تدفق هذه المعلومات بينهم.

٤- الاهتمام بنشر الصورة الصحيحة عن الإسلام ومبادئه على شبكة الإنترنت ، حتى يتم تصحيح الصورة المشوهة أو الإساءات التى يروجها أعداء الإسلام من بعض الدول أو الجهات المشبوهة أو الأفراد . . ويستلزم الأمر هنا إنتاج برامج إذاعية وتليفزيونية تتناول شرح وتحليل صورة الإسلام الحقيقية ، والرد على دعاوى وأكاذيب من يشوهون صورة العرب والمسلمين عبر الإنترنت.

٥- الاستفادة من تكنولوجيا الاتصال الحديثة في مجال الأقمار الصناعية بإنشاء قنوات فضائية عربية باللغات الأجنبية يتم من خلالها شرح التاريخ العربى والعادات والتقاليد والحضارة والثقافة العربية لمواطنى الدول الغربية.

٦- الاهتمام بالارتفاع بمستوى الإنتاج العربى في مجال البرامج الإذاعية والتليفزيونية، وزيادة مشاركة الجماهير العربية فى صنع الرسالة الإعلامية فى إطار دعم ديمقراطية الاتصال بين وسائل الإعلام العربية ومواطنيها ، بما يساعد فى زيادة ارتباط المواطن العربى بوسائل إعلامه القومية .

٧- الاهتمام بضرورة دعم البرامج التدريسية والإعلامية الموجهة للمواطن الفلسطينى فى الوطن المحتل ، بما يدعم ارتباطه بثقافته العربية وقيمه وعاداته وتقاليده فى مواجهة ما تقوم به إسرائيل من طمس وتشويه للهوية والثقافة العربية .

٨- تنظيم مجموعة من ورش العمل الإعلامية حول تأثير تكنولوجيا الاتصال الحديثة واستخداماتها فى المجالات التعليمية والبحثية ، ويشارك فى هذه الورش الإعلاميون العرب الذين يقومون بتصحيح صورة العرب على شبكة الإنترنت.

٩- المطالبة بضرورة وضع ميثاق شرف دولى حول أخلاقيات التعامل مع شبكة الإنترنت.

أهم المراجع :

أ- المراجع العربية :

١- سامى طايع ، استخدام شبكة المعلومات " الإنترنت " فى الحملات الإعلامية ، المجلة المصرية لبحوث الإعلام . جامعة القاهرة - كلية الإعلام - العدد الثانى إبريل - يونيه ١٩٩٧.

٢- شاهيناز بسيونى ، علاقة الجمهور المصرى بالحاسبات الشخصية لوسائل اتصال منافسة لوسائل الاتصال الجماهيرى . جامعة الزقازيق ، مجلة كلية الآداب ، أكتوبر ١٩٩٦.

٣- محمود علم الدين ، تكنولوجيا الاتصال فى التسعينات - التطورات الراهنة والتأثيرات الاتصالية ، مجلة البحوث الإعلامية . جامعة الأزهر - يوليو ١٩٩٤.

ب- المراجع الأجنبية :

1- Bromley, R.V and Boweus D, Impact of Internet on use of Traditional news Media, Newspaper Research Journal, Spring 1995.

2- December, John (1996) units of Analysis for Internet Communication, Journal of communication.

3- John, S (1995) Cyber society: Computer- Mediated Communication and Society, Thous and Oaks, CA : Sage Publications.

4- Kent, Peter, The Complete Idiot's Guide to the Internet, Indianapolis Ind : Alpa Books, 1994.

5- Krol. Ed. The Whole Internet, Sebastopol, Colif: O: Reilly and Ass, 1994.

6- Walter, J.B (1992), Interpersonal Effects in Computer- Mediated Interaction, Communication Research.

7- Williams, F, Rice, R, E and Rogers, E (1986) Research Methods and the New Media, New York: Free Press.



العولمة ومستقبل المجتمع والدولة
فى " الشرق الأوسط "

أ.د. على ليله *

أولاً : العولمة : طبيعتها وخصائصها :

يتطلب تحليل التفاعلات التى تخضع لها مجتمعات الشرق الأوسط عامة، وبخاصة المجتمعات العربية كنظام متجانس ضمن النظام الشرق أوسطى ، الذى يجرى الترويج له ، فى ظل أيديولوجية العولمة التى توجه أفعالاً وممارسات عديدة لإعادة صياغة عالمنا وفق منطق محدد ، أن نرجع إلى بداية عقد التسعينات ، حيث الفترة التاريخية التى شهدت انهيار نظام عالمى قديم كذلك ، الأمر الذى أطلق عقال تساؤلات كثيرة حول طبيعة النظام العالمى الجديد : هل هو نظام عالمى أحادى القطب ، تنفرد بالسيطرة عليه دولة واحدة قوية ، تتربع على عرشه ، وتنظم التفاعل بين وحداته ، أم نظام عالمى متعدد القوى والأقطاب ؟ هل هو نظام عالمى سوف تكون حركة مجتمعات العالم الثالث محدودة فى إطاره كما فى التعدد الأول ، أم أن هناك مساحة من حرية الحركة أمام دول هذا العالم فى حالة عالم تضبط إيقاعه قوى متعددة ؟ ويمكن القول بأن هذه التأملات التى حاولت تحليل التحولات العالمية قد سقطت فى خطأين ، الأول أنها ناقشت التفاعلات والتحولات العالمية استناداً إلى خلفية سياسية بينما التحولات الحقيقية

* أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة عين شمس.

التى تقع على أرض الواقع وتعمل على إعـــادة تشــكيله كـــانت ذات طبيعـــة اقتصاديـــة بالأساس.

بينما تمثل الخطأ الثانى فى النظر إلى القوى العالمية المتعددة ، وكأنما هى تقــف على خط واحد من حيث النوع والدرجة ، الأمر الذى برر الحديث عن تعدد القوى ، بينما يشهد واقع الأمر اختلافاً بين القوى العالمية من حيث النوع والدرجة والعمق كذلك . وفــى هذا الإطار نقصد بالعمق امتلاك الدولة أو المجتمع لأشكال متنوعة من القوى ، وبدرجـــة عالية فى نفس الوقت ، وهي الحالة التى توفرت للولايات المتحدة الأمريكية بامتياز .

تأكيداً لذلك فإن تأمل حالة أو ظاهرة العولمة التى تحدث فــى نظامنـــا العـــالمى المعاصر يكشف عن كونها تشكل أيديولوجيا توجه مجموعة من السياسات والممارســـات التى تستهدف إعادة صياغة العالم أو إعادة تشكيله وفق نماذج القوة الأساسية الأبرز فـــى هذا العالم ، ولصالح هذه القوة كذلك . فإذا تأملنا حالة النظام العالمى الجديـــد الـــذى بـــدأ يتشكل بالفعل ، فسوف نجد أنه يتميز بمجموعة من الخصائص الرئيســـية التـــى تعكـــس نموذج المجتمع الأقوى فى العالم . وتتمثل الخاصية الأولى فى الدعوة إلى التسامح الثقافى فى مواجهة المركزية الأوربية التى كانت تميز التوجه الأوربى نحو العالم . ومن المنطقى أن تتسق هذه الدعوة إلى التسامح الثقافى مع التعددية الثقافية ، وهى إحدى المظاهر التـــى تميز الثقافة الأمريكية . وتتمثل الخاصية الثانية المميزة للنظام العالمى الجديد فى التـــأكيد على النسبية الثقافية وسقوط الإطلاق الأيديولوجى ، وإن كان ذلك يمـــهد بدرجـــة أكـــثر لانتصار نسبية ثقافية على أخرى لامتلاكها آليات الانتصـــــار ، وإمكانيـــة تحولـــها إلـــى أيديولوجيا لها صفة الإطلاق ، وهى بطبيعة الحال الليبرالية الأمريكية . وتتصل الخاصيـــة الثالثة بإطلاق طاقات الإنسان الخلاقة فى إطار من السياقات الديموقراطيـــة ، وهـــو مـــا يعكس فى طبيعة حاله النموذج الأمريكى كذلك. وتأكد الخاصية الرابعة علـــى الاهتمـــام بإحياء المجتمعات المحلية بثقافتها وتنظيماتها الاجتماعية فى مواجهة مركزية الدولة التـــى تسعى من خلال اتجاه مضاد إلى تأسيس تجانس يضعف هوية المحليات ، إضافـــة إلـــى خاصة خامسة تتمثل فى إحياء المجتمع المدنى بتنظيماته ومؤسساته المختلفة كـــى يلعـــب دوراً محورياً فى عملية التطور الاجتماعى فى مواجهة الدور الذى كانت تقوم به الدولـــة فى النظام العالمى القديم . هذا إلى جانب التأكيد على خاصية سادسة وأخيرة تدور حـــول

تأكيد التوازن بين القيم المادية والروحانية [1] على مستوى العالم ، وفى داخل كل مجتمع من مجتمعاته بعد أن كان النظام العالمى مقسماً إلى مجتمعات تؤكد على القيم الروحية والمعنوية وأخرى تعطى الأولوية للقيم المادية، وبعد أن برز تأكيد خلال النظام الجديد بأن ازدهار القيم المادية يمكن أن يسلم إلى الانهيار .

فإذا تأملنا مجموعة الخصائص السابقة فسوف نجد أنها تعكس بنسبة غالبة منها خصائص النموذج الأمريكى إلى جانب الخصائص المميزة لبنائه. هناك الخصائص التى يسعى إلى تحقيقها سواء فى نظام السياحة المحلى الأمريكى أو على الصعيد العالمى كالسعى لخلق حالة من التسامح الثقافى أو التأكيد على توازن القيم المادية والروحية وهو ما يشير إلى أن التأكيد على أهمية أن يتميز النظام العالمى الجديد بهذه الخصائص.

ذلك ينقلنا إلى محاولة تحديد ما هى العولمة ؟ فى تحديدنا اللغوى تشير العولمة إلى تقييم الشئ وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله [2] بينما يوجد تحديد آخر للعولمة يشير إلى أنها عملية مستمرة وواقعية وليست مفهوماً مجرداً ، ويمكن ملاحظتها من خلال مؤشرات كيفية وكمية فى مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة والاتصال [3] وبذلك تؤكد العولمة على مجموعة من العمليات التى تغطى أغلب الكون وتشيع على مستوى العالم ، ومن هنا فالعولمة لها بعد مكانى ، غير أنها تحتوى كذلك على بعد زمانى ، حينما تتضمن تعميقاً فى مستويات التفاعل والاعتماد المتبادل بين الدولة والمجتمعات التى تشكل النظام العالمى .

بالإضافة إلى ذلك هناك من يحدد العولمة بأنها وصول نمط الإنتاج الرأس مالى عند منتصف هذا القرن تقريباً ، إلى نقطة الانتقال من دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول ، إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها . أى أن ظاهرة العولمة التى تشيدها هى بداية عولمة الإنتاج والرأس مالى الإنتاج ومقوى الإنتاج الرأسمالية

---

[1] Crooks Other, Postmodernization, in Advanced Socity (Sage Publications, London, 1992) P. 32.

[2] الجابرى، محمد عابد : العرب والعولمة : العلومة والهوية الثقافية ، تقييم نقدى لممارسة العلومة فى المجال الثقافى ، فى ص ص ٢٧٩- ٢٧٩- ٣١٩ بخاصة ص ٣٠٠ فى (العرب والعولمة (ندوة) ، مركز دراسات الوحدة العربية تحرير أسامة الحذلى ، بيروت ، يونيو ١٩٩٨.

[3] يسن السيد : فى مفهوم العلومة ص ص ٢٣- ٣٤ ، وبخاصة ص ٢٦ فى (العرب والعلومة ، مرجع سابق .

وبالتالى علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضاً ، ونشرها فى كل مكان مناسب ملائم خارج مجتمعات المركز الأصلى . ودولة العولمة بهذا المعنى هى رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملته على مستوى النمط ومظاهره . . وينتهى هذا التعريف للعولمة بتحديدها باعتبارها حقبة التحول الرأسمالى العميق للإنسانية جمعاء فى ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها تحت سيطرتها وفى ظل نظام عالمى للتبادل غير المتكافئ " .

وعلى هذا النحو تختلف العولمة Globalization عن العالمية Ulnae rsaligation فبينما تشير الأولى إلى إدارة الهيمنة ، وإمضاء كل ما هو خاص كما أنها تشكل طموحاً لاختراق الآخر وسلبه خصوصيته ، ومن ثم نفيه من العالم ، نجد أن الثانية تشير إلى طموح لارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمى ، فهى تفتح على ما هو كونى، هى طموح مشروع إلى الخارج ، ورغبة فى الأخذ والعطاء والتعارف والحوار والتلاحم، وهى طريق الأنا للتكامل مع الآخر بوصفه (أنا ثانية) ، أو هى طريق إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة ، وإلى جانب ذلك تؤكد المحلية أو القومية على الحدود الفاصلة ، وتنتشر فيها قيم ومبادئ وثقافة محدودة قد تكون منغلقة على نفسها ، تنتقى من بين ما يفد إليها ويتفق مع تراثها ، أو قد تكون منفتحة تسعى عن وعى وكبرياء إلى العالمية وإن رفضت العولمة فى شموخ . (١)

خلاصة الأمر أن العولمة تسعى إلى إعادة تشكيل العالم وثقافته وأوضاعه الاجتماعية وفق منطق يتضمن العمليات الرئيسية التالية :

١- أن العولمة تسعى إلى إعادة تشكيل العالم وفق أيديولوجيا ونموذج محدد هو النموذج الأمريكى بالأساس فهى محاولة جعل ما هو خاص بأمة معينة ، عاما ينطبق على العالم بأسره حتى يتخلق تجانس عالمى تتناسب عبره السلع المادية والمعنوية .

٢- أن العولمة التى تحقق ذلك تعمل على تفكيك العالم بقوة ، قد ينتاب التفكيك عزل جماعات المجتمع عن بعضها أغلبية أو أقليات، حتى يصبح الجميع أقليات فى إطار كل أكثر شمولا ، وفى هذا الإطار تسقط خصوصيات المحليات - ثقافياً واجتماعياً ويحل محلها ما هو عام وشامل وبلا أساس غريب عن أبنيتها .

٣- بعد تحويل الجميع إلى قطع صغيرة فى نظام عالمى شامل يتخلق فضاء بلا حدود تنتشر عبر الصور والمعلومات والتكنولوجيا ، التى يقدمها منح قوى إلى مستهلكين

---

(1) Stephen Crook / Others, Op. Cit. 26

ضعفاء ، ينتظرون ما قدم إليهم دون اعتراض.

٤- تستهدف العولمة تحقيق عالم متشابه ومتجانس يستخدم ذات التكنولوجيا، ويستهلك ذات السلع ويستوعب ذات الأفكار ويتمتع بذات الصور ، وأثناء ذلك تسقط قيم وأديان وحضارات تقف فى مواجهة المد الرأسمالى . والعولمة بذلك تسعى إلى خلق سباق أمان واستقرار كامل يحيط بالقوة الرئيسية فى العالم.

٥- أن هذا العالم الذى يفترض تجانسه يتباين إلى شطرين : شطر يضم الفقراء والمستهلكين والجهلة العارين من المعلومات ، فى مقابل شطر يضم قلة على مستوى العالم من الأغنياء والمنتجين للسلع والذين يمتلكون المعلومات . ويحتاج القسمان كل للآخر ، بل تقوم بينهما رابطة عضوية تجعل وجود أى منها مرتبطاً بوجود الآخر.

٦- أنه لكى تجسد أيديولوجيا العولمة ذاتها على خريطة العالم ذاتها فإنها تلجأ إلى آليات عديدة ، بعضها اقتصادى كالتدفق المباشر لرأس المال الأجنبى والشركات المتعددة الجنسية ، وبعضها سياسى من خلال الاتفاقيات الدولية ، والضغط بوسائل عديدة – داخلية وخارجية – على الدولة القومية ، والثالث ثقافى من خلال تكنولوجيا الاتصال والمعلومات التى أصبحت لها فاعليتها وقوتها فى الفترة الأخيرة ، والرابع عسكرى إذا لم تنجح الآليات السابقة. وقد تستخدم هذه الآليات منفردة أو مجمعة حسب طبيعة الأحوال والظروف.

ذلك يعنى أن العولمة أصبحت لها آثارها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على الدولة والمجتمع فى العالم الثالث والشرق الأوسط ، بيد أنها فيما يتعلق بمجتمعات النظام العربى تسعى إلى تحقيق ثلاثة أهداف ، الأول : إضعاف الثقافة القومية بالأساس ، وفى العالم العربى ، هى الثقافة العربية التى يشكل الدين أساسها القاعدى ، وإضعاف الثقافة العربية سوف يعنى إضعاف الرابطة التى توحد بين المجتمعات العربية، فتتلاشى لتحل محلها المشاعر والعواطف الفطرية، والثانى: تفكيك المجتمعات الفطرية من الداخل إلى أقلياتها التى تتكون منها ، أياً كانت طبيعة وأساس الانقسام الإثنى فى المجتمع الدينى، أم سلالى عرق ، أم ثقافى أم اجتماعى . بحيث تتحول المنطقة العربية إلى مجموعة من الجماعات الأثنية التى سقطت عنها ثقافتها وأنماطها الاجتماعية . والثالث : هو إعادة تشكيل النظام العربى ليصبح ضمن نظام شرق أوسطى بعد أن تضاف إليه تركيا وإيران وإسرائيل بحيث تتحول إسرائيل فى النظام الجديد إلى قوى اقتصادية وعسكرية كبيرة ، وربما بشرية كذلك ، أما تركيا فقد بدأت عولمتها وإلحاقها بالغرب حينما اختار كمال أتاتورك ذلك منذ عقود عديدة . وأمام هذا الطوفان قد تعيد إيران حساباتها وتؤسس

توجهات وسياسات جديدة ، تنفتح من خلالها على الغرب من جديد ، وبخاصة على الولايات المتحدة ، وتستوعب نمطها الحضارى والثقافى . وفى هذا النظام الجديد سوف تصبح تركيا وإسرائيل ، وربما مصر وإيران هى القوى الضابطة لاستقراره .

ثانياً : النظام الشرق أوسطى كأحد جسور العولمة.

أشرنا فى الفقرة السابقة إلى سعى أيديولوجى نحو تأسيس عالم متجانس يشكل سوقاً واسعة للقوى الرأسمالية العالمية وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية ، وما دام هذا العالم قد أصبح يستهلك السلع الرأسمالية – مادية كانت أو معنوية – فإن أبوابه سوف تكون مفتوحة لتكون نمط الحياة الغربى ، بحيث نجد أنه كلما تغلغل نمط الحياة الرأسمالية فى حياة المجتمعات كلما افتقدت مساحة موازنة من هويتها الوطنية . وحتى تحقق الرأسمالية هذا التجانس عبر العالم ، فلابد من عملية تفكيك للوحدات الإقليمية لتصبح وحدات محلية يسهل إعادة تركيبها فى بناء تجمعات إقليمية جديدة ، أو إعادة إلحاقها المباشر لترتبط بالمركز أو بالمراكز الرأسمالية . ولقد كان النظام العربى أهم النظم الإقليمية التى استهدفته العولمة الأمريكية بالتحديد.

حيث تمثل الهدف الرئيسى فى تحويل النظام العربى ليصبح ضمن نظام شرق أوسطى يحل محله ، تكون للولايات المتحدة آليات السيطرة الكاملة عليه . وقد ابتدأ التفكير فى ذلك بدأ من مؤتمر مدريد الذى عقد فى ١٩٩١ ومروراً بإعلان (المبادئ الفلسطينى – الإسرائيلى) الذى نال شهره واسعة تحت مسمى (غزه أريحا أولاً) فى عام ١٩٩٣ وكذلك معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية فى عام ١٩٩٤ إضافة إلى سلسلة مؤتمرات (القمة الاقتصادية للشرق الأوسط وشمال أفريقيا الأربعة ، مؤتمر " الدار البيضاء " الذى عقد فى ١٩٩٤ ثم مؤتمر عمان الذى عقد فى ١٩٩٥ ثم مؤتمر القاهرة الذى عقد فى ١٩٩٦،[1] ثم آخر هذه المؤتمرات التى عقد بعد ذلك فى مدينة الدوحة بدولة قطر . حيث بدأت هذه الترتيبات بتدشين الترتيبات الإقليمية للمنطقة .

---

[1] معلوم ، حسين : التسوية فى زمن العولمة ، التداعيات المستقبلية . . لخيار "العرب" الاستراتيجى ، ص ص ١١- ١٤٧ ، وبخاصة ص ١٢٠ فى (العولمة والتحولات المجتمعية فى الوطن العربى) مركز البحوث العربية ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، تحرير د. عبدالباسط عبدالمعطى ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٩).

لبناء هذا النظام الشرق أوسطي تتابعت عدة خطوات لتشكيل دوائر تتسع لاستكماله. وتبدأ الخطورة الأولى ببناء المثلث (الأردني – الفلسطيني – الإسرائيلي) ، حيث العمل لدعم هذا المثلث على قدم وساق، وهي الخطوة التي أكدت عليها معظم المشروعات الغربية والأمريكية تحديداً للتعاون الإقليمي في الشرق الأوسط ، بحيث يشكل هذا المثلث نواه لثلاث دوائر أخرى يكتمل بها النظام الشرق الأوسطي . الدائرة الأولى وتضم عواصم المثلث الثلاث (القدس ، غزة ، عمان) وهي الدائرة التي توشك أن تقوم بعملها ، بعد أن تم بناء الأوتار الأساسية داخلها (الاتفاق الفلسطيني –الإسرائيلي ، والمعاهدة الأردنية الإسرائيلية) .

وعلى ما يبدو فإن القدس سواء شكلت عاصمة موحدة أو انقسمت فستظل نقطة ارتكاز تصل من عمان وغزة ، إذ لن يستطيعا التعاون دون المرور بالقدس . وبغض النظر عن الشكل التنظيمي الذي سوف ترتب على أساسه تفاعلات هذه الدائرة (فهي عبارة عن سوق صغيرة) فإن الهموم الأمنية والاقتصادية والاجتماعية هي التي لها الأولوية [1] بينما تأتي الدائرة الثانية لتشمل (القدس وغزة ودمشق) وهي الدائرة التي تكمن بها الطاقة الدافعة لعملية السلام . ولن يتحقق شئ ذو قيمة إذا لم تبدأ هذه الدائرة في التحرك . . والملاحظ أن بيروت وإن كانت تغيب عن هاتين الدائرتين إلا أنها تظل دائماً نقطة التقائها الممتازة، خاصة إذا استعادت حيويتها السابقة ، إذ يمتاز لبنان عن الآخرين بالتشريعات المستقرة والتنوع الواضح . وإذا كانت بيروت – منذ أمد بعيد – قد شكلت نقطة عبور للسلع والحروب ، فإن المطلوب منها أن تستعيد حيويتها لدور يراد لها أن تلعبه ، وهو أن تكون نقطة (عبور) السلام . وسوف تشكل هاتان الدائرتان منظومة اقتصادية وسياسية وأمنية قائمة بذاتها وهي تشمل فلسطين والأردن وإسرائيل وسوريا ولبنان ، وهي من الناحية الجغرافية سوف تشغل منطقة سوريا الكبرى أو الهلال الخصيب ، كما أنها سوف تمثل من الناحية الاقتصادية منطقة (السوق الشرق أوسطية) والتي يتحدث الكثيرون عنها وعن تداعيها ، إضافة إلى أنها من الناحية العملية سوف تساعد على تحقيق الهدف الصهيوني المتمثل في (إسرائيل الكبرى) وخاصة في سياق ربط الشام مستقبلاً بعجلة الاقتصاد (الإسرائيلي) وفصل العراق عن الهلال الخصيب اقتصادياً وسياسياً وأمنياً ، وتصفية أي مشروع حدودي بين سوريا والعراق ومصر

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٨.

بالتبعية [1] . وتشمل الدائرة الثالثة بلدان الجزيرة العربية ، أو تحديداً مجتمعات الخليج العربى ، وتزداد الأهمية (الجيو استراتيجية) لهذه الدائرة (دائرة النفط) استناداً إلى ما تشير إليه البحوث والدراسات ، حيث حاجة القوى الاقتصادية الكبرى والتكتلات المرتبطة بها إلى النفط ، خاصة أن هذه الأبحاث قد أشارت أن النفط المنتج من هذه المنطقة يشكل ٤٠% من مصادر الطاقة بجميع أنواعها فى العالم ، وأن ٦٥% من المخزون النفطى القابل للاستغلال فى العالم يقع فى منطقة الخليج مقابل ٢,٦% فقط فى الولايات المتحدة الأمريكية ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا بأن هذه المنطقة ستظل لها أهميتها الممتدة إلى ما يقرب من منتصف القرن القادم ، أو إلى أن تصل الثورة العلمية والتكنولوجية الثالثة إلى مصادر طاقة بديلة . [2]

وتضم الدائرة الرابعة الشمال العربى لأفريقيا ، وبرغم أن غالبية هذه الدول يتم ربطها بأوربا من خلال الدائرة المتوسطية ، إلا أن أنه يمكن اعتبارها مكوناً أساسياً فى النظام الشرق أوسطى ، خاصة بعد الخطوة المصرية الأخيرة للانضمام للاتحاد المغربى. وبذلك تصبح مصر مرشحة لأن تكون نقطة التماس بين السوق والنظام الشرق أوسطى والسوق والنظام المتوسطى . [3]

وتأتى الدائرة الأخيرة والخامسة لتضم مجتمعات الأطراف اليمن والسودان والعراق كمجتمعات عربية وتركيا وإيران كمجتمعات إسلامية. ومن المرجح أن شكلاً من أشكال التعاون والتبادل سيتحقق بين دول الدوائر الأربعة السابقة وبين كل من إيران وتركيا التى سوف تكون صاحبة دور " ارتكازى " فى هذا النظام الإقليمى . وعلى ما يبدو فإن النظام المقترح يستند إلى إرساء شبكة عميقة ومعقدة من علاقات (الاعتماد المتبادل) بين دول المنطقة أو الإقليم كافة ، وخصوصاً فى مجال البنية الأساسية التى جرى التخطيط والإعداد لها على أساس إقليمى ، سواء فيما يتعلق بربط شبكات المواصلات والاتصالات والكهرباء ، أو بالنسبة إلى مصادر المياه والطاقة ، وكذلك الخدمات السياحية والمصرفية والإعلامية . [4] وبذلك يصبح النظام الشرق أوسطى موقفاً،

---

[1] نفس المرجع ، ص ص ١٣٨- ١٣٩.
[2] نفس المرجع ، ص ص ١٤١- ١٤٢.
[3] نفس المرجع ، ص ١٤١.
[4] نفس المرجع ، ص ١٤١.

أو ساحة لتفاعل بين مجموعة من الفاعلين ، لكل منهم دوره وأهدافه التى يسعى إلى تحقيقها من خلال أدائه لدوره.

وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية هى الفاعل الرئيسى فى هذا التفاعل . ويتحدد دور الولايات المتحدة من خلال كونها الدولة العظمى التى تعمل حالياً لفرض العولمة أو الترويج لها بمستوياتها كافة ، وهى تستخدم فى سبيل تحقيق ذلك سطوتها السياسية وقدراتها العسكرية والتكنولوجيا للاتصالات والمعلومات ، وقد وصل الأمر بالبعض إلى اعتبار العولمة قدراً لا راد له ونهاية التاريخ ، بعد هزيمة النموذج المقابل الذى حاول الاتحاد السوفيتى تقديمه طيلة نصف قرن ، ومن هنا يفضل كثيراً من النقاد تسمية العولمة (بالأمركه) كتعبير أكثر دقة عن واقع المال . [1]

ويعتبر هذا الدور الأمريكى استمراراً لتوجهات الرأسمالية الصناعية التى اتجهت إلى الاستعمار ، أى إلى استخدام القوة لاحتلال بلدان الجنوب ، والسيطرة على مواردها ، وفى مرحلة تالية احتاجت الإمبريالية إلى أدوات اقتصادية متطورة لإخضاع المجتمعات التى انسحب منها الاستعمار ، وتشكلت هذه الأدوات الاقتصادية ، حينئذ، من برامج التعاون والقروض والاستثمار وربط اقتصاديات هذه المجتمعات باقتصاد المراكز الرأسمالية . ومن خلال أيديولوجيا العولمة تتجه القوى الرأسمالية الآن إلى تبنى منظومة جديدة من التشريعات الاقتصادية التى تقر فتح الحدود ، وحرية التجارة وإهداء نظم الحماية الجمركية وقد تمثلت أهم وسائل العولمة فى استثمار ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال لتسهيل عملية الإخضاع الاقتصادى بمواكبة ثقافية تحقق عملية التطويع الإجماعى والنفسى المطلوبة لإنقاذ فعل العولمة فى المجتمعات التى يقع عليها ذلك الفعل. [2]

وارتباطاً بذلك تسعى الولايات المتحدة إلى تأمين الموارد من المواد الأولية وبخاصة النفط الذى يصل قيمة احتياطها منه على ما أشرنا بنحو ٢,٦% من حجم الاحتياطى العالمى ومن ثم تصبح السيطرة على الشرق الأوسط بموارده النفطية الهائلة تأكيداً لقدرة الولايات المتحدة على الاحتفاظ بزعاماتها فى العالم الغربى ، الأمر الذى يفرض عليها ضرورة وضع يدها على هذه المادة الحيوية التى تغذى الصناعات الغربية

---

[1] عتريس ، طلال " تعقيب " ص ص ٤٤- ٤٥ فى (العرب والعولمة) ، مرجع سابق .

[2] بلقيز ، عبدالإله : " تعقيب " ص ص ٦٩ 70 " ، بخاصة ص ٧٠.

والرأسمالية ، وهى النفط من المنابع إلى الممرات ، وهذا يفترض أيضاً السيطرة على التطورات السياسية والاجتماعية فى مواطن النفط بالإضافة إلى اعتبار الولايات المتحدة أن سيطرتها على هذه المنطقة ضرورية لخدمة مصالحها الاستراتيجية الخاصة ، فإنها تعتبر هذه السيطرة وسيلة ضرورية لتكريس هيمنتها على توجهات (النظام الدولى قيد التشكيل) من خلال تحسين قدراتها التنافسية إزاء القوى الكبرى الأخرى على المسرح العالمى .[1]

إلى جانب ذلك يضم إقليم الشرق الأوسط حجماً سكنياً هائلاً يقترب من نصف المليار نسمة وأغلب مجتمعات هذا الإقليم ، قاعدتها الصناعية محدودة كماً وكيف ، الأمر الذى يفتح أمام الولايات المتحدة سوقاً هائلاً حيث تلعب الآليات الرأسمالية - الإعلامية ، والإعلانية بالأساس ، دورها فى تأسيس الحاجة إلى الاستهلاك لدى السكان من خلال حملات الإعلام والإعلان المكثف ، ثم تتولى المؤسسات الصناعية إشباع حاجات الاستهلاك، وفى هذا الإطار تلعب الشركات المتعددة للجنسية دوراً أساسياً انطلاقاً من قواعدها فى الدول الصناعية برغم أن هذه الشركات تعتبر توسعاً للشركات الكبيرة فى الوطن الأم ، وامتداداً لنشاطها إلى مناطق تتعدى الحدود القومية لمراكزها ، إلا أن هذا التوسع أدخل تغيرات جذرية على هياكل الأسواق والقواعد الحاكمة للنشاط فيها ففى السابق بعد أن كانت هناك حدود للسوق تتعين ضمن حدود الدولة القومية [2] فإننا نجده قد اتسع الآن ليضم مجموعة من الأسواق المتشابكة ، والتى تتجاوز حدود الدولة القومية إلى سوق واسعة وشاملة ومتشابكة تنتمى إلى إقليمى بكامله ، يضم بداخله عدة مجتمعات .

وتعد إسرائيل هى الفاعل الثانى فى الساحة الشرق أوسطية وهى تتجانس أو تتداخل فى مصالح الولايات المتحدة ولمصالح مشتركة تتلقى إسرائيل من الولايات المتحدة دعماً غير مشروط سواء ذلك المتعلق بتدعيم القدرة العسكرية الإسرائيلية باسم تشجيع إسرائيل على السلام . وحل عقدتها الأمنية أو ما يتعلق بالدعم السياسى الذى اتخذ شكلاً جديداً بصرف النظر عن الالتزام بمبدأ مدريد الأرض مقابل السلام الذى انطلقت

---

(١) حسين معلوم : مرجع سابق ، ص ١٢٤.

(٢) الأمام محمد محمود : الظاهرة الاستعمارية الجديد ومغزاها بالنسبة للوطن العربي ص ص ٧٣- ١٠٩ ، بخاصة ص ٨٢) فى (العولمة والتحولات المجتمعية فى الوطن العربى ، مرجع سابق .

على أساسه المفاوضات [1]. وإذا كانت إسرائيل قد بقيت طويلاً محكومة بأولوية الحرب العسكرية فإنها لم تتأخر عن مواكبة الإستراتيجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط ، فى اكتشاف النعم والمنافع التى يمكن أن تحققها لها (الشراكة الاقتصادية) وهى إن كانت قد راهنت خلال العقود الأربعة الأخيرة على تحدى المنطقة العربية ،وما كان يجلبه لها هذا التحدى فى (سباق الحرب الباردة) من دعم خارجى فإنها تطمع الآن من خلال توقيعها على اتفاقيات (التسوية) إلى جعل هذه المنطقة عن طريق استغلال ما بها من إمكانيات واسعة مرتكزاً وقاعدة لإحداث طفرة اقتصادية وتكنولوجية داخلية ، نسمح لها بالدخول المنتج والاندماج العالى فى السوق الرأسمالية ، فانفتاح السوق العربية الواسعة عليها هو اليوم الفرصة الملائمة تماماً لتجاوز وصفية (اقتصاد القلعة المحاصرة) المعتمد على التمويل الأجنبى والمساعدات الخارجية [2] إلى تأسيس إسرائيل الكبرى اقتصادياً حيث تصبح هى الفاعل المنتج للسلع التى تملأ الأسواق العربية ، ويستهلكها السكان العرب.

يؤكد ذلك الإشارة إلى خطة السلم التى اقترحها شيمون بيريز مهندس أطروحة " إسرائيل الكبرى اقتصادياً " وفيها ظهر بوضوح أن ما يريده الإسرائيليون فى ظل الترتيبات الجديدة ، ليست (الأرض والسلام) ولكن مقايضة الجزء بالكل والخضوع لمعادلة جديدة لتقسيم العمل فى المنطقة سوف تكون عناصرها – كما طرحها " بيريز " كما يلى (النفط السعودى + الأيدى العاملة المصرية + المياه التركية + العقول الإسرائيلية) بل إن ما يزيد الأمر وضوحاً هو ما جاء فى كتاب " بيريز " المعنون " بالشرق الأوسط " الجديد : ١٩٩٣ حيث يذكر ما يلى : يؤدى السلام بين إسرائيل وجيرانها إلى خلق مناخ لإعادة تنظيم أساسية لمؤسسات الشرق الأوسط ، وإلى نوع جديد من التعاون " ويعتبر التنظيم الإقليمى مفتاح السلام والأمن ، وسوف يشجع الديمقراطية والتنمية الاقتصادية والتطور القومى ورفاهية الأفراد . إن إقامة السلام تتطلب ثورة فى المفاهيم ، وأن هدف إسرائيل النهائى . . هو خلق مجتمع إقليمى من الدول بسوق مشتركة وهيئات مركزية منتجة ومصممة على غرار الجماعة الأوربية [3] . وتعتبر تركيا هى الفاعل الثالث فى النظام الشرق أوسطى وبرغم أن تركيا لها ميراثها التاريخى الطويل مع

---

[1] حسين معلوم ، مرجع سابق ، ص ١٢٣.

[2] المرجع السابق ، ص ١٢٥.

[3] نفس المرجع ، ص ١٢٦.

العالم العربى ، باعتبار أنها كانت جزءاً من الخلافة الإسلامية التى تغيرت عواصمها من المدينة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة إلى إسطانبول ، حتى أصبحت الخلافة العثمانية آخر الخلافات الإسلامية ، وبرغم اشتراكها فى الدين الإسلامى مع العالم العربى وبقية العالم الإسلامى، إلا أن التوجه العلمانى الذى أسسه الزعيم أتاتورك وألزم به الجمهورية التركية التى أسسها فى ١٩٢٣ ، وجعل تركيا تنسلخ عن عالمها العربى الإسلامى ، لتولى وجهها شطر الغرب [١] الأمر الذى بدأت تركيا تستوعب معه كثيراً من قيم وثقافة المنظومة الثقافية الغربية ، وبسبب هذه القيم الغربية الرأسمالية تأسست مساحة واسعة من التباعد بين تركيا والعالم الثالث ومن بين مجتمعاته المجموعة العربية .

وإلى جانب بعض الترسيبات التاريخية ، فقد بدأت تركيا تدخل فى حالة من عدم الانسجام مع العالم العربى ، بسبب المسألة الكردية ، حيث الاتهام الموجه إلى بعض الدول العربية وإيران بمساعدة الأكراد. وتشكل قضية المياه المشكلة الثانية التى تتفاعل حولها تركيا مع العالم العربى وبخاصة سوريا والعراق [٢] الأمر الذى يجعل من تركيا كوحدة فى بناء النظام الشرق أوسطى تقف إلى جانب الولايات المتحدة وإسرائيل فى مواجهة المجموعة العربية وإيران، فلها مشكلاتها مع إيران بسبب المسألة الكردية [٣] ويبدو أن هذا الارتباط بدأت بدايته مع التعاون العسكرى الأمريكى التركى فى التعامل مع المسألة العراقية ، والتعاون العسكرى التركى الإسرائيلى من خلال التعاون فى صناعة السلاح أوْ فى التدريبات العسكرية المشتركة .

وبالإضافة إلى قيم الثقافة الغربية ذات الطبيعة العلمانية فى تركيا ، فإننا نجد أن التنمية التركية قطعت شوطاً على طريق التصنيع ، غير أنه برغم القاعدة الصناعية المكتملة نسبياً فى تركيا ، فإننا لا نستطيع أن نضعها فى مصاف الصناعة الغربية بل يمكن وضع النمو الصناعى كماً وكيف ضمن الحالة الصناعية ومعدلات النمو فى العالم الثالث ، غير أنها مقارنة بالحالة الصناعية فى العالم العربى – باستثناء مصر – فإننا نجد أن الصناعة التركية يمكن أن يكون لها نصيب إلى جانب الصناعة الأمريكية الإسرائيلية

---

[١] ليلة – على : العالم الثالث ، مشكلات وقضايا ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٥، ص ٢٤٢.

[٢] البشرى ، حمد : قضية المياه فى الشرق الأوسط ، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية ، الرياض ، ١٩٩٩ ، ص ٣٢.

[٣] درية عونى : مرجع سابق ، ٦٥.

فى السوق الشرق أوسطية ، سواء كانت السلع المصنعة بفعل مؤسسات تركية أو كـــانت من إنتاج الشركات المتعددة الجنسية ، وهو ما يعنى أن مشاركة تركيا فى النظام الشـــرق أوسطى لصالحها أكثر منه لصالح العالم العربى.

وتعتبر إيران أحد الفاعلين الهامين فى موقف التفاعل الشـــرق أوســـطى. وتقــع إيران على الشاطئ المقابل لمجتمعات الخليج ، ولها بعــض المشــكلات الحدوديـــة مـــع بعضها، مثل مشكلة الجزر مع دولة الإمارات العربيـــة ، ومشــكلة شــط العــرب مـــع العراق[1]. بالإضافة إلى ذلك ، فمذهبها شيعى على خلاف المذهب السنى الــــذى يســود المجتمعات العربية ، غير أنها الأقرب إلى العالم العربى لعدة اعتبارات ، منها حالة العداء مع إسرائيل بسبب المسألة الفلسطينية ، إضافة إلى عدم انسجام سياساتها مـــع التوجـــهات الأمريكية أو التركية ، ثم هى قبل كل شئ ما زالت تؤكد انتماءها للجنوب فـــى مواجهـــة الشمال ، وتسعى للحفاظ على الهوية فى مواجهة العولمة .

وبرغم فترة التشدد الدينى فى أعقاب ثورة الخمينى ، فإننـــا نجــد أن التطــور السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى إيران يتجه بحذر نحو التعامل مع القـــوى العالميـــة الرأسمالية ، الأمر الذى يفرض على إيران التخفف من بعض تشـــددها تجـــاه الغـــرب ، وتخفيف درجة التشدد كما ظهر من الخلاف والجدل الذى دار بين آية الله علـــى خـــامنئى وبين آية الله منتظرى حول مراجعة مسألة ولاية الفقيه ، وحدود هذه الولاية ، معبراً بذلك عن حالة من التطور قطعتها الثورة الإيرانية ، فأصبحت أكثر ليبرالية وانفتاحـــاً ، وهـــى التطورات التى عبر عن بعض جوانبها انفتاح السياسة الإيرانية فى عهد الرئيس خـــاتمى على الغرب ، وهى بداية مرحلة من التعاون الاقتصادى من المحتمل أن تكـــون مدخـــلاً لنوع من التعايش الثقافى .

ويسعى الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية إلى استيعاب إيران فـــى النظام الشرق أوسطى لعدة أهداف ، أولها التخفيف من توجهاتها المعاديـــة للغـــرب مـــن خلال التلويح بأوراق اقتصادية من شأنها التخفيف من الاندفاع الثورى للنظـــام الإيرانـــى ومن خلال الالتقاء مع بعض النظم المحافظة على الصعيد العربى ، ومن خلال الارتبـــاط بشبكة من العلاقات الاقتصادية مع دول النظام الشرق أوسطى ، بما فى ذلك إسرائيل . قد

---

[1] Keddie, Nikki, the Roots of Ulamas Power in Modern Iran, (Islamic Stadies XxiX, 1969). 31- 53, est 38.

لا يتحقق ذلك الآن ، ولكنه من المحتمل أن يحدث مع استمرار استقرار النظـــام وتعمـــق تفاعلاته.

ويعتبر العالم العربى فى مجمله الفاعل الأخير وأكاد أقول الخاسر من هذا النظـام الشرق أوسطى إذا تحقق ، إذا لم يقم بتعديلات أساسية فى موقفه بما يجعله يحقق اســتفادة إيجابية من مشاركته بدلاً من كونه الخاسر الوحيد فى هذا التفاعل . ذلك أن هناك بعــض الظروف التى تجعل مشاركة غالبية مجتمعات النظام العربى من موقـــع التـابع وليـس المستقبل ، من موقع الخاضع للتفاعل وليس المشارك فى صياغته. ومن هذه الظروف أنـه نظراً للموقع المتوسط للعالم العربى واتساع مساحته فإننا نجده قد استوعب فئات مختلفـــة من حيث أصولها العرقية أو ديانتها أو حتى لغتها الأمر الذى يجعل مجتمعاته هدفاً للتفتيت إذا توفرت ظروف سلبية داخلية تأكدت بدعم خارجى، وإن لم يكـن التفتيـت فـالعداوات والانقسامات بين الفئات التى تشكل أبنية هذه المجتمعات ، مؤثرات لذلك ما يحـــدث فـى العراق والسودان والصومال ولبنان والجزائر ، بل بعض مجتمعات الخليـــج [1] ويتمثـل الظرف الثانى غير المواتى للوضع العربى فى امتلاك المجتمع العربى للطاقـــة النفطيـة إضافة إلى موقعه على ممرات عالمية حاكمة وعدم استخدام العائدات النفطية فى تحقيـــق تنمية عربية شاملة وفعالة ، حتى أن القطرية أصبحت أكثر عمقاً من البعد القومى، وهـــو الأمر الذى جعل هذه المنطقة هدفاً لسعى مختلف القوى العالميـــة العظمـــى والمتوســطة للسيطرة عليها ، ولقد ساعد على ذلك قيام بعض مجتمعات النظام العربى بتحالفات قطريـة ضيقة مع قوى العالم الخارجى على حساب التوجه القومى ، وفى المقابل غـــذت القـوى الخارجية هذه التوجهات ، ومن ثم غاب التكامل العربى والتنسيق العربى ، وحينما وقعـت حرب الخليج الثانية أصبحت الفرصة مواتية للقضاء على أى تكتل أو تكامل عربى .[2]

ويتصل الظرف الثالث باتجاه المجتمعات العربية للارتباط فى تنميتـــها بـــالقوى الخارجية ، فقد اشتركت مجتمعات الخليج النفطية مع دول الغـــرب وبخاصـــة الولايـــات المتحدة فى علاقات اقتصادية غير متكافئة ، بينما أدت إعادة بناء اقتصاديـــات المغـــرب العربى حول السوق الأوروبية نتيجة الاتفاقيات التفضيلية التى عقدت فى نهاية الســـبعينات

---

[1] محمد محمود الإمام : مرجع سابق ، ص ١٠٤.

[2] الهيئة العامة للاستعلامات ، وزارة الإعلام : سلسلة دراسات متخصصة ، (3) مفهوم ظاهرة العولمة فى العالم المعاصر ، بدون تاريخ ، القاهرة ، ص ٨١.

إلى تزايد اعتماد الدول المغربية على أنواع أخرى من الصادرات ، وبدلاً من حوار الدول العربية مع أوربا على أساس قومى ، أدى تباين المصالح القطرية والإقليمية إلــى تدنــى الحوار إلى المستويين القطرى والإقليمى . [١]

وفى محاولة تنويع مصادر الدخل وفق منطق متسرع وغير مــدروس، قــامت بعض المجتمعات الخليجية بتأسيس بعض المناطق الصناعية أو الحرة التى تأسست فيــها صناعات للتصدير ، يقتصر دور الدولة المضيفة لها على جباية بعض الإيــرادات ، مــع السماح لرأس المال الأجنبى بالعمل وفق منظومة قيمية تختلف عن القيم العربيــة وعــن احتياجات التنمية العربية ، وكان من الطبيعى فى ظل هذه السياسات أن يسمح للمســتثمر الأجنبى أن يأتى بتكنولوجيا غربية تقل فى إطارها الحاجــة إلــى تخصصــات اللقــاءات العربية وتتضاءل إلى عمالة عربية وافدة ، يستعاض عنها بعمالة أجنبية مســتوردة مــن الدول المتقدمة أتت معها بقيم ثقافية غربية وغريبة على البيئة الثقافية العربيــة ، الأمــر الذى أسس توترات بين العمالة العربية والوطنية أو القومية وبين الدول العربية المضيفــة لهذه الصناعات . [٢]

وحتى رؤوس الأموال التى عند بعض الدول نتيجة للدخول الريعية المتنوعة لــم تجد طريقها إلى الاستثمار الداخلى من أجل بناء التنمية على المستوى القطرى أو العربى، بل ظهر تفضيل الاتجاه إلى الاستثمار الخارجى [٣] وهو الأمر الذى أفرغ بصورة دائمــة الطاقة التمويلية لمشروعات التنمية ، وجعل هذه الأموال تحت رحمة السيطرة الأجنبية من ناحية ، كما وضعها أيضاً تحت رحمة تقلبات أسعار العملات العالمية ، التى كــانت فــى أحيان كثيرة غير مواتية .

ذلك يعنى أن التفاعل العربى فى موقف التفاعل الشرق أوســطى المســتهدف ، سوف يكون تأثيره ضعيفاً على تشكيل التفاعل الحادث فى النظام المقترح ، الأمــر الــذى يفرض البحث عن صيغ أخرى لدعم دوره وفاعليته ، من خلال إجراءات وسياسات تعيــد التماسك والتكامل إلى النظام العربى ، وتجعله الأكثر قدرة على السيطرة علــى مــوارده وإمكانياته ، وأكثر إدراكاً لتوجيه هذه الموارد بما يدعم الدور العربــى ويؤكــد فاعليتــه

---

[١] نفس المرجع ، ص ١٠٥.

[٢] نفس المرجع ، ص ١٠٦.

[٣] نفس المرجع ، ص ١٠٦.

ويبلور هويته .

بيد أن لنا مجموعة من الملاحظات قبل أن تنهى هذه الفقرة حول طبيعة النظام الشرق أوسطى قبل الانتقال إلى الفقرة التالية التى نحاول فيها استعراض تأثير المجتمع على العولمة والدولة فى أقطار النظام الشرق أوسطى . من هذه الملاحظات ما يلى :

١- أننا إذا نظرنا إلى مجتمعات النظام الشرق أوسطى فسوف نجد أن مجتمعاته من نمط مجتمعات الموزايكو ، وهى مجتمعات تتكون فى أغلبها من عدد من الأقليات ، الأمر الذى يعرض بعض هذه التجمعات إلى إنفراط عقدها إذا غابت أو ضعفت البنية الثقافية والاجتماعية التى تضم هذه الجماعات مع بعضها البعض وهو ما يعنى أنه إذا خضعت هذه المجتمعات إلى التفكيك والعولمة ، فإن بعضها مآله إلى التآكل ، وإذا كان ذلك ينطبق على بعض المجتمعات العربية فإنه ينطبق بالتأكيد على تركيا وإيران ويصبح الفائز الوحيد من ذلك هى إسرائيل ، التى سوف تتحول من قوة بشرية صغيرة إلى قوة موازية لكثير من القوى الأخرى ، بناء على قوتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

٢- إن هذه التحولات التى تسير باتجاه العولمة هى تحولات مواتية للولايات المتحدة وإسرائيل ، وعلى حساب غالبية الأطراف الأخرى فى النظام الشرق أوسطى . إذ تتبع هذه التحولات سيطرة الولايات المتحدة، بشراكة إسرائيل على موارد النظام ، وبخاصة النفط والمياه ، إضافة إلى الاستفادة من أسواقه لتصريف السلع المادية والمعنوية المنتجة ، وترتيباً على ذلك سوف تتميز علاقات مجتمع النظام بهاتين الدولتين بعد التكافؤ . وإذا كانت هذه التطورات تشكل تطورات إيجابية لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل فإنها تشكل قيماً سلبية بالنسبة للأطراف الأخرى.

٣- إن من شأن هذه التطورات - إذا لم تشرع المجتمعات العربية باتخاذ الإجراءات والخطوات التى تعيد التماسك والقوة إلى مواقف - قد تؤثر على المراحل الباقية من عملية تسوية الصراع العربى - الإسرائيلى لأنها سوف تشكل حينئذ تفاعلات بين عناصر ضعيفة وأخرى قوية فى موقف التفاعل . ومن شأن ذلك أن يحسم التسوية لصالح العناصر القوية، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه التطورات قد تؤدى إلى نمو مظاهر الرفض الاجتماعى فى مجتمعات النظام الشرق أوسطى ، ولا نستثنى تركيا أو إيران من ذلك ، وقد يتخذ الرفض ، أشكالاً عديدة ، بدءاً من الرفض الأصولى ، وحتى الرفض الذى يتخذ شكل الانحراف الاجتماعى أو الثقافى أو الأخلاقى.

ثالثاً : مستقبل الثقافة فى ظل العولمة :

يعتبر نسق الثقافة والقيم أكثر الأنساق المحورية فى بناء المجتمع وحياة البشر . وتتشكل ثقافة أى مجتمع فى مصدرين : الأول التراث الثقافى المتطور تاريخياً ، والذى يتنقل من جيل إلى آخر فى نوع من التراكم التاريخى المتنامى ، الذى يعبر عن خبرة المجتمع وثراء ماضيه الحضارى ، بينما يشكل التفاعل المعاصر الحادث فى المجتمع المصدر الثانى حيث تتم مواءمة التراث مع الأحداث الواقعية واليومية المتجددة وهو ما يجعل التفاعل يفرز قيماً جديدة تضاف إلى الميراث الثقافى ، وتلعب دورها فى توجيه سلوكيات البشر فى مختلف مجالات المجتمع ، وكذلك فى إضفاء الطابع العصرى على التراث .

بالإضافة إلى ذلك فللثقافة علاقتها بالإنسان الفرد الذى يستوعب قيم الثقافة بداخله من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية والثقافية المختلفة والمتتابعة وهو ما يعنى أن الإنسان فى سلوكه يكون موجهاً بقيم استوعبها بداخله ، وفى ذات الوقت هى موجودة خارجه فى عقل الجماعة تراقبه ، وبذلك فإذا انهارت ثقافة المجتمع افتقد الإنسان القدرة على توجيه سلوكه وسقط أسير الانحراف والخروج على النظام. [١]

بذلك تتشكل ثقافة المجتمع من مجموعة القيم التى توجه سلوكيات الفرد فى تفاعله مع الآخرين من البشر . وتنقسم القيم إلى ثلاثة أنماط من القيم : " القيم الوجدانية " وهى القيم المرتبطة بالموضوعات ذات الأهمية للإنسان كالقيم المرتبطة بالله والوطن والأم ، ثم " القيم التفضيلية " وهى التى تشكل معايير يفاضل على أساسها الإنسان للاختيار بين الموضوعات ، ثم القيم الإدراكية ، وهى التى تتشكل من المعرفة التى يحصل عليها الإنسان من خلال التعليم والاطلاع والتفاعل العام وبذلك يعنى أن اختراق ثقافة المجتمع أو إشاعة الفوضى فى بنية الثقافة والقيم ، أو إحلال ثقافة وقيم جديدة محلها من شأنه أن يشيع الفوضى والاضطراب فى بناء المجتمع ، وهو ما قد يحدث للمجتمعات الشرق أوسطية كما سنوضح ذلك .

---

[١] ليلة ، على : البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، المفاهيم والقضايا، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٣١١.

بداية نؤكد أنه ليس صحيحا أن العولمة الثقافية هى الانتقال من حقبة – أو من ظاهرة – الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عليا جديدة هى الثقافة العالمية أو الكونية على نحو ما يدعى المروجون لفكرة العولمة ، بل إنها تعد بمثابة اغتصاب وعدوان رمزى على سائر الثقافات ، وهو فعل رديف للاختراق الذى قد يجرى بالعنف المسلح فيهدر سيادة الثقافة فى سائر المجتمعات التى تفرض عليها العولمة . ذلك يعنى أن العولمة هى نوع من السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات بواسطة مكتسبات العلوم والتكنولوجيا فى ميدان الاتصال [١] والقول بسيطرة الثقافة الغربية لا يعكس واقع الحال لأنه فى الحقيقة سيطرة الثقافة الأمريكية التى أصبحت تنتشر على امتداد العالم ، حتى أن الثقافات الأوربية باتت تدرك خطورتها ، وتنادى بما " استثناء الثقافى".[٢]

وإذا كانت اللغة تشكل البنية الرمزية التى بدونها يستحيل التفاعل الاجتماعى فإننا نجد أن اللغة هدف لهجوم ثقافات العولمة . واللغة هى جملة الرموز التى يتفاعل بها أبناء الأمة ، وإذا كانت تركيا قد أسست منذ الثورة الكمالية بناء لغويا مشوها حيث المضمون العربى فى أشكال أو صناديق لاتينية ، فإن هذا التغير جعل منها مثالا حزينا للتطور على ما يؤكد Gansen جانيس [٣] فإن ما يحدث للغة العربية سوف يكرر المأساة . واللغة العربية هى اللغة المشتركة بين جميع أبناء الأمة العربية ، لغة التراث المشترك ، ولغة العلم والثقافة العالمية ، وبالتالى لغة التحديث والحداثة. ولذلك كانت اللغة العربية هى فى آن واحد ، الرابطة المتينة التى توجه الأمة على مستوياتها المتباينة [٤]. ولأنها تتصل بالتراث ، ولكونها لغة القرآن كذلك فقد تميزت عن لغات عديدة فى العالم بامتداد نشاطها إلى ما يقارب السبعة عشر قرنا محتفظة بحيويتها ونشاطها . وقد أشار أحد اللغويين المعاصرين إلى أنها ظلت محتفظة بحيويتها لاحتفاظها بمنظومتها الصوتية والنحوية الصرفية طوال هذه القرون . وهذا لم يحدث للغة أخرى كما يشهد بذلك علم اللسانيات . إن الأربعة قرون كانت فيما مضى هى الحد الأقصى الذى يبدأ بعده التغير التدريجى

---

[١] بلقيز ، وعبدالإله : العولمة والهوية الثقافية : عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة ص ص ٣٠٩– ٣٢٥ بخاصة ص ٣١٨ فى العرب والعولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير أسامة الخولى ، بيروت، يونيه ١٩٩٨.

[٢] المرجع السابق ، ص ٣١٩.

[3] Jansen, G.H, militant Islam, Harper/Row Publishers, New York. P, 82.

[٤] محمد عابد الجابرى ، مرجع سابق ، ص ٣٠٤.

لمكونات المنظومة اللغوية ، بينما استطاعت اللغة العربية أن تواكب التطور الحتمى في الدلالات ، ويؤيد ذلك ما ذكره الكاتب الأسبانى الحاصل على جائزة نوبل كاميليو جوز يسبلا من أن ثورة الاتصالات التى اختزلت الزمان ستؤدى إلى انسحاب أغلب اللغات قبل نهاية القرن الواحد والعشرين ما عدا أربع لغات هى الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والعربية ، وإدراكه أن اللغة العربية ضمن هذه المجموعة أثارت حفيظة الغرب عامة .[١]

والهجوم على اللغة الوطنية يتم بأساليب عديدة أولها أن اللغة الإنجليزية هى لغة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات ، فمثلاً يلاحظ أن اللغة المستخدمة والسائدة فى الإنترنت هى اللغة الإنجليزية إضافة إلى أن أغلب المعلومات الواردة على الشبكة واردة من الولايات المتحدة الأمريكية مما يجعل لها وضع الأفضلية فى مجال مجتمع المعلومات العالمى ، وذلك الوضع له سلبياته المتعددة أبرزها حرمان مستخدمى الشبكة من التعرف على المعلومات غير الأمريكية الأصل [٢]. إضافة إلى التأثير على اللغة المحلية ، خاصة إذا ساعد على ذلك التحاق أجيال الشباب والصغار بالتعليم الخاص الذى يستخدم اللغة الأجنبية ، الأمر الذى يخلق حالة من الاعتماد على استخدام اللغة الأجنبية لتحل محل اللغة الوطنية أو المحلية ، التى تصبح غريبة وغير عصرية بالنسبة لأجيال عديدة فى مجتمعها.

يضاف إلى ذلك أن العولمة تتيح الفرصة للاستثمار الأجنبى فإننا نجد أن غالبية الشركات الأجنبية ، و حتى الفروع المحلية تشترط التحدث بالإنجليزية أو الفرنسية كلغة لأداء الأعمال والمهام ، الأمر الذى يؤدى من ناحية إلى اتجاه من يرغب فى العمل بالقطاع الخاص ، وبخاصة القطاع الخاص الأجنبى - وهو فى الغالب ذو رواتب عالية - إلى ضرورة إتقان التعامل باللغة الأجنبية ولو على حساب لغته الوطنية، ومن ناحية ثانية فإن وجود الشركات الأجنبية بأسمائها الأجنبية يطرح مفردات غريبة على اللغة الوطنية فى لغة التعامل اليومى ، إضافة إلى محاولة تقليدها من قبل الشركات الوطنية ، من حيث استخدام مفردات اللغة الأجنبية فى أسمائها مثل " أمانكو" و " سيدكو " وغير ذلك من الأسماء التى تتداخل فيها ألفاظ محلية وأجنبية لتصنع لغة جديدة مما يؤدى على المدى الطويل إلى تشويه اللغة الوطنية ، الأمر الذى دفع وزير التموين المصرى فى عام ١٩٩٩

---

[١] التفريح ، سهام : تعقيب ص ص ٤١- ٤٢ بخاصة ص ٤٢ ، فى العرب والعولمة ، مرجع سابق.

[٢] الهيئة العامة للاستعلامات ، وزارة الإعلام : سلسلة دراسات متخصصة ، (3) مفهوم ظاهرة العولمة فى العالم المعاصر ، بدون تاريخ ، القاهرة ، ص ٨١.

إلى إصدار قرار بفرض تسمية الشركات العاملة فى مصر ، والعلامات التجارية بأسـماء عربية إلى جانب الأسماء الأجنبية وهو القرار الذى لقى معارضة مـن رجـال الأعمـال المصريين والغرفة الصناعية.

ويرتبط بذلك الاتجاه المتزايد فى العديد من الجامعات المصرية لاستحداث أقسـام للتدريس باللغات الأجنبية فى مجال العلوم الإنسـانية : كـالحقوق والاقتصـاد والعلـوم السياسية فعلاوة على أن هذا التطور من شأنه أن ينشئ فى إطار المعهد العلمـى نفسـه نظاماً هو أشبه ما يكون بالنظام الطبقى ، يقع فى أدناه الدارسون باللغة العربية ، ثم يـأتى الدارسون باللغة الفرنسية ، وفى القمة يأتى الدارسون باللغة الإنجليزية، فإن هذا التطـور يضعف الارتباط باللغة العربية ويضعف الرغبة فى دراستها لأن السوق تغلق أبوابها فـى وجهة الثقافات الوطنية .[١]

من ناحية ثانية تعتبر ثقافة العولمة نوعاً من الشمولية الجديدة لأنها تنتـهى إلـى محاولة فرض ثقافة واحدة ونمط وحيد للحياة على الأمم، وتصادر الخيارات الاجتماعيـة والسياسية البديلة . والعولمة أيضاً وهى تبشر بانتهاء عصـر الأيديولوجيـات ، تفسـح الطريق إلى أيديولوجيا وحيدة مهيمنة لا تعترف إلا بثقافة واحدة بما تنطوى عليـه مـن أنماط إنتاج واستهلاك وحياة واحدة ، وهى ثقافة (نهاية التاريخ) التى تحـاول أن تجمـل وجهها الشائه بقناع مخادع وزائف من المصطلحات التى فقـدت معناهـا : ديموقراطيـة وحقوق الإنسان وتعدد سياسى ، وتكنولوجيا تجعل حياة الإنسان أسـهل وأكـرم [٢] . ولا يرجع انتشار هذه الثقافة إلى كونها أكثر إنسانية من غيرها ، ولكن لأنها ثقافة " الغـالب " وانتشارها . إنما يرجع إلى هذا القانون الذى صاغه مفكرنا العربى عبدالرحمن بن خلـدون (المغلوب مولع أبداً) بتقليد الغالب فى زيه ونحلته وسائر عوائده[٣] وكذلـك لأن العولمـة الثقافية جاءت إلى هذه المجتمعات ، سواء كانت مجتمعات العـالم الثـالث أو مجتمعـات الشرق الأوسط وهى فى أسوأ ظروفها وفى أقل الحالات استعداداً للاستفادة منها. [٤]

---

[١] مسعد ، نفين : تعقيب ص ص ٣٤٩- ٣٥٠ ، بخاصة ص ٣٤٩ ، فى العرب والعولمة ، مرجع سابق .

[٢] منصور ، محمد إبراهيم : تعقيب ، ص ص ٣٥٤- ٣٥٥ ، بخاصة ص ٣٥٥ فى (الغرب والعولمة) ، مرجع سابق .

[٣] المرجع السابق ، ص ٣٥٤.

[٤] شرف ، ليلى : تعقيب ، ص ص ٣٥٧- ٣٥٨ ، وبخاصة ص ٣٥٧ ، فى (العرب والعولمة) ، مرجـع سابق .

ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى ظهور عديد من الظواهر الثقافية ذات الطبيعة المرضية بالأساس ، من شأن ثقافة العولمة الشمولية أن تسبب ردود فعل متشددة عند الشعوب التى تشعر بضرورة الحفاظ على الذات والتراث والعولمة إلى الأصول . ففى مقابل هجمة العولمة تنبرى الحركات المدافعة عن الهويات والخصوصيات والأقليات للقيام بعملية تحصين عن طريق تنمية قواها الذاتية واختيار التكنولوجيا الملائمة لمواردها وحاجاتها وقد يتخذ الصراع منحنى قومياً حيناً ودينياً أحياناً واقتصادياً فى كل حين . إذن من الواضح أن هذه المجتمعات تتجه تحت ضغط العولمة الزاحفة إلى التمسك أكثر من أى وقت بمعنى خصوصياتها الثقافية، وكياناتها السياسية وتقاليدها وأصولها . سوف تكون العولمة الدافع الأساسى لتحريك الخصوصيات على أنواعها وبذلك نستطيع أن نقول بأن القرن الواحد والعشرين هو قرن الخصوصيات الثقافية . فقد فجرت العولمة الغازية العديد من الأصوليات دفاعاً عن الذات والشخصية الوطنية ، وسرعان ما بررت هذه الاتجاهات استخدامها بحجة أنهم سلاح الضعفاء أمام المستبدين [1] إذا حدث ذلك فإن العولمة إذا نجحت فإنها قد تضرب الثقافة القومية العامة تلك التى تشكل الحزام الرابط للأمة ، وسوف يكون هذا الإضعاف للرابطة القومية العامة لصالح خصوصية أكثر ضيقاً . قد تكون مجتمعاً قطرياً أو جماعة إثنية ، أو حتى وحدة قبلية أو عائلية . ألم نقل فى البداية إن المستقبل قد يحيل خريطة الشرق الأوسط إلى تشكيلة موازيكو !

وتشير الظاهرة الثقافية الثانية إلى انتشار ثقافة الصورة حيث تصبح الصورة المفتاح السحرى للنظام الثقافى الجديد الذى يشكل وعى للإنسان بالعالم حيث تصبح الصورة هى المادة الثقافية الأساسية التى يجرى تسويقها على أوسع نطاق جماهيرى ، وهى تلعب فى إطار العولمة الثقافية نفس الدور الذى لعبته الكلمة فى التواريخ الثقافية السالفة. الصورة بحد ذاتها أصبحت بمثابة خطاب ناجز مكتمل ، يمتلك سائر مقومات التأثير الفعال فى مستقبله . أو لنقل هى لغة تكتفى بذاتها فتستغنى عن الحاجة إلى غيرها، وذلك أساس شعبيتها وخطورتها فى ذات الوقت . والصورة على عكس الكلمة ، باتت قادرة على تحطيم الحاجز اللغوى – مثلماً تستطيع العولمة الاقتصادية أن تفعل ذلك لكى تصل إلى أى إنسان فى عقر داره .

---

[1] بقراعون ، كريم : تعقيب ، ص ص ٣٥٨- ٣٥٩ ، فى (العرب والعولمة) ، مرجع سابق.

وتعتبر ثقافة الصورة – برغم سرعة انتشارها وقدراتها على الاختراق – ثقافة هزيلة وفقيرة وسطحية ، هذه الثقافة تشبه سائر سلع الاستهلاك ، إنها نوع من المعلبات الثقافية ، تتضمن مواد مسلوقة جاهزة للاستهلاك ، وشركات إعلامية تتنافس لتقديم سلعتها إلى المستهلك ، ولا وقت للتفكير والتمحيص والتردد النقدى وسائر ما يمكن أن يحمى الوعى من السقوط فى إغراء الخداع وتنهار ملكة النقد ويتحول الوعى إلى مجال مستباح لكل أنواع الاختراق ، تتكفل التكنولوجيا بهندسة ذلك الإغراء وصناعة أسباب الجاذبية له، وإذا أخذنا فى الحسبان أن هجوم ثقافة الصورة على الوعى يجرى على تواز مع امتداد التراجع المروع لمعدلات القراءة فى العالم ، لاتضح لنا معالم النفق المظلم الذى سوف تدخل إليه الثقافة والوعى فى عصر الصورة والإعلام السمعى البصرى ، حيث الضمور المتزايد لجسم المعرفة والتفتت الشديد لنظام القيم ، وتكريس منظومة جديدة من الثقافة التى تؤكد على القيم النفعية والفردية والأنانية، والنزعة المادية الغريزية المجردة من أى محتوى إنسانى . ستغرق ثقافة العولمة على الجسد ما سيفيض عن حاجته من الإشباع ، غير أنها ستقتل الروح، وتذهب بالمحتوى الأخلاقى والإنسانى للبشر . [١]

الظاهرة المرضية الثالثة التى سوف تعانى منها الثقافة القومية من جراء فعل ثقافة العولمة ، تتمثل فى مجموعة من الانشطارات فى إطار الواقع الاجتماعى بفعل التفتت الثقافى ، وإذا كانت المجتمعات العربية والشرق أوسطية تعانى عموماً من انفصام ملحوظ بين ثقافة النخبة وثقافة الجماهير حيث توجد فجوة واسعة للغاية بين النخبة المثقفة والجماهير نتيجة لشيوع الأمية ، والتى لا تقل معدلاتها فى العالم العربى عن ستين فى المائة ، الأمر الذى يؤكد القول بوجود حلقة ضيقة من المثقفين تكاد تتخاطب مع نفسها ، وفى نفس الوقت دائرة واسعة من الأميين لا يقرءون ولا يكتبون ، يخضعون فقط لعمليات تزييف الوعى التى تمارسها وسائل الإعلام . وذلك يعنى أن العقل الشعبى يتشكل بعيداً عن تأثير النخبة المثقفة ، والتى عجزت لأسباب تكوينية ، وسياسية وثقافية عن أن تمد جسورها إلى الجماهير . [٢]

ويزداد الأمر فداحة حينما لا يتوقف الاختراق الذى تمارسه العولمة عند حدود تكريس الاستتباع الحضارى بوجه عام بل يصبح فعلها أكثر خطورة حينما تعمل على

---

[١] عبدالإله بلقيز : المعرفة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٦.

[٢] الهيئة العامة للاستعلامات ، مرجع سابق ، ص ١٩.

تكريس الثنائية والانشطار فيالهوية الوطنية القومية، ليس الآن فقط ، بـــل علـــى مـــدى الأجيال الصاعدة القادمة . ذلك أن الوسائل السمعية البصرية ، والمرئية واللامرئية التـــى تقيس هذا الاختراق وتكرسه وإنما تملكها وتستفيد منها فئة معينة هى النخبـــة العصريـــة وحواشيها، التى تستطيع امتلاكها ، والتعامل مع لغاتها الأجنبية ، بحكم التعليم (العصـــوى) الذى تتلقاه ، أما (عموم الشعب) وعلى رأسه النخبة التقليدية فهو فى شبه عزلـــة ، يجـــتر بصورة أو بأخرى ثقافة (الجمود على التقليد) ، والنتيجة استمرار وإعادة الإنتاج للثنائيـــة نفسها ، ثنائية التقليدى والعصرى ، وثنائية الأصالة والمعـــاصرة، فـــى الثقافـــة والفكـــر والسلوك . [١]

وإذا كانت الحالة الطبيعية لأى مجتمع أن تكون ثقافته مرتبطة ببنائـــه ارتباطـــاً عضوياً ، لكون هذه الثقافة نتاجاً للتفاعل الاجتماعى والحادث فى المجتمع ، إضافة إلى مـــا يقدمه التراكم التاريخى ، فإنه نظراً لأن ثقافة العولمة واردة من الخارج فإنها لا تكون فـــى العادة مرتبطة عضوياً ببناء المجتمع القومى وذلك لكونها ليست تعبيراً عن تمثـــل النـــاس لمحيطهم ، أو تعبيراً عن نظام اجتماعهم المدنى ، وبذلك يشكل وعى البشر بثقافة أو بقيـــم ثقافية لا توجد صلة بينها وبين النظام الاجتماعى الذى ينتمون إليه . وحين يتفاعل البشـــر وفق منظومات من الأفكار والقيم لم تخرج من رحم التطور الاجتماعى الطبيعى ، لا يبقى ثمة ما يدعو إلى استصغار الأمر ، إذ من رحم هذا الانفكـــاك والتجـــافى بيـــن الثقـــافى والاجتماعى ستتناسل أنواع أخرى من التجافى والخلل فـــى البنـــى الاجتماعيـــة ، ممـــا سيعرضها إلى تشويه مضاعف يضاف التشوه الخلقى الأصلى الذى نشـــأ ، حداثـــة رثـــة شهدتها هذه البنى دون تقديم مقدمات أو تمهيد بأصول . [٢]

من الظواهر المرضية التى تعانى منها البنيـــة الثقافيـــة كذلـــك انتشـــار ثقافـــة الاستهلاك فى مجتمعات تعيش نسبة عالية من سكانها دون خط الفقر ، فســـبب الارتفـــاع المفاجئ فى دخول بعض الشرائح الاجتماعية بسبب عائدات النفط أو العمل فى مجتمعاتـــه، تزاوج مع وجود الإعلان والإعلام بسلع تشبع حاجات لـــدى الأفـــراد أو تؤســـس هـــذه الحاجات لهم ، يتجه الأفراد إلى السوق الاستهلاكى من خلال السلع أو حتـــى الصـــور ، ونظرا لأن الغرب يعد مصدرا لكثير من هذه السلع ، فإن شعورا يتخلق لدى البشر بتقديـــو

---

[١] عبدالإله بلقيز : العولمة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٦.

[٢] محمد محمود الإمام ، مرجع سابق ، ص ١٠٧.

الثقافة الغربية ، وهو الأمر الذى يؤدى إلى ضعف إدراك أهمية التأكد على مقومات الثقافة الذاتية . ومن خلال الاستهلاك والشره الغريزى الذى ينتاب الإنسان ، يصبح تمجيد ما هو أجنبى والميل إلى استهلاكه باعتباره أحد رواد المكانة الاجتماعية [1] ونتيجة لذلك تضعف أو تتلاشى المشاعر المرتبطة بالهوية الوطنية أو القومية. ويندفع البشر رغماً عنهم – إلى الارتباط بما هو أجنبى وخارجي على حساب ما هو قومى ومحلى .

ومن الطبيعى أن تؤدى هذه الانهيارات فى بنية الثقافة والقيم إلى عديد من الظواهر والسلوكيات التى تظهر كرد فعل لذلك . فقد يلتحق البعض بركب الأصولية الثقافية باعتبارها هروباً من الانهيار بحثاً عن اليقين ، أو بحثاً عن قيم نقية يمكن أن توجه التفاعل الاجتماعى أو شوقاً إلى الصدق فى عالم ممتلئ بالإعلان الكاذب ، بينما قد يسلك البعض الآخر طريقة الانحراف الاجتماعى حيث عالم الجريمة الواسع إما بحثاً عما يشبع الحاجة إلى الاستهلاك أو انتقاماً بسبب الحرمان من الإشباع فى سياق يقدم إغراء باحتماليته ، فى حين قد ينحرف البعض الثالث أخلاقياً حيث يمارس البشر سلوكيات عارية من التوجيه الأخلاقى.

رابعاً : العولمة ومستقبل المجتمع فى الشرق الأوسط :

يتكون بناء المجتمع عادة من مجموعة من النظم الاجتماعية التى تشكل مجالات متداخلة يعيش فى نظامها البشر ويدخلون فى علاقات اجتماعية مع بعضهم البعض تعبر عن تفاعلهم مع بعضهم البعض لإشباع حاجاتهم المتبادلة . ويضم بناء المجتمع تكوينات اجتماعية عديدة يدخل فيها النظام العائلى والتعليمى والطبيعى والسياسى والاقتصادى ، وفى العادة تكون هذه النظم الاجتماعية متداخلة بنائياً ووظيفياً ، وكذلك بحيث يؤدى الخلل فى العلاقات بين هذه النظم ، أو بعجز بعضها عن الأداء الوظيفى المحدد له ، إلى اعتلال المجتمع وعجزه عن متابعة تطوره بالمعدلات الملائمة . [2]

ونظراً لأن أيديولوجيا العولمة تطرأ على ثقافة المجتمع وبنائه ، وتغرس فيها عناصر غريبة عليها أو حتى تتناقض معها ، ولأن عناصر العولمة مفروضة بقوة الإعلام

---

[1] على ليلة : البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنتروبولوجيا ، المفاهيم والقضايا ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢.

[2] السيد يسن : مرجع سابق ، ص ٣٣.

والإعلان، أم بأى من الآليات الأخرى للقوى العظمى وبتحالف من فئـــات ومؤسســات داخلية ، فإن النتيجة سوف تتضح من خلال حدوث كثير مـــن الانـــهيارات والتشـــوهات الاجتماعية التى سوف نعرض لبعض مظاهرها فيما يلى :

أول هذه المظاهر أن الإعلام ذاته هو الذى يلعب الدور الفاعل فى هذا الانهيار ، حيث تبرز العولمة الانفصالية من خلال البث التليفزيونى عن طريق الأقمار الصناعيـــة ، وبصورة أكثر عمقا من خلال شبكة الإنترنت التى تربط البشر فى أنحاء المعمـــورة [1]. وهو ما يعنى أن الإعلام قد امتلك الأولوية لإحداث التغيرات المطلوبة علـــى الصعيديـــن المحلى والعالمى بحيث امتلك الإعلام سلطة وهيمنـــة ، الأمـــر الـــذى دفـــع زبيجنتـــور بريجسنكى مستشار الرئيس كارتر فى الفترة (١٩٧٧- ١٩٨٠) إلى التأكيد على أهميـــة أن تقدم الولايات المتحدة التى تمتلك ٦٥% من المادة الإعلامية العالميـــة (نموذجـــا كونيـــا للحداثة) ، يحمل القيم الأمريكية التى يذيعونها دوما فيما يتعلق بالحرية وحقوق الإنســـان ، ونظرا لامتلاك الولايات المتحدة لتكنولوجيا متقدمة للاتصالات والمعلومات ، فقد انتشـــرت الحداثة الأمريكية على مستوى العالم بسرعة فائقة فى الأوساط العليا والشعبية . [2]

وبالقدر الذى استطاع فيه الإعلام تحقيق التدفـــق الحـــر والســـريع للمعلومـــات والمعارف ومن ثم التقريب بين الثقافات ، فإنه قد عمل فى نفس الوقـــت علـــى تخريـــب العلاقات بين الأنظمة والمجتمعات وتسويغ استخدام العنف والقوة تحت مختلف الذرائـــع . لقد أصبحت العولمة مرادفة لمعنى تكثيف الإحساس بالتواصل والاقتراب الـــذى تحملـــه عمليا آله التطور المتسارع لثورة الاتصالات وتبادل المعلومـــات ، وفـــى نفـــس الوقـــت التجاوز المستمر للفوارق الفعلية بين الشمال والجنوب ، بين الدول الغنيـــة والفقـــيرة [3] بالإضافة إلى ذلك فقد فرض انتشار شبكات البـــث الفضائيـــة فـــى مجتمعـــات الجنـــوب وسيطرت عليها فى غالب الأحيان. وقد أدى ذلك إلى تحرر المواطن من قيـــود الإعـــلام الرسمى بكافة أشكاله حيث يجد أمامه موجات من التدفق الإعلامى الغربى والعالمى الـــذى من الممكن أن يسهم فى تنمية معارف ومدركاتـــه وتطويـــر وعيـــه برؤيـــة التغـــيرات

---

[1] الجميل ، سيار : تعقيب ص ص ٣٨- ٤٣ ، بخاصة ص ص ٣٩- ٤٠ ، فى (العـــرب والعولمـــة) ، مرجع سابق.

[2] صباح ، يسن على ، تعقيب ص ص ٧١- ٧٢ ، بخاصة ص ٧١ ، فى (العرب والعولمة) مرجع سابق.

[3] عوض ، محمود : تعقيب ص ص ٣٢٦- ٣٣٣ وبخاصة ص ٣٣٠ ، فى (العرب والعولمة) ، مرجـــع سابق .

والتطويرات فى مختلف أرجاء العالم ، الأمر الذى أضعف ارتباط الإنسان بأحداث مجتمعه المحلى لصالح اهتمامه بمتابعة الأحداث عالميا ، وهو ما يهدد – إذا تكثف التأثير بإسقاط الإنسان – سيكلوجيا – لولائه لوطنيته وليكون مواطنا عالميا [١] ولقد ساعد على فاعلية الجهاز الإعلامى الانهيار الذى طرأ على الأسرة والمدرسة ، كمؤسسات تقليدية للتنشئة الاجتماعية ، إذا كان من الثابت أن الأسرة قد شكلت فى الماضى المؤسسة الأقوى للتنشئة الاجتماعية لكونها التى تنتج الوجدان الثقافى والوطنى بواسطة منظومة القيم التى تلقاها أفراد الأسرة باعتبارها هى الآداب العامة الواجب احترامها والمقدسات التى يتعين التزام الأيمان بها . وإذا كان الطفل يلقن فى إطار الأسرة مع لغته مبادئ عقيدته والقوالب الأخلاقية العامة والعليا لسلوكه فإنه يلقن كذلك بعضا من المبادئ المؤسسة للشعور بالأنا الجمعى أى هوية الجماعة الوطنية التى ينتمى إليها[٢]. قد يحدث أن يخرج الإنسان على هذه المبادئ أو يتمرد غير أنها تظل دائما مرجعيته التى يلجأ إليها حينما يحتاج إلى التوجيه.

ما نلاحظه أن الأسرة وغالب التكوينات القرابية سوف تصاب بالتفكك والهزال وتوضيح ذلك أن البنى القبلية مثلا هى التكوين القرابى الرئيسى فى مجتمعات الخليج مهددة بأن تنفصل على منظومتها إذ أنه من المتوقع أن يؤثر سيل المعلومات الجديد على البنى القبلية والعشائرية الطائفية الراسخة على صعيد الواقع العربى ، لكونه سوف يقوم بتشكيل الوعى الظاهر للأفراد والجماعات وهو الوعى الذى يتناقض مع الواقع المحدد تاريخيا ، لأن هذا الوعى قد تشكل من عناصر غريبة على المجتمع ، ومن ثم يظل هذا الوعى حالة ذهنية فوقية عابرة وغير مؤثرة تسبب التشويش واللبس أكثر مما يساعد على وضوح الرؤية [٣] . ولا يتوقف الأمر عند انفصال الوعى عن البنية القبلية الواقعية ولكن الأوضاع قد تتطور فى اتجاه الأسوأ فتصاب الأسرة بالتفكك نتيجة لخضوعها للتحولات الاجتماعية الثقافية العميقة المرتبطة بالحداثة . ومن المظاهر المثيرة لهذا التفكك فقدان الأسرة بصورة متزايدة للقدرة على الاستمرار كمرجعية قيميه وأخلاقية للأبناء ، بسبب

---

[١] عبدالإله بلقيز : العولمة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٢.

[٢] الأنصارى ، محمد جابر : تعقيب ص ص ٥٥– ٥٦ ، بخاصة ص ٥٦ ، فى (العرب والعولمة) ، مرجع سابق.

[٣] عبدالإله بلقيز : العولمة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٣.

نشوء مصادر جديدة لإنتاج القيم وتوزيعها وفى مقدمتها الإعلام ، وإضافة إلى اضمحلال قوة السلطة الأبوية مع عدم وجود منظومة من القيم التى يمكن أن تحل محلها ، الأمر الذى أدى إلى حالة من الاستباحة والتسيب القيمى تجعل الفرد أعزل من أية دفاعات ، بل مصاباً بمرض ضعف المناعة القيمية المكتسبة . [1]

ومن الطبيعى أن ينهار النظام التعليمى مثلما انهارت الأسرة والعلاقات القرابية ، ولعل الظاهرة الأولى التى تعتبر مؤشراً على الانهيار التعليمى هى ظهور ما يسمى بالتعليم المغترب الذى يجنح عادة إلى الأسس العلمية التى طورتها القوى الرأسمالية بما فى ذلك اللغة وأدوات التعبير الأخرى ، وكذلك التأهيل الذى يتم على أيد أجنبية ، الأمر الذى يؤسس لدى الدارسين نوعاً من الارتباط الثقافى بأوطان أجنبية أو مواقع خارجية تفصلهم تدريجياً عن واقعهم المحلى [2] وإذا كانت المدرسة هى المؤسسة التى يتم فى إطارها التعليم فإنها تعتبر كذلك مؤسسة الإنتاج الاجتماعى ، التى تواصل التأكيد على ما غرسته الأسرة ، وتنتقل به إلى مدى أبعد وتتمثل موطن القوة فى المدرسة فى أنها تؤدى وظيفتها على نحو نوعى متميز ، فضلاً عن قدرتها على صقل تكوين الفرد الاجتماعى وتنمية ملكة التحصيل والإدراك لديه بدرجة لا تجيدها الأسرة . تنفرد المدرسة بكونها تنتقل بوعيه من حدود الجماعة الطبيعية إلى رحاب الجماعة الوطنية ، وعند هذه النقطة بالتحديد تؤدى المدرسة وظيفة إنتاج الثقافة الوطنية ذات الطبيعة الشاملة التى تربط الفرد بالمجتمع ككل.

غير أن النظام التعليمى والمدرسة يواجهان إخفاقاً مروعاً ، حيث يشار لهذا الإخفاق بمؤشر كمى وآخر كيفى ، ويتمثل الأول بالعجز عن تحويل التعليم فى المجتمعات العربية المعاصرة إلى حق عام لكافة الفئات الاجتماعية وانحصاره تقريباً فى المجال الحضرى ، إضافة إلى انخفاض معدلات الاستفادة ، فإلى جانب حرمان شرائح كبيرة من التعليم ، فإن من يحصل عليه لا يتزود بالمستوى الملائم.

والنتيجة هى حرمان جيش هائل من حقه فى التحصيل والتكوين، إما بسبب شح الإمكانيات وضعف الموارد والبنى الأساسية للتعليم أو بسبب الطبيعة التصفوية للنظام المدرسى الأمر الذى يدفعه إلى لفظ الكثيرين . ويتعلق المؤشر النوعى بفقد محتوى

---

[1] محمد محمود الإمام : مرجع سابق ، ص ٩٠.

[2] عبدالإله بلقيز ، العولمة والهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٣١٣.

برنامج التكوين التعليمي وقصوره عن الاستجابة للحاجات المعرفية والعلمية ، والذى يؤدى فى النهاية إلى تخريج أفواج ودفعات متلاحقة من أنصاف المتعلمين ممن لا تستفيد من طاقاتهم المتواضعة المؤسسات الإنتاجية [١] التى تسعى إلى تطوير المجتمع .

وتعتبر ظاهرة التفتيت للمجتمعات القومية من الظواهر التى يمكن أن تتخلق بتأثير العولمة ، حيث تعمل هذه الأيديولوجيا على بعث قوى تعمل فى اتجاه تفتيت التكامل القومى فى بعض هذه التجمعات ، وتتمثل هذه القوى فى الولاءات القائمة على العرف أو العنصر أو الدين أو اللغة وغيرها من صور التعبير الثقافى عن جماعات الأقليات المختلفة فى العالم تلك التى يوجد لها فى العادة جذور تاريخية تدفع للانقسام ، وهو ما تشجعه أيديولوجيا العولمة ، تأكيداً لذلك ما تحاوله الولايات المتحدة من دعم الأقليات الدينية كآلية من آليات التفتيت.

فمثلاً نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية بغير تفويض من أى طرف دولى قررت باعتبارها القوة العظمى حالياً – أن تقوم بدور الزعيم الأخلاقى الكونى فهى حامية الديمقراطية والمدافع عن حقوق الإنسان ، كما تواترت الأنباء أخيراً أنها تريد أن تنصب نفسها فى وظيفة المراقب العام للاضطهاد الدينى فى العالم . [٢]

ذلك أن إبراز الجماعات داخل إطار الدولة القومية وتشجيع هذه الجماعات من الخارج من شأنه أن يضعف الدولة ، لكى تصبح أكثر تسامحاً أمام تدخلات قوى العولمة التى تسعى أساساً إلى استباحة السوق الداخلية ، هذا بالإضافة إلى أن سقوط الروابط القومية من شأنه أن يتيح الفرصة لإعادة ترتيب الوحدات وفق نظم إقليمية غير تلك التى كانت تنتمى إليها، وهى نظم من شأنها أن تيسر مهمة القوى الخارجية العظمى سواء فى الحصول على المادة الخام إن وجدت ، أو السيطرة على الأسواق وهى مسألة مؤكدة.

وتعتبر البطالة والحد من الهجرة إلى المجتمعات المتقدمة أو النفطية من الظواهر التى سوف تعانى منها المجتمعات فى ظل العولمة. وتوضيح ذلك أننا بينما نجد أن جانباً كبيراً من الاستثمارات يتجه إلى تمويل تكنولوجيا الإنتاج المتقدمة ، فإننا نجد أن هذه التكنولوجيا تعجز عن خلق فرص عمل إضافية إن لم تؤد إلى تراجع هذه الفرص وهو ما

---

[١] فايق ، محمد : تعقيب ص ص ١٤١– ١٤٢ ، بخاصة ص ١٤١ ، فى (العرب والعولمة)، مرجع سابق.

[٢] محمد محمود الإمام : مرجع سابق ، ص ٦٥.

عرف " بالنمو غير المصحوب بفرص عمل Jobless Growth "[1] وهو ما يعنى أن هناك علاقة بين ارتفاع مستويات التكنولوجيا الحديثة وبين ارتفاع معدلات البطالة على الرغم من ارتفاع معدلات النمو الاقتصادى ، وهو ما حدث بوضوح فى الولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوربا واليابان وكندا ، وهو ما يعنى أن التنمية فى ظل الثورة الصناعية الثالثة يمكن أن تحدث دون أن تخلق فرص عمل أو وظائف جديدة وهو شئ لم يكن معروفاً من قبل ، وعلينا أن نأخذه فى الاعتبار ونحن نأخذ بوسائل التكنولوجيا الحديثة لتنمية مجتمعاتنا .[2]

ويرتبط بذلك احتمالية انخفاض معدلات الهجرة سواء إلى مجتمعات الخليج أو إلى المجتمعات الصناعية الغربية ، ويرجع انخفاض الهجرة إلى مجتمعات الخليج لأن هذه المجتمعات استكملت تقريباً بناء مرافقها الأساسية إضافة إلى أنها تتبع تنمية لا تؤدى إلى توفير فرص عمل لعمالة خارجية ناهيك عن إنها بدأت تعانى هى نفسها من ارتفاع معدلات بطالة الوطنيين المؤهلين لديها ، أما وقف تيارات الهجرة إلى المجتمعات الغربية الصناعية فيرجع بالأساس إلى لجوء الحكومات فى هذه الدول بسبب تفاقم مشكلات الركود والبطالة فى البلدان الصناعية الرأسمالية إلى مقاومة الهجرة إليها بعد أن كانت الهجرة إلى مجتمعات الشمال منفذاً أمام قوة العمل فى البلاد النامية ومصدراً مهماً من مصادر النقد الأجنبى . وفى هذا الإطار نشير إلى أنه برغم أن العولمة قد تحدد مضمونها فى منطقة الرأسمالية العالمية على أنه الحراك الحر وغير المقيد للسلع ولرؤوس الأموال، فإننا نجد أن الحراك الحر لقوة العمل مقيد [3] وهو ما يشير إلى الممارسة الانتقائية لعناصر العولمة من قبل المجتمعات الرأسمالية .

كذلك نستطيع رصد مجموعة من الظواهر التى سوف تحدث فى مجتمعات الشرق الأوسط وهى قد بدأت الآن تحدث بالفعل . من هذه الظواهر : ارتفاع عدد السكان المعرضين لتيارات العولمة وفى هذا الإطار نلاحظ الارتفاع الواضح لنسبة السكان الذين يتفاعلون مع العالم الخارجى وتتأثر به كل مجتمع أو أمة . وفى المجتمع المصرى مثلاً

---

(1) محمد فايق : مرجع سابق ، ص ١٤١.

(2) المرجع السابق ، ص ١٤١.

(3) أمين ، جلال : العولمة والدولة ص ص ١٥٣- ١٧١ بخاصة ص ١٥٥ ، فى العرب والعولمة (ندوة) ، مرجع سابق.

نجد أن ٦/١ السكان على الأقل يتعاملون بصورة مباشرة أو غير مباشـــرة مـــع الســـياحة وحدها ونسبة مماثلة تتلقى تحويلات أفراد أسرها العاملين خـــارج مصـــر ولقـــد دخلـــت الواردات كل بيت تقريباً ، خاصة تلك التى تضم تكنولوجيـــا الاتصـــال والمعلومـــات [١] يضاف إلى ذلك الاتصال بالخارج من خلال البث الإعلانى والإعلامى ، وبخاصـــة ذلـــك البث الموجه لشريحة الشباب التى تعتبر أكثر الشرائح تأثراً بمضامين العولمة.

إلى جانب ذلك ترتمى الأجيال الجديدة بالجملة فى أحضان العولمة وبخاصة جيل الشباب ، حيث تشير التوجهات الجديدة للأجيال القادمة والشابة على أنها لن تقبل طواعيـــة وبمزيد من اللهفة على الإنترنت والقنوات الفضائية والمعرفة الموســـوعية والمعلوماتيـــة فحسب بل على النشوة من التقاليد الجديدة ذات الطبيعة الاستهلاكية والماديـــة ، وســـيقل أو ينكمش كثيراً لذلك التواجد المرتبـــط بالخصوصيـــات والموروثـــات والأيديولوجيـــات الروحانية التى تواجه العولمة اليوم وبخاصة فى عالمنا الإسلامى بردود فعـــل انكماشـــية وانغلاقية أو هجومية. وإن كانت التجارب قد دلت على أن من يقف فى طريـــق العولمـــة ونظامها العالمى ، فإن الأخيرة على استعداد لأن تحاصره وتهدده وتقنعه بأساليب مباشـــرة وغير مباشرة لتحقيق أغراضها السياسية والاجتماعية .

إضافة إلى ذلك تبرز على الساحة مجموعة من الأوهام والمواقف التى تشير إلى اغتراب الإنسان عن المجتمع ، أو رفض متابعة التطور الحادث حوله . ويتمثل أول هـــذه الأوهام فى ادعاء تأكيد العولمة على الفردية. فحقيقة الفرد فى فرديته . فمن شـــأنه هـــذا الوهم أن يعمل على تخريب الرابطة الجامعية التى تجعل الفرد يعى أن وجوده إنما يكمـــن فى كونه عضواً فى جماعة أو طبقة أو أمة ، وهو ما يعنى أن وهم الفردية يستهدف إلغاء الهوية الجمعية والطبقية والقومية وكل إطار اجتمـــاعى آخـــر ليبقـــى الإطـــار العـــالمى (أو العولمى) وهو وحده الموجود ، وهو الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى تكريس النزعـــة الأنانية وطمس الروح الجماعية. [٢]

كذلك الاعتقاد فى وهم احتمالية غياب الصراع الاجتماعى وهـــو مـــا يعنـــى أن قبولنا للعولمة يعنى الاستسلام لجهات الاستغلال سواء كانت شركات أو وكالات أو أدوات اتصال وإعلام ترسخ العولمة ، وبعبارة أخرى أن هذا الوهم يفرض علينا أن نطبع أنفســـنا

---

[١] سيار الجميل : مرجع سابق ، ص ٣٠٣.

[٢] المرجع السابق ، ص ٣٠٣.

مع الهيمنة وأن نستسلم لعملية الاستشباع الحضـــارى الــذى يشـــكل الـــهدف الأساســـى للعولمة.(١)

كذلك ظهور المواقف المستقبلية ، ففى مواجهة طوفان العولمة قد يمارس البشـــر أحد موقفين إما الرفض المطلق والانغلاق الكلى . وما يتبع ذلك من ردود فعـــــل ســـلبية ومحاربة ، أو مواقف القبول التام للعولمة وما تمارسه مـــن اخـــتراق ثقـــافى واســـتتباع حضارى شعاره (الانفتاح على العصر) و (المراهنة على الحداثة) . هذه المواقف من نوع المواقف اللاتاريخية التى لا تواجه المشاكل بعقل واثق من نفسه ، متمكن مـــن قدراتـــه ، وإنما تستقبلها بعقل مستقيل لا يرى صاحبه مخرجاً من المشاكل إلا بالهروب منها ، إمـــا إلى الوراء وإما إلى الأمام ، رؤيته إلى العالم ذات طبيعة سحرية ، يقفز دائماً من الواقـــع إلى اللاواقع. (٢)

من المواقف التى قد تظهر كذلك كرد فعل لعولمة المجتمعـــات الانغـــلاق فـــى مواجهة العولمة ، أو الانفصال عن المجتمع المحلى والاغـــتراب عنـــه . وفيمـــا يتعلـــق بالانغلاق فهو موقف سلبى موجه ضد الاختراق الثقـــافى والاجتمـــاعى ، لا ينـــال مـــن الاختراق ولا يمسه ، ولكنه يتجه إلى حماية الذات بقصد تهيئتها ، وحينما تحصن الـــذات فى مواجهة ظاهرة عالمية تدخل جميع البيوت وتفعل فعلها بالإغراء والعدوى والحاجـــة ، ويفرضها أصحابها فرضاً بتخطيط واستراتيجية ، فإن الانغلاق فى هذه الحالة ينقلب إلـــى موت بطئ ، قد تتخلله بطولات مدهشة غير أن صاحبه محكوم عليه بالإخفاق !

والاغتراب مثل الانغلاق موقف محكوم على صاحبه بافتقاد الـــذات والهويـــة ، يتجه أصحاب هذا الموقف إلى الارتماء فى أحضان العولمـــة والاندمـــاج فيـــها ، يؤكـــد أصحاب الموقف أنه لا فائدة فى المقاومة ولا فى الاتجاه إلى التراث ، بل يجب الانخـــراط فى العولمة من دون تردد ومن دون حدود لأنها ظاهرة حضارية عالمية لا يمكن الوقـــوف ضدها ولا تحقيق لأى تقدم أو نمو خارجها ، الأمر يتعلق بقطار يجب أن نركبه ، وهـــو ماض فى طريقه بنا أو من دوننا . (٣)

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٠٥.

(٢) نفس المرجع ٣٠٦.

(3) Stephen Crook: Op. Cit, P. 79.

ذلك أن تأثير العولمة سوف يعمل على تغيير بنى المجتمع كما فــرض التغيــير على بنية الثقافة والقيم ، على أن يكون التغيير فى اتجاه الانفصال عن القومية والارتبــاط بالعالمية أو (العولمة) ، وإن حمل الإنسان معه فى حراكه خصوصيته أو محليته.

خامسا : العولمة ومستقبل الدولة فى الشرق الأوسط :

لا شك أن العولمة فرضت تحولا هائلا على الدولة القومية فلم تعد الدولة هـــى " اللوفاثات " " الهوبزى " الذى يسيطر بالسيف على المجتمع وما يضم من مواطنين بـــل تحولت فى ظل العولمة إلى دولة ذات طبيعة أنثوية تطعم المواطنين من ضرعها ، حتـــى هذا الضرع يبدو على وشك الجفاف الآن . الدولة الهوبزية كانت ذات طبيعة ذكوريـــة ، بينما الدولة فى ظل العولمة سوف تصبح ذات طبيعة أنثوية تكتفى بتنظيم البيت لســاكنه ، والقيام على خدمتهم [١] وهو تطور تاريخى طويل بدأ مع نشأة الدولة القومية حيث يمكــن اعتبار هذه النشأة الخطوة الأولى فى اتجاه العولمة.

لقد كان ظهور الدولة القومية نقطة بداية فاصلة فى تاريخ المجتمعات المعــاصرة حيث قامت الدولة مرتبطة بظهور المجتمع القومى ومن ثم بدأت الدولـــة تــأكيد تجــانس البشر فى المجتمع استنادا إلى صيغة المواطنة . وفى هذا الإطار يمكن القول بأن شـــيوع المجتمعات القومية يعتبر فعلا من أفعال العولمة ، بمعنى أن نشر فكرة المجتمع القومـــى كمجتمع كبير يتجاوز الإقطاعيات الصغــيرة كــان تطــورا جوهريــا فـــى التعجيــل بالعولمة [٢]. بحيث أصبحت الدولة القومية هى وحدة التعامل الدولى وارتباطا بذلك وقعت الاتفاقيات بين الدول ، ونشأت المؤسسات الخاصة بتنظيم العلاقات بين الدول. [٣]

لقد أدت الدولة أربعة وظائف تاريخية لعبت دورا أساسيا فى انتشار العولمة فهى أولا قد حققت التجانس الداخلى للمجتمع القومى التى تجسد إرادته الدولة القومية ، بحيــث أصبح الولاء للدولة بالأساس وليس لأى تنظيمات وسيطة بين الفرد والدولة ، وهى وظيفة أكدتها الفلسفة الهوبزية بوضوح.

---

[١] السيد يسن : فى مفهوم العولمة ، مرجع سابق ، ص ٣٠.

[٢] المرجع السابق ، ص ٣١.

[٣] جلال أمين : مرجع سابق ، ص ١٥٨.

وفى عصر الرأسمالية التجارية ، وهو العصر الذى شهد تبلور الدولة القومية تدخلت الدولة تدخلاً فى الاقتصاد القومى الحديث النشأة فقد كان عليها أن تنشئ هذا الاقتصاد إنشاء بتوحيد السوق القومية ، وإزالة العقبات أمام انتقال السلع من مقاطعة إلى أخرى ، وتوفير الأمن اللازم لهذا الانتقال ، وشق الطرق ومد الترع ، وفرض سياج جمركى حول الدولة لحماية الصناعة الناشئة من منافسة دول أخرى كانت تقوم بالمهمة نفسها ، وفى الوقت نفسه كانت الدولة تتدخل أيضاً تدخلاً فعالاً خلق عملية الإنتاج نفسها فتفرض المواصفات الواجب إتباعها فى إنتاج السلع التى كانت تنشئ الجيش القومى اللازم لفتح مستعمرات جديدة لتسويق ما تنتجه. [1]

وحينما قامت الثورة الصناعية بدأت الدولة تقوم بدور آخر فلم يعد ضرورياً أن تتدخل الدولة تدخلاً مباشراً فى عملية الإنتاج التى أصبح من المناسب تركها لقرارات أرباب العمل أنفسهم كما تراجع دور الدولة فى حماية منتجيها من المنافسة الخارجية . وارتفاع شعار (دعه يعمل دعه يمر) كشعار المقصود به أن تترك الدولة المنتجين وشأنهم، وأن تترك التجارة الدولية والداخلية حرة. وحينما حل الاستعمار الحديث فى النصف الثانى من القرن الماضى، والنصف الأول من القرن العشرين شمرت الدولة عن ساعدها وقامت بالواجب الجديد المطلوب منها خير قيام ، تجيش الجيوش لفتح المستعمرات الجديدة واحتلال بلاد بعيدة والدخول فى حرب لمنع دولة أخرى من الحصول على مستعمرة ، أو احتلال بلد بدلاً منها كما قامت بمهمة إشعال الحماس الوطنى وترسيخ الشعور بالولاء للأمة والدولة . [2]

ثم قامت الدولة الأوربية وبخاصة الدولة الاستعمارية بنقل بناء الدولة الحديثة إلى المستعمرات أى إلى مجتمعات العالم الثالث وذلك حتى تؤسس وحدات مناظرة تيسر عملية استغلال هذه المجتمعات.

ويمكن القول بأن الدولة فى العالم الثالث قد مرت هى الأخرى بثلاث مراحل ففى الخمسينات إلى التسعينات حيث عصر الحرب الباردة كانت دول العالم الثالث قد حصلت لمجتمعاتها على الاستقلال إما كحصاد لنضال وطنى، أو بطريق سلمى من خلال الرحيل السلمى للاستعمار وقد حاولت الدولة أن تقود تنمية وطنية فعالة وقدم الدعم لها

---

[1] المرجع السابق ، ص ١٥٨.

[2] على ليلة : العالم الثالث ، مشكلات وقضايا ، مرجع سابق ، ص ٣٠٥.

من قبل المعسكر الشرقى والغربى على السواء، كل معسكر يحـــاول اســتعداءها علـــى المعسكر الآخر . ومن ثم تدفقت المعونات على دول العالم الثالث بمعدل ليس لـــه نظـــير من قبل أو من بعد . وقد اتخذت المعونات صورة معونات للحكومـــة وليســت صـــورة الاستثمار المباشر ، أو معونات للقطاع الخاص . كان لابد أن يقوى دور الدولـــة نتيجـــة لذلك ، وأن يؤدى كل هذا إلى نشوء عصر الدولة القوية فى العالم الثالث ، دولـــة تذكـــر بشدة بالدولة فى عصر التجاريين . فالدولة تتدخل فى كل صغيرة وكبيرة، فى الاقتصـــاد والمجتمع ، وهى تعلن عن خطط خمسية طموحة للتنمية ، وهى تفرض سياجاً جمركيـــاً عالياً لحماية صناعاتها الناشئة ، وهى تقوم بجهد جبار فـــى القيـــام بمشـــروعات البنيـــة الأساسية ، وفى كثير من الأحيان تتبنى الاشتراكية ، أى تقوم الدولة بدور فعـــال لإعـــادة توزيع الدخل حتى فى البلاد المتحالفة مع الدول الرأسمالية ، حيث تجد نفســـها مضطـــرة لرفع شعارات من هذا النوع ، والمؤسسات الدولية، كالبنك الدولى وصندوق النقد الدولـــى، تبدى تسامحاً غريباً أمام كل هذه الأفكار بل هى نفسها تتكلم برضا عن نظـــام التخطيـــط وعن دور الدول فى الاقتصاد . [1]

وقد بدأت المرحلة الثانية مع نهاية الستينات وأوائل السبعينات حيـــث انتكســت الثورة فى العالم الثالث ، وفشلت غالبية تجارب التنمية فى تحقيق الآمال المعقودة عليـــها ، بل وحققت بعض هذه التجارب معدلات نمو سلبية ، وواجه كثير مـــن مجتمعـــات ودول العالم الثالث مشكلات طاحنة وتجارب مريرة ، ولقد تواكب ذلك مع بداية تيـــار العولمـــة الجديد ، وبزوغ نجم الشركات المتعددة الجنسية ، ومن ثم كان علـــى الدولـــة أن ترخـــى قبضتها شيئاً فشيئاً على الاقتصاد والمجتمع تحقيقاً لمصالح هـــذه الشـــركات . فالأســـوار الجمركية يجرى هدمها ، ونظام التخطيط يتم إلغاؤه ، والاشتراكية تصبـــح مضغـــة فـــى الأفواه ، وإعادة توزيع الدخل وما يقدم دعماً للسلع الضرورية يقال إنه يتعارض تعارضـــاً صريحاً مع اعتبارات الكفاءة ويضر بالتنمية . [2]

ثم تأتى المرحلة الثالثة لنجد أنفسنا فى مواجهة الدولة الضعيفة ، حيـــث تظـــهر الدولة بصورة جديدة لا تخلو من سمات كوميدية ، دولة لها المظاهر الخارجية لدولة ذات سيادة وتباشر صورياً كل المهام التى كانت تباشرها من قبل ، ولكنها تقوم بوظيفة تكـــاد

---

[1] المرجع السابق ، ص ١٦١.

[2] نفس المرجع ، ص ١٦٢.

تنحصر فى وظيفة (الجلاء والتسليم) أى سحب يدها من كل ما كانت تضع يدها فيه من قبل ، أو تسليمه للأجانب ، مع القيام بالترويج لهذه الوظيفة والزعم بأنها تحقق المصلحة العامة : مصلحة الأمة بما فى ذلك مصلحة الفقراء أيضا . فهى مثلا تبيع الشركات والمشروعات التى تأسست فى عهد الدولة القوية ، تبيعها للشركات الدولية العملاقة ، وتسمى هذا خصخصة أو تخصيصية ، أو اسما من هذا النوع لا يفصح عن هوية المشترى . وهى تسحب الدعم المقدم للفقراء وتسميه تثبيتا اقتصاديا ، وهى تفتح الباب على مصراعيه أمام السلع المستوردة تحل محل المنتجات الوطنية وتسمى ذلك تكيفا هيكليا . [1]

ولا تخضع الدولة الضعيفة فى مجتمعات العالم الثالث فقط لظاهرة العولمة ، ولكن تخضع لها كذلك الدولة العظمى فى المركز ، وإن كانت آليات العولمة تعمل لصالح الأخيرة وعلى حساب الأولى . ولعل أفضل تشخيص لذلك الرد الذى قدمه وزير المالية الأمريكى روبرت روبن ردا على رئيس وزراء ماليزيا الذى هاجم شرور العولمة والمضاربين فى أسواق العملات والأسهم ، كما انتقد الدول الكبرى لإجبارها البلدان الأسيوية على فتح أسواقها للمتاجرين بالعملات لتدمير اقتصادياتها إذ قال " اعذرنى محمد، ولكن على أى كوكب أنت تعيش ، أنت تتكلم عن العولمة كأن ذلك يتضمن خيارا متاحا لك . العولمة ليست خيارا وإنما حقيقة واقعة ، يوجد اليوم سوق عولمة واحدة . والطريقة الوحيدة الممكن أن تنمو فيها هى اللجوء إلى أسواق السندات والأسهم للحصول على الاستثمارات ، وبيع ما تنتجه مصانعك فى أسواق العولمة التجارية. كما أن أهم حقيقة حول العولمة هى أن أحدا لا يسيطر ، أسواق العولمة تشبه الإنترنت ، لا يوجد أحد فى مركز السيطرة ، لا جورج سورس ولا القوى الكبرى ولا أنا ".

فسوق العولمة اليوم عبارة عن قطيع إلكترونى من متاجرين مجهولين بالعملات والأسهم وسندات المشاركة يجلسون وراء أجهزة الكمبيوتر . . وهؤلاء لا يعترفون بالظروف الخاصة (لأى دولة) ، وإنما يعترفون فقط بقواعدهم ، وهى إلى حد بعيد متسقة. فهم يحددون نسبة الادخار التى يجب أن تحققها دولتك ، ومستوى الفوائد ونسبة عجز الموازنة للناتج المحلى الإجمالى ، ومستوى عجز ميزان المدفوعات الجارى . فالقطيع

---

[1] الأطرش ، محمد : العرب والعولمة : ما العمل ، ص ص ٤١١- ٤٤١ بخاصة ص ص ٤١٢- ٤١٣ فى (العرب والعولمة) ، ندوة ، مرجع سابق.

يرعى فى ١٨٠ دولة ، لذلك ليس لديه وقت لأن ينظر إلى وضعك بالتفصيل، إنه يتوصل إلى أحكامه بصورة خاطفة عما إذا كنت تعيش إستناداً إلى قواعده.[١]

وتؤثر العولمة على الدولة من بعدين ، حيث يضم البعد الأول التأثيرات أو المتغيرات التى تطرأ على الدولة من خارجها ، بينما يضم البعد الثانى المتغيرات التى تضعف الدولة من داخلها. وفيما يتعلق بمتغيرات إضعاف الدولة من الخارج ، نجد أن المتغير الأول يتعلق بدور الدولة العظمى فى إضعاف الدولة المحلية فى الشرق الأوسط . حيث بدأت دولة القوى الكبرى تتعامل مع المجتمع من خلف ظهر الدولة. وفى إطار تراجع دور الدولة المحلية الآن أو استغناء الرأسمالية الكوكبية عن وساطة الحكومات تفضل الشركات المتعددة الجنسية التعامل المباشر فى مجتمعاتنا ، سواء من خلال القطاع العام أو القطاع الخاص بدون الحاجة إلى مساندة الدولة المحلية لتفتح لها الباب ، فأهل الجنوب يهرولون الآن لطرق الباب من جهتهم . [٢]

ونتيجة لذلك بدأت الدولة تعجز عن السيطرة على الفضاء الواقع داخل حدودها فلقد يسرت تكنولوجيا الاتصال الحديثة ممثلة فى الأقمار الصناعية والقنوات الفضائية اختراق معظم المجتمعات حيث أصبح تأثيرها يفوق وسائل الثقافة التقليدية والمحلية ، وغيرها من الوسائل القابلة للمراقبة والضبط ونظام القنوات المتعددة أو ما يطلق عليه (التليفزيون بلا قنوات) الذى يتيح للمشاهد مشاهدة ما يرغب فيه فى الوقت الذى يريده دون قدرته على التحكم فى ذلك من الخارج ، ودون قدرة من الدولة وأجهزتها على مراقبة ما يبث فيها أو يعرض . ويجسد ذلك مشكلة الإنترنت بالنسبة لجهاز الكمبيوتر الشخصى أو مشكلة استخدام الأطباق الهوائية بالنسبة لجهاز التليفزيون الأمر الذى يجعل السلطات المحلية فى أى دولة سواء من العالم الثالث أو العالم الغربى ، عاجزة عن منع أفرادها من التقاط البث التليفزيونى أو استقبال وسائل الإنترنت أو إرسالها.[٣]

ومن الطبيعى أن يثير ذلك الكثير من الشكوك والمخاوف لدى الحكومات والشعوب فى آن واحد ، فالحكومات تحكمها المخاوف السياسية التى يمكن أن تنجم عن بث برامج معادية بأنظمة الحكم ، أو بث أفكار وأيديولوجيات تهدد الاستقرار السياسى

---

[١] إسماعيل صبرى عبدالله : مرجع سابق ، ص ص ٣٦٨- ٣٦٩.

[٢] الهيئة العامة للاستعلامات ، وزارة الأعلام ، مرجع سابق ، ص ٤٠.

[٣] المرجع السابق ، ص ٥٠.

والاجتماعى فى هذه الدول ، وبالإضافة إلى الحكومات هناك قوى سياسية واجتماعية مؤثرة فى العديد من المجتمعات عبرت عن خشيتها من هذا النظام الإعلامى المقترح لما قد يمثله من تهديد لنسق وتقاليد وعادات الشعوب . [1]

ويتبدى عجز الدولة من احتمال انسحابها الكامل ، فإذا كانت العولمة قدرا لا يمكن تجنبه ، وإذا كان اقتصاد السوق هو الصيغة التى يجب أن نأخذ بها شئنا أم أبينا ، فمن المنطقى التأكيد على ضرورة وجود دولة قوية فى ظل نظام السوق ، حتى تستطيع السوق أن تقوم بدورها ، وحتى يمكن أن تتدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية باعتبارها سلطة وليس منتجا ، وأعنى السلطة التى تحدد شروط مباشرة النظام الاقتصادى وإصدار السياسات النقدية والمالية والتجارية . وبذلك لا تتناقض سلطة الدولة مع تطور الحياة الاقتصادية ، فالاقتصاد الحر لا يعنى غياب دور الدولة عن الحياة الاقتصادية . وإنما يعنى أن تترك الدولة مجال الإنتاج المباشر للسلع والخدمات للأفراد والمشروعات الخاصة ، ويعنى ثانيا أن تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية بوسائل أخرى أكثر فاعلية من حيث مراقبة الكفاءة الإنتاجية [2] غير أن القوى العظمى من خلال ضغوطها أو من خلال آلية الشركات المتعددة الجنسية لن تترك الدولة حرة لأداء دورها بحجمه الطبيعى، وإلا تعرضت للعقاب الذى يودى بالدولة ذاتها ، ومن ثم تعمل على إضعافها حتى تصبح الأسواق مفتوحة بلا عوائق أو قيود. ويتمثل المتغير الثانى المتصل بالضغوط الخارجية الممارسة على الدولة فى الدور الذى تلعبه الشركات المتعدية للجنسية ، فنظرا لانتشار أعمال الشركات المتعددة الجنسية فى أكثر من تجمع وأكثر من اقتصاد فإنها لا تبقى العملية الاقتصادية داخل نطاق اقتصاد بعينه ولكنها توزع عناصرها بين عدد من الاقتصاديات ، وحينما تحول الشركة مراعاة التوازن فى البناء الاقتصادى ، فإنها لا تهتم بتوازن اقتصاد بعينه ولكن بتوازن البيئة الاقتصادية للشركة ذاتها ، بغض النظر عن مواجهة الاقتصاديات المحلية للانهيار ، ولعل أبرز مثال على ذلك ما فعلته شركة "رينو " الفرنسية التى قامت بتعديل حجم نشاطها ، لأنها رأت أن فى ذلك مصلحتها دون أن تهتم بمدى أضرار ذلك بمصلحة دولة بلجيكا أو بمصلحة العاملين فى الشركة من مواطنى

---

[1] نفس المرجع ، ص ٥١.

[2] محمد محمود الإمام : مرجع سابق ، ص ٨٣.

هذه الدولة . [1]

ولم تكتف الشركات المتعددة الجنسية بالالتفاف على الدولة والتخلص من القيــود التى تفرضها ، بل سعت إلى احتواء الدولة وتسخيرها لخدمتها ، حيث تقنع الدولة بـدور " مدبرة " المنزل (House Keeper) وفق ما تمليه إدارة الشركات المتعددة الجنســية ومــا يخدمها من مؤسسات دولية [2] دون أن تكون الدولة القومية مستفيدة مـــن ذلــك ، كــأن الوظيفة الأساسية والاقتصادية للدولة الآن ومستقبلاً هى إعداد المجتمع للاستغلال دون أن تحاول الدفاع عن المجتمع فى مواجهة هذه الشركات.

وفى هذا الإطار نستطيع أن نقول إنه إذا كانت الدولة فى مرحلة ســـابقة تقــوم بالتخطيط لتطوير مجتمعها وتنميته ، وإنها إذا كانت قد تخلت عـــن مركزيـــة التخطيـط لصالح آليات السوق فإن ما حدث يتمثل فى أن وظيفة التخطيط قد انتقلت إلى الشــــركات المتعددة الجنسية فهى تخطط لنشاطها سواء فيما يتعلق بالمواد الأولية أو تصريف الســـلع فى الأسواق بما يساعد على التحقيق الدقيق بأهدافها ومصالحها وهو مـــا يعنـــى أن هــذه الشركات قد استبدلت تخطيطها بتخطيط الدولة التى تركت مجتمعها لترسم مستقبل تطـوره هذه الشركات [3] . وهو ما يعنى أن الشركات المتعددة الجنسية بدأت تحل تدريجياً محـــل الدولة ، كما حلت الدولة محل الإقطاعية ، وذلك بسبب التقدم التكنولوجى وزيادة الإنتـــاج والحاجة إلى أسواق أوسع . فلم تعد حدود الدولة القومية هى حدود السوق الجديدة ، بـــل أصبح العالم كله مجالاً للتسويق سواء كان تسويقاً لسلع تامة الصنع أو تسويقاً لمســتلزمات وعناصر الإنتاج أو تسويقاً لمعلومات وأفكار . وبذلك قفزت الشركة المنتجة فوق أســـوار الدولة، وأخذت هذه الأسوار تفقد قيمتها الفعلية ، بل أصبحت أكثر فأكثر أســـواراً شـــكلية سواء تمثلت فى حواجز جمركية أو حدود ممارسة السياسات النقدية والماليـــة أو حـــدود السلطة السياسية أو حدود بث المعلومات والأفكار أو حدود الولاء والخضوع . الحواجـــز الجمركية تتخطاها هذه الشركات ، إما بالاستثمار المباشر داخل البلد المطلــوب غــزوه ، أو عن طريق اتفاقيات وجولة أورجواى . [4]

---

[1] المرجع السابق ، ص ٨٨.

[2] جلال أمين ، مرجع سابق ، ص ١٦٥.

[3] المرجع السابق ، ص ١٥٦.

[4] كريم بقرادونى : مرجع سابق ، ص ٥٨.

وتعتبر العولمة الرأسمالية ذاتها هى المتغير الخارجي الآخر الذى سعى إلى إضعاف الدولة القومية . لقد كان هناك تناقض أساسى بين الرأسمالية والدولة القومية التى تفرض القيود داخل حدودها حيث تمارس سيادتها ولقد حولت الرأسمالية الالتفاف حول الدولة القومية بأنظمتها المالية والنقدية والتشريعية ونجحت فى الكثير من الأحيان ، غير أن الدولة القومية ظلت فى نهاية الأمر عائقا أمام متطلبات توسيع السوق . ومع ظهور الشركات متعددة الجنسية والانتقال إلى مرحلة دولة الإنتاج ، ومع اشتداد أزمة الرأسمالية مع بداية السبعينات واشتعال المنافسة بين دولة المركز ، أصبح من الضرورى إقصاء الدولة القومية نهائيا من الطريق حتى يفتح الباب واسعا أمام تكوين سوق عالمية موحدة بالكامل لأول مرة فى تاريخ الإنسانية . [1]

وإذا كانت العولمة تنادى بحقوق الإنسان ، فإنها التى انتهكت هذه الحقوق ، حينما انتهكت السيادة الوطنية سواء من خلال الشركات المتعددة الجنسية أو من خلال المؤسسات الدولية . فعندما تدعو العولمة إلى تهميش دور الدولة وإضعافها ، فإن ذلك يأتى فى سياق أفكارها وتطبيقاتها الليبرالية الجديدة على أرض الواقع . فهى تريد دولة ضعيفة ، من السهل السيطرة عليها ، تريد استخدام الدولة فى المجتمعات النامية كحارس لمصالحها [2] التى ليست بالتأكيد مصالح مجتمع الدولة القومية . بالإضافة إلى ذلك هناك مجموعة المتغيرات التى سوف تضعف الدولة من داخلها وتتصل هذه المتغيرات بقيام المؤسسات والتنظيمات الداخلية بسلب الدولة لأهم وظائفها ، أو بالأصح تخلى الدولة عن وظائفها لهذه المؤسسات . الأمر الذى سيؤدى فى النهاية إلى وجود الدولة كعضو بلا وظيفة حقيقية أو إسهام حقيقى فى الوجود البنائى للمجتمع ، الأمر الذى سوف يفرض التأكيد على ثانويتها أو عدم أهميتها .

ويتمثل المتغير الداخلى الأول فى إضعاف الدولة فى تخلى الدولة عن وظيفتها الإنتاجية ، حيث تصدر الدولة التشريعات لتوسيع صلاحيات وفعاليات القطاع الخاص – أجنبى أو محلى – والعمل على تقليص دور القطاع العام ، وهو الأمر الذى سوف يؤدى فى النهاية إلى إضعاف موارد الدولة ، إلى جانب تشكيل قوة ضاغطة على الدولة تتشكل من رجال الأعمال الذين سوف يسعون إلى تحقيق نجاحات اجتماعية ولو على حساب

---

[1] الحمش ، منير : تعقيب ص ص ٥٣– ٥٤ بخاصة ص ٥٤ فى (العرب والعولمة) ، مرجع سابق .

[2] السيد يسن : العولمة والطريق الثالث ، مرجع سابق ، ص ٩٨.

البعد الاجتماعى الذى سيكون له تأثيره على غالبية البشر فى المجتمع ، وإذا لم تستطع الدولة حماية البعد الاجتماعى وإذا لم تستطع السيطرة على الإنتاج أو على الأقل تنظيمه وتوجيهه ، فإن ولاء المواطن سوف يتجه إلى جماعة الضغط الجديدة ، منصرفا عن الدولة ، بل إن الدولة ذاتها قد تجد نفسها فى مرحلة ما ، تستجدى بقاءها واستقرارها من هذه الجماعة الجديدة الضاغطة .

وتمثل الجماعات أو المنظمات الطوعية المتغير الثانى الذى يشكل نفيا لفاعلية الدولة ، وسواء قامت المنظمات الطوعية بدعم خارجى لأداء وظائف ذات أهمية بالنسبة للمجتمع المدنى ، حتى تهمش وجود الدولة بالنسبة للمجتمع ، أو أن المجتمع المدنى قد أسس هذه التنظيمات الطوعية تلقائيا ، لتقوم بإشباع احتياجات عجزت الدولة عن توفير إشباع لها ، ومن المؤكد أن وجود هذه المنظمات وأداءها لمهامها فى نطاق الواقع الاجتماعى يعد مؤشرا أساسيا على تآكل أو عجز فاعلية الدولة فى هذه المجالات . وذلك يعنى أن إحياء المجتمع المدنى فى مختلف أنحاء العالم ، وتحول المنظمات الطوعية إلى طرف فاعل فى النظام الدولى يضغط على الدولة فى بعض الأحيان لإدراكنا أن ثمة علاقة بين عناصر عديدة تدفع بالدولة إلى منطقة الاحتواء الخافتة فى خلفية المسرح.

وتشكل شركات الحراسة والأمن المتغير الثالث ، الذى يمكن اعتباره – على الأقل – مؤشرا على انسحاب الدولة ، وإذا كانت الوظائف الأساسية للدولة القومية فى الفلسفة الهوبزية وكل فلسفات العقد الاجتماعى وهو التراث الذى مهد لنشأة الدولة ، تتمثل فى توفير الأمن الداخلى وضبط التفاعل الاجتماعى إضافة إلى حماية المجتمع من أى عدوان خارجى ، فإن ما نلاحظه اليوم هو تآكل الوظيفة الضبطية للدولة فى المجال الداخلى ، مؤشر ذلك شركات الأمن العديدة التى صرح بقيامها ، للتتولى هى عمليات الحراسة والضبط والحفاظ على الأمن ، الأمر الذى دفع إلى انكماش الوظيفة الأمنية التى إذا سحبت من يد الدولة ، سوف تبقى لها وظيفة حراسة المجتمع ضد أى عدوان خارجى، بينما اختراق ما هو خارج حدود الدولة أصبح يقوم بإعادة تشكيل بنية المجتمع بداخلها.

وأخيرا فإن اتجاه الدولة القومية إلى صبغة اللامركزية فى الإدارة والتنمية ، وهى الصبغة التى تتخلى الدولة المركزية من خلالها عن كثير من سلطاتها للسلطات المحلية ، من شأنه أن يختزل مؤسسة الدولة إلى عنصر ضئيل ومحدود وثانوى فى بناء المجتمع القومى وهو عنصر يكمل الصورة العامة دون أن يكون فعالا فى تشكيل هذه الصورة وذلك يعنى أنه إذا اكتملت هذه التطورات التى بدأت الآن فإنه سوف يصبح مؤشرا على انهيار الدولة القومية واستقالتها.

مقال فى الحوار

أ.د. حامد طاهر *

الحوار هو إحدى السمات الحضارية التى ينتقل بـــها الإنســـان من حالة العزلة والتوحش، إلى الحياة المدنية والاجتماعية . وهو فـــى نفس الوقت وسيلة التفاهم بين الأفراد والشعوب من أجل تبادل المصالح وتحقيق المنافع . وعندما يفشل الحوار بين الأفراد تحدث القطيعة ، كما أنه عندما يتوقف بين الدول تقع الحروب . وليس صحيحاً ما يقـــال إن

* أستاذ الفلسفة الإسلامية ، ونائب رئيس جامعة القاهرة.

الحرب هى أحد أنواع لغة الحوار ، فليس فى الحرب حوار على الإطلاق ، لأنه لا يوجد حوار فى حال القتل والتدمير ، وإنما هى غريزة الغضب ، حين تعبر عن نفسها بصورة وحشية ، وهذا ما يجعلنا نقرر أن الحوار مرتبط بالعقل والمصلحة والعمران ، وأنه بقدر ما يكون هناك حوار متصل بين الدول يبتعد شبح العدوان والتخريب.

ومن ناحية أخرى فإن استمرار الحوار فى المجتمع ، وتعدد مستوياته ، وتنوع موضوعاته – تعد علامة صحية على حيوية هذا المجتمع ، واتجاهه إلى مزيد من التقدم، وتحقيق الازدهار . وفى المقابل من ذلك ، فإن المجتمع الخالى من الحوار تسوده العزلة ، وينخر فيه الضمور ، على الرغم مما قد يبدو على سطحه من الهدوء والاستقرار . وكما قيل بحق إنه لا يوجد مكان أكثر هدوءاً واستقراراً من القبور !

دوائر الحوار :

للحوار دوائر متعددة . تبدأ من دائرة حوار الإنسان مع نفسه . والواقع أن هذا الحوار لا يتوقف أبداً . وهو يتجلى بصورة واضحة قبل اتخاذ القرارات ، وكذلك بعدها. وهذا هو المستوى الواقعى الذى تترتب عليه نتائج عملية فى الحياة اليومية . ولا شك أن درجة الثقافة والوعى بالبيئة المحيطة إلى جانب الذكاء الشخصى تعدّ عوامل هامة فى جودة اتخاذ القرارات المناسبة فى مختلف المواقف التى يتعرض لها الإنسان .

لكننا ينبغى أن نتنبه إلى أن حوار الإنسان مع نفسه قد ينتقل إلى

مستوى خيالى خالص، وهو ما يطلق عليه عادة أحـــلام اليقظـــة ، أى الحوار مع النفس حول أمور غير قابلة للتحقيق . وليس هذا المســـتوى مرفوضاً كله ، بل إنه مطلوب بجرعات محددة ، يكون الغرض منـــها حَفْز صاحبها إلى مزيد من العمل وبذل الجهد ، أما خطورته فتتمثل فى الاستنامة له ، وإدمانه على نحو مَرضى ، والأكثر خطورة أن الحـــوار يتحول من الحديث بين اثنين إلى حديث من طرف واحـــد ، وإصغـــاء كامل من الطرف الآخر (الإنسان ونفسه).

وتتمثل الدائرة الثانية فى حوار الإنسان مـــع أفـــراد أســـرته ، وأصدقائه . وأهم ما يميز هذا النوع هو الحرص على مصلحة الإنسان، وشيوع روح المودة، وتناول مختلف الموضوعات بدون حرج ، لكـــن أهم ما يفسده هو الاقتصار على سماع الرأى الذى يتمشى مـــع ميـــول الإنسان وأهوائه ، ونفوره من الرأى الذى يتعارض معها . هنا ينقطـــع الحوار ، ولا يبقى إلا صوت واحد ، هو الصوت الذى يريد أو يرغـــب الإنسان فى سماعه . وعند التحليل الأخير، لن يكون هذا الرأى إلا رأيه هو ! إن الحوار الحقيقى يحتاج إلى احتكاك عقول بعضـــها ببعـــض ، وهذا الاحتكاك هو الذى يولد وجهات النظر المختلفة ، والتى لا تخلـــو كل واحدة منها من فائدة . وكما قال (بول فاليرى) بحـــق: " علينـــا أن نغتنى بخلافاتنا" والمقصود أن نستفيد من الآراء الأخـــرى باعتبارهـــا وجهات نظر للموضوع أو للمشكلة المطروحة من زوايا متعددة ، قـــد تتيح لنا مالا تتيحه النظرة الواحدة من منظور واحد.

أما الدائرة الثالثة فتتمثل فى حوار الإنسان مع زملاء العمـــل . وهنا ينحصر الحوار فى مجال أو مجالات محددة ، ويحركه فى الغالب

حب الغلبة ، والمنافسة ، لكنه عندما يخلو من المطـــامع والأغـــراض الشخصية ، وينصب على مصلحة العمل ، وتحســـين وســـائل الأداء ، أو زيادة الإنتاج فإنه يكون مثمراً للغاية. ومما يساعد على ذلك وجـــود القدوة على رأس العمل، الذى يهيئ الظروف المناسبة للحوار البنـــاء ، من خلال اجتماعات ، تشيع فيها روح الديمقراطية ، وعدم الخوف مـــن التعبير عن مختلـــف الآراء، وتشـــجيع أصحـــاب الأفكـــار الجديـــدة والمبادرات.

وهنا لابد من التوقف قليلاً عند كلمة مأثورة فى ثقافتنا العربيـــة تقرر أن " اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية " . وهى عبارة جميلة جداً تتضمن قاعدة ذهبية من قواعد الحوار ، لكننا نلاحظ عدم تطبيقها فـــى حياتنا اليومية ، ولا فى معاملاتنا مع الآخرين . فنحن نغضب جداً ممن يختلف معنا فى الرأى ، ويسرع المنافقون فيصورونه لنا على أنه عـــدو يسعى لتدميرنا ، وهكذا يتحول صاحب الرأى المخالف إلـــى " جبهـــة أخرى " تستحق التدمير ، بدلاً من أن نواصل الحـــوار معـــه بـــهدف الوصول إلى أرضية مشتركة ، أو نقطة وسط.

ومن التجارب المتكررة التى مرت بى فى هـــذا المســـتوى أن صاحب الرأى الآخر أو المختلف قد يخونه التعبير ، فيذكر ألفاظا قـــد تسيء إلى من يحاوره ، وهنا يتحول الحوار إلى عـــراك شـــخصى ، ويبتعد تماما عن الموضوعات التى كانت أساسا للحـــوار. وهكـــذا قـــد تتسبب زلة لسان فى إفساد حوار ، كان من الممكن أن يؤدى إلى نتـــائج جيدة.

وإلى جانب ذلك ، هناك عبارات قد يستخدمها المحاور فتهدئ من عدوانية الطرف الآخر ، وأحياناً ما تقوم بتخديره . وقد لاحظت كثيراً أن بعض الأشخاص كان يحشو حديثه بألفاظ (حضرتك ، سيادتك، سعادتكم . . إلخ) بينما ينطوى الحديث على الكثير من المغالطات والأخطاء ، ومع ذلك كانت تغتفر له . وهذا هو ما يطيب لى أن أطلق عليه مصطلح " مخدرات الحوار " . وبالطبع فإنها لا تؤثر إلا فى المدمنين على سماع المديح ، أو الذين يفضلون عدم استخدام عقولهم.

وأخيراً نصل إلى دائرة للحوار أكثر اتساعاً وتنوعاً ، وهى حوار الإنسان مع المجتمع. ولا شك أن هذه الدائرة تشمل حشداً متنوعاً من أنواع الحوار التى يجريها الإنسان مع أشخاص قد يرغب فى إقامة علاقات معهم ، أو تضعهم الظروف فى طريقه. فمثلاً عندما تسافر فى قطار أو طائرة تجد نفسك بجوار شخص لا مفر من أن تتبادل معه بعض كلمات المجاملة ، التى قد تتحول إلى حوار ينتهى عادة بانتهاء الرحلة. فى هذا النوع من الحوار عليك أن تستخدم كل ثقافتك التى حصّلتها حتى تكون على مستوى الحدث - كما يقولون ، فلا ينبغى أن تبدو أقل من محاورك معرفة أو اطلاعاً . وعليك فى هذه الحالة أن تتقبل منه بعض الآراء التى قد لا تروق لك ، كما أن عليك أن تجعل الحديث عذباً وتحافظ على استمراره . هنا يتخلل الحوار الكثير من الابتسامات ، وهز الرأس موافقة ، ويكاد ينعدم الخلاف .

لكنك حين تضطر لاستدعاء من يصلح لك الثلاجة أو التليفزيون فى المنزل ، عليك أن تجرى حواراً من نوع آخر تماماً . فأنت تريد تحقيق مصلحتك بأقل مبلغ ممكن ، والطرف الآخر يبالغ فى حجم

الإصلاح ، وبالتالى يزيد الأجر . وهنا يدور حوار قد تعلو نبراته وتهبط، وتستخدم فيه وسائل متعددة منها التهديد بالتعامل مع عامل آخر، ومنها الإغراء باستمرار التعامل معه فى المستقبل ، ومنها الاستعطاف والاسترضاء حتى يصل الحوار إلى الهدف المطلوب ، وهو تحقيق مصلحة كلا الطرفين .

وهكذا فإن دائرة حوار الفرد مع المجتمع تتسع وتتنوع لتشمل أحياناً حواراً مع تلميذ فى مدرسة ، أو طالب فى جامعة ، أو عامل فى مصنع ، أو فلاح فى حقل ، أو شخص على مقهى ، أو بائع فى محل ، أو شرطى فى مخفر . . وكما يتضمن حواراً هادئاً ومعقولاً فإنه قد يشمل حواراً صاخباً ومتهوراً . وهنا ينبغى على الإنسان أن يكون على وعى بمستويات الثقافة الموجودة فى المجتمع ، وأن يجيد التعامل مع كل منها دون استعلاء عليها ، أو تفريط لحقوقه فيها . ولا شك أن إجراء الحوار مع كل من هذه الأطراف المتنوعة يتطلب لغة خاصة، وأسلوباً فى الإقناع يتناسب مع صاحبه . وهو يثبت أننا لم نعد أمام " حوار " واحد ، وإنما أمام " حوارات " متعددة . وهذا يقودنا إلى الحديث عن أنواع الحوار.

أنواع الحوار :

للحوار أنواع كثيرة ، تختلف باختلاف المنظور إليها ، فهناك أنواع للحوار من حيث شكله ، وأنواع أخرى من حيث طابعه ، وأنواع ثالثة من حيث نتائجه ، وفيما يلى كلمة مختصرة عن كل نوع منها تبعاً للمنظور الخاص بها :

أ) الحوار من حيث شكله

هناك نوعان أساسيان هما الحوار الشفهى ، والحوار المكتوب. ومن الواضح أن الأول منهما هو المستخدم فى سائر شئون الحياة اليومية ، وهو يتميز بالحيوية والسرعة ، ويهدف إلى تحقيق المصالح العاجلة ، مستخدماً الحجج الخطابية والعاطفية إلى جانب القليل من الحجج العقلية .

أما الحوار المكتوب فيمكن وصفه بأنه حوار العقل والمنطق ، وهو يمتلئ بالحجج البرهانية والجدلية ، ولأنه لا يسعى لتحقيق مصالح عاجلة أو قريبة فإنه يتسم بالطول ، وبقدر من البرود ، لأنه يناقش أفكاراً ، واللجوء فيه إلى العاطفة أو الانفعال يعد أمراً معيباً . كذلك فإن التجريح الشخصى يهبط بقيمته ، ويخرجه عن المستوى اللائق به.

وللحوار المكتوب أصول يجب الالتزام بها ، وآداب ينبغى مراعاتها . فمن ذلك مثلاً : الأمانة فى عرض وجهة النظر الأخرى ، وتحديد نقاط الخلاف الرئيسية ، والرد على كل منها بموضوعية ، وتوثيق المعلومات الواردة بقدر الإمكان ، مع بيان الأساس أو الأسس التى يستند إليها الرد والمردود عليه ، وفى كل ذلك ينبغى إظهار الاحترام اللائق لصاحب الرأى الآخر ، والابتعاد تماماً عن الإساءة إليه أو الاستهزاء به ، حتى ولو كانت آراؤه ضعيفة ، وحججه متهافتة .

وفى ثقافتنا العربية صفحات كثيرة ورائعة تعد نماذج جيدة على الالتزام الكامل بأصول الحوار وآدابه . ويكفى أن لدينا علماً خاصاً بذلك، هو " علم آداب البحث والمناظرة " . لكننا نعثر أيضاً على مناظرات تمثل أنواعاً من الحوار، الذى لم يتحقق فيه هذا الالتزام ،

أو تحقق بدرجات متفاوتة ، وجرى فيه تجريح الخصوم ووصفهم بالكفر والفسق والفجور ، كما تم تشبيههم أحياناً بالخنازير والكلاب !

ب) الحوار من حيث طابعه

توجد ثلاثة أنواع من الحوار ، أولها الحوار الهادئ الحميم الذى يدور عادة بين أطراف متفقة سلفاً فى الرأى والتوجهات. وهذا الحوار على الرغم من أوصافه التى تحظى من الجميع بالقبول والرضا، إلا أنه قد يتحول بالتدريج إلى نوع من الحوار مع النفس ، أى حوار من طرف واحد ، لا يوجد فيه سوى رأى واحد ، يُوافق عليه المتحاورون.

وثانيها الحوار الموضوعى الذى يدور عادة بين أطراف مختلفة فى الرأى، يعرض كل منهم وجهة نظره ، مدعماً إياها بالأدلة ، وموضحاً بالأمثلة، لإقناع الأطراف الأخرى ، ثم يقوم غيره بعرض ما لديه ، وهكذا يسير الحوار بنظام وموضوعية ، مع إتاحة الفرصة للتعقيبات ، وإعطاء كل واحد من المتحاورين الوقت المناسب والمحدد له ، حتى يتبلور فى النهاية رأى صحيح ، يحظى بإجماع الحاضرين أو بأغلبية الأصوات.

فى مثل هذا النوع من الحوار ، ينبغى أن تنصب المناقشات حول الأفكار ، وليس الأشخاص ، حول أسلوب العمل وليس القائمين عليه ، حول قيمة النتائج والوصول إلى أفضل عائد منها ، ومن المفترض أن يبدأ الحوار ويتطور فى وجود مجموعة من الحقائق المعلنة أمام الجميع ، وأن يستعان فى ذلك بالأرقام الموثقة والرسوم البيانية الصحيحة.

أما النوع الثالث من الحوار ، فهو الحوار المتشنج ، وهو الذى يدور عادة بين أطراف مختلفة سلفا ، لا يسمح كل منها بقبول أى رأى من الطرف الآخر ، بل إنه يسعى بكل الوسائل لإسكاته ، أو التشويش عليه، إما برفع الصوت ، أو بتحريك الأيدى، أو حتى بالتهديد بالضرب. وأحيانا ما يحدث من أحد الأطراف انسحابه من جلسة الحوار لواحد من سببين : إما لكى لا يتيح أى فرصة للطرف المخالف له للتعبير عن رأيه ، حتى لا يعرف وينتشر ، وإما لحرصه على أن يفوز هو نفسه فى الحوار ، حتى ولو كان رأيه ضعيفا ، وأدلته متهاوية. فى مثل هذا النوع من الحوار يسود التعصب ، وضيق الأفق ، وتغلى النفوس بالغضب ، ويسعى المحاور أو المحاورون من جبهة واحدة إلى ضرورة القضاء المبرم على خصومهم . ولا شك أن هذا الجو لا يسمح للحقيقة أن تظهر، ولا للآراء الصائبة أن تعبر عن نفسها ، وبالتالى تفشل عن تحقيق الأهداف المرجوة منها.

جـ) الحوار من حيث نتائجه

هناك ثلاثة أنواع ، أولها الحوار العقيم ، الذى يدور أساسا حول مشكلة زائفة ، أى مشكلة من اختراع شخص أو أشخاص تكون لهم مصلحة خاصة فى شغل الناس عن مصالحهم الحقيقية . ومن ذلك مثلا الحديث عن مشكلة شاب يقتل والديه (حالة فردية) وإهمال مشكلة قتلى المواصلات العامة على الطرق (ويصل عددهم إلى عدة آلاف سنويا) ، أو مشكلة الدروس الخصوصية (حالة عارضة) وإهمال مشكلة كيفية

الارتقاء بمستوى التعليم (ظاهرة أساسية)، ومشـــكلة الغـزو الثقـافي (مفتعلة) وإهمال مشكلة ضعف الترجمة (وهي سبب رئيسي في ركـود الحركة الثقافية) . ومما هو ملاحظ أن الحوار حول مشكلة زائفة يكـبر ويتعاظم لكنه يظل يدور في حلقات مفرغة ، لأنه ببســـاطة لا يعـالج مشكلة حقيقية ، أي عقبة تقف في سبيل الفكر والسلوك الإنساني .

وفي مثل هذا النوع من الحوار ، يقوم المحـــاور باســتعراض عضلاته الثقافية إن صح التعبير ، وكثيراً ما يبتعد عــن الموضــوع ، محلقاً في آفاق أخرى بعيدة ، ومتحدثاً عن مجتمعات أخرى مختلفــة ، وتجارب لا تمت للواقع بصلة . . ولو تأمل القارئ حديثه جيداً ، بل لو تأمل هو نفسه حديثه لأدرك أنه لا يقدم شيئاً ذا فائدة ، والسبب بســيط للغاية ، لأنه يضيع وقته وجهده في محاولة حل لغز من صنع عقلــه ، وليست له علاقة بالواقع.

وعلى العكس تماماً من هذا الحوار العقيم ، يوجد الحوار المنتـج أي الذي يتناول مشكلة حقيقية ، ويكون الهدف منه الوصول إلى حــل محدد لها . في هذا النوع من الحوار ، يجري إلقاء الضوء على نشــأة المشكلة ، وتطورها ، وأهم مظاهرها ، ومــدى خطورتــها ، تمـهيداً لاقتراح الحل أو الحلول المناسبة لها . وقد قال أسلافنا بحق إن " تحديد المشكلة يعدّ جزءاً من حلها " ، لكن ذلك لا يحدث إلا إذا اشــترك فــي مناقشتها عدد من المحاورين ، الذين تدفعــهم الرغبــة الصادقــة فــي التوصل إلى الحلول ، من خلال حوار يكشف مختلف جوانب المشكلة ، في لغة دقيقة وواضحة ، وباستخدام مصطلحات محررة من الفوضــي والغموض . إن المحاورين في مثل هذا العمل يكونون أشبه بالبنّــائين ،

الذين يعرف كل منهم دوره فى تشييد البناية المتكاملـــة . ولا شــك أن حواراً كهذا لابد أن يخلو من الاستطراد والمهاترة ، وأن يجرى فى جو من الجدية والاحترام ، حتى يصل إلى هدفه بكل سلاسة ويسر .

وإلى جانب كل من النوعين السابقين ، يوجد نوع ثـــالث مـــن الحوار ، يمكن أن نطلق عليه حوار الاستكشاف ، وهو الذى يسعى إلى تحديد المشكلة ، وليس بالضرورة التوصل إلى حل لها ، وذلك عندمـــا تكون تلك المشكلة من الصعوبة والتعقيد والتشابك مـــع غيرهـــا مـــن المشكلات الأخرى . . حينئذ يتم حوار لمحاولة تفكيك المشكلة المعقـــدة إلى عناصرها البسيطة، وبيان علاقات التداخل والاتصال بينـــها وبيـــن المشكلات الأخرى المرتبطة بها . ولنأخذ مثالاً علـــى ذلـــك : مشـــكلة الإسكان ، التى ترتبط بمشكلة العمل ، ومشـــكلة البطالـــة ، ومشـــكلة التضخم، ومشكلة الزواج . . الخ . ومن الواضح أن مثل هذا النوع من الحوار لا يتطلب فقط مجموعة متحاورين ، بل مجموعات من ســـائر التخصصات ، تكرس كل واحدة جهودها حول نقطـــة محـــددة ، ثـــم يتبادل الجميع ما توصل إليه كل منهم .

ولا شك أن هذا الحوار يحتاج إلى إعداد جيد مسبقاً ، وإلى إدارة حكيمة وحازمة، حتى تستطيع أن تنسق بين تلك " الحـــوارات " ، وأن تجمع بينها أخيراً فى منظومة واحدة . وهنا لا يوجد مجـــال للمزايـــدة أو استعراض العضلات ، وإنما المطلوب هـــو الاختصـــار والتحديـــد وبلورة المفاهيم وتحديد العلاقات فى صيغ شبه رياضية ، حتى تكـــون أساساً جيداً للتعامل معها والإفادة من معطياتها.

شروط الحوار المنتج :

إن النتائج لا تأتى من فراغ ، فإذا كنا نطمح إلى أن تكون حواراتنا منتجة، بمعنى أن تضعنا على طريق الفعل ، فلابد أن نتتبع نماذجها الجيدة ، وأن نفحص أسباب نجاحها ، كما ينبغى أن نرصد بكل دقة الشروط التى تساعد على هذا النجاح . ويمكن أن نسجل هنا أهم هذه الشروط فيما يلى :

١- توافر مرجعية يعترف بها كل من المتحاورين . وهذه المرجعية قد تكون قوانين العقل ، أو مبادئ الدين ، أو سلطة التقاليد ، أو تحقيق المصلحة . .

٢- وجود حكم يلتزم كل من المتحاورين بطاعة أوامره وتنفيذ ملاحظاته . ومن المعروف أن هذا الحكم هو الذى يقوم بدور التنظيم والفصل فى أثناء المحاورة ، وله الحق فى إنهائها عندما تحيد عن أهدافها.

٣- إعطاء الفرص المتكافئة لكل الأطراف ، سواء فى الوقت المحدد للحديث ، أو فى إبداء الملاحظات والتعقيب.

٤- استغلال المحاور للوقت المخصص له ، وعدم إضاعته فى مقدمات غير ضرورية ، أو استطراد غير مطلوب ، وأن يتميز حديثه بالتركيز ، وترتيب المعلومات ، والتصريح بالنتيجة التى يريد الوصول إليها.

٥- ضرورة الإصغاء الكامل عندما يتحدث الطرف الآخر ، وعدم ملاحقته بالموافقة ، أو مقاطعته بالمخالفة . وهذا يعنى تسجيل الملاحظات عليه ، وإبداءها عندما تعطى له الكلمة .

٦- احترام شخص المحاور ، وعدم الإساءة إليه بألفاظ أو عبارات غير لائقة ، وكذلك عدم الاستهزاء به حتى ولو بالتلميحات والنظرات !

٧- أن يكون لدى أطراف الحوار الاستعداد لسماع وجهات النظر الأخرى ، والاعتراف بالحق عند ظهوره . ولا شك أن هذا الشرط يتطلب " شجاعة أدبية " ينبغى أن تكون من أخلاقيات المحاور الحقيقى .

فإذا أردنا بعد ذلك أن نتعرف على عناصر القوة وعوامل الضعف فى الحوار ، أمكننا خلال استعراض عشرات - ولا نقول مئات الحوارات - أن نستخلص أهم هذه العناصر والعوامل :

عناصر القوة فى الحوار :

١- الإلمام الجيد بجوانب المشكلة التى يدور الحوار حولها (نشأتها، تطورها، مظاهرها ، مدى خطورتها).

٢- يمكن للاستشهاد بالنصوص الدينية ، عندما يتعلق موضوع الحوار بذلك ، أن يكون من أهم العناصر التى تقوى جانب المحاور ، وتضعف من موقف المحاور الآخر .

٣- استخدام المعلومات التاريخية ، بشرط الدقة فـــى إبرازهـــا ، وأن تكون فى موضعها تماما، أى أن يكون توظيفها من أجـــل تـــأكيد معلومة معينة ، أو دحض معلومة أخرى لدى المحاور الآخر .

٤- الاستعانة بلغة الأرقام مما يضفى الكثير مـــن المصداقيـــة علـــى حديث المحاور. وهنا أيضا لابد من التأكد من مصدرهـــا ، حتـــى لا ينهدم بناء المحاور ، إذا ثبت عدم صحـــة رقـــم واحـــد ممـــا استعان به.

٥- تطعيم الحديث بالحجج المنطقية ، التى تتمثل أهميتها فى ســـهولة تصديقها من المتابعين للحوار . وكلما استخدمها المحاور بوضـــوح كانت أقوى تأثيرا.

٦- استمداد الأمثلة من الحياة الواقعية ، لشرح وتفسير الحقائق العلمية والنظريات ، حتى يكون الحوار حيا ، وقريبا من أذهان المتابعين .

٧- استخدام اللغة المقنعة ، وأعنى بها اللغـــة التـــى تتســـم بالدقـــة والوضوح ، مع الابتعاد عن الأساليب القديمة ، والكليشيهات التـــى فقدت طزاجتها من كثرة الاستعمال.

٨- إجادة طرح الأسئلة والتساؤلات ، فهى تعتبر دائما وســـيلة مـــن وسائل الهجوم، حتى لا تتاح للمحاور الآخر فرصة طرحها.

٩- عدم إهمال الإجابة على أى سؤال يطرحه المحاور الآخر ، لكـــى لا تبقى ثغرات مفتوحة فى الحوار.

١٠- وأخيرا كلما توافر لدى المحاور معلومات كافية عمن يحـــاوره كان فى موقع أفضل ، ولا يعنى هذا استخدام معلومات شـــخصية ضده أثناء المحاورة ، وإنما الإشارة عند اللزوم لبعض أفكاره التى سبق أن أعلنها من قبل.

مظاهر الضعف فى الحوار :

١- الظهور بمظهر التردد والنسيان .

٢- محاولة تذكر المعلومات ، أو الأسماء ، أو الأرقام مما يؤدى إلـى إملال المتابعين للحوار.

٣- الخروج عن موضوع المحاضرة ، بكثرة الاستطراد .

٤- حشو الحديث باللوازم الشـــخصية كالقســم ، أو ألفــاظ التفخيـم (حضرتك ، سيادتك . . إلخ).

٥- مقاطعة المحاور الآخر أو التشويش عليه أثناء حديثه.

٦- تعمد الإساءة الشخصية للمحاور الآخر.

٧- الانفعال والتلويح بالأيدى فى وجه المحاور الآخر.

كيف نعلم شبابنا الحوار ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال الهام ، لابد أن نحسم الإجابة حـول سؤال آخر يسبقه ، وهو : هل الحوار موهبة أو اكتساب ؟

والواقع أننا نشهد العديد من المفكرين الذين برعوا فى فن الحوار براعة فائقة ، إلى درجة أن براعتهم لم تقتصر فقط على إعجاب المعاصرين لهم ، وإنما استمرت لدى الأجيال اللاحقة . وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى سقراط وأفلاطون وأرسطو من العصر الإغريقى ، والأشعرى وابن قتيبة وابن حزم فى الثقافة الإسلامية ، وشكسبير وفولتير وكانط من الثقافة الغربية . وهذه فقط مجرد أمثلة ، لكننا إذا رحنا نتتبع سير هؤلاء المحاورين العظام وجدناهم يمتلكون مقدرة فريدة على تحليل الآراء ونقدها ، والرد القوى المقنع على أصحابها . ويدهشك بالفعل أن الرأى قد يبدو قويا ومتماسكا ولكنه عندما يتم تناوله على قلم واحد من المحاورين الكبار تجده قد تهاوى ، وسقطت حججه أمام القوة العقلية الهائلة التى يقابله بها . فإذا ما بحثنا أقوال هؤلاء المحاورين الكبار وجدنا أنهم عاشوا فى عصور معينة، وأنهم تعرضوا لمثل ما تعرض له معاصروهم من المفكرين والمثقفين ، وهذا يجعلنا نسرع إلى القول بأن القدرة على الحوار من المواهب التى تمنح للإنسان ، وليست من الخبرات التى يقوم باكتسابها ، وإلا لكان كل من عاش فى بيئة سقراط أو أفلاطون ، ونهل من ثقافتهما أصبح على نفس مستواهما .

لكننا من ناحية أخرى نلاحظ أن البيئة الثقافية والواحدة لا تنتج دائما مثقفين متشابهين (وإلا لكان الأمر بشعا للغاية !) ، وإنما تساعد أصحاب الاستعدادات المختلفة على تنمية قدراتهم ، وتفجير طاقاتهم ، كل بحسب ما هو مستعد له . فهناك المفكر الهادئ الذى لا يحب أن يدخل فى أى معركة فكرية ، وهناك المفكر الشجاع الذى يقبل التحدى

على الفور حين يفرض عليه ، كما أن هناك المفكر الجسور الذى يسعى بنفسه إلى مواطن الخلاف لكى يحركها ، ويصبح طرفا فيها . وهكذا فإن البيئة الثقافية والفكرية تقوم بدور كبير فى تهيئة الجو المناسب لظهور أصحاب القدرة على الحوار.

هنا يمكن أن نجيب على السؤال المطروح ، وهو كيف نعلم شبابنا أو نساعدهم على إجادة الحوار ؟ من المؤكد أن كل إنسان (بدون استثناء ومنذ الطفولة) لديه استعداد للتفوق فى مجال ما . وأن البيئة التى ينشأ ويتطور فيها من أهم العوامل على إبراز هذا الاستعداد . لذلك فلا مفر من التوقف عند البيئة الأولى التى ينشأ فيها الإنسان، وهى **الأسرة** ، وقد قيل بحق إنه يكتسب من خلالها أكثر من ٨٠% من عاداته التى تصحبه حتى آخر عمره . لذلك فلابد أن نسأل :

١- هل يتحاور الكبار فى الأسرة أمام الأطفال فى الموضوعات العامة ، وفى شئون الأسرة؟

٢- هل يتيح الوالدان لأبنائهما فرصة التعبير عن طلباتهم بدون خوف ؟

٣- هل يمكن للطفل أن يرفض بعض قرارات الأسرة أم عليه دائما أن يرضخ لها ؟

٤- هل يسمح للطفل أن يجلس مع ضيوف الأسرة ، ويقول رأيه بصراحة ؟

٥- هل يمكن للطفل أن يستضيف أصدقاءه فى المنزل ، ويتحدث معهم أمام أسرته ؟

٦- هل تثق الأسرة فى الطفل لنقل رسالة إلى أحد الجيران أو المعارف ؟

فإذا انتقلنا مع الطفل ، الذى أصبح صبيا ، ويافعا ، وشابا فى كل من **المدرسة والجامعة (** متحسرين بالطبع على أولئك الذين يتسربون من التعليم ! **)** كان من حقنا أيضا أن نسأل :

- هل يتيح المعلمون والأساتذة للتلميذ أو الطالب فرصة مناسبة وبدون حرج لكى يقول إنه لم يفهم هذه النقطة أو تلك ؟
- هل تقدم له مادة علمية تحتوى على وجهات نظر متعددة ، ويكون له حق تبنى واحدة منها ؟
- هل يسمح له أن يقف بين زملائه ، ويعلن عن رأيه بكل صراحة فى المقرر الذى يدرس له ؟ أو فى بعض عناصره ؟
- هل يقابل عند الاعتراض بالقدر اللازم من الاحترام ، أم أنه يصبح عرضة للسخرية والاستهزاء ؟
- هل يسأل أثناء الاختبارات أو الامتحانات عن رأيه فى القضية المطلوب منه الحديث عنها، أم عليه فقط عرضها كما هى ؟
- هل تتاح له ممارسة الأنشطة التى تساعده فى التعبير عن نفسه كالإذاعة المدرسية ، وصحافة الحائط ، والمسرحيات ، والندوات ، والمناظرات .. إلخ

وننتقل بعد ذلك إلى **دائرة العمل** ، ومع أن الكثيرين يغفلونها فى الحديث عن البيئة ، فإنها لا تقل أهمية عن كل من المدرسة والجامعة . لأن الإنسان يتعلم منها الكثير ، والتعلم فيها يمتاز بطابعه العملى التطبيقى . كما أن الجو الذى يسود دائرة العمل يختلف من مكان لآخر، تبعا لطبيعته من ناحية ، وللمسئولين عن إدارته من ناحية أخرى . وهنا يمكن أن نسأل :

- هل يتاح للعاملين مناسبات (كالاجتماعات الدورية أو غيرها) لإبداء وجهات نظرهم فى أسلوب العمل ، ونظام المكافآت والحوافز؟
- هل يغضب المسئولون عن الإدارة من النقد الموضوعى ؟ وكيف تكون ردود فعلهم عند سماعه ؟
- هل يسمح بطرح أفكار جديدة لتحسين الأداء ، أو رفع كفاءة الإنتاج؟ وطريقة تقبلها من الإدارة ؟
- إلى أى مدى ، تكون وسائل الاتصال بين الإدارة والعاملين سهلة وميسورة ؟
- هل تفرض التعليمات الجديدة من الإدارة ، أم تجرى مناقشتها مع العاملين قبل تطبيقها ؟
- هل تستمع الإدارة شفويا لشكاوى العاملين ، أم أنها لا تقبل منهم إلا طلبات مكتوبة ؟
- هل تعقد الإدارة مع العاملين اجتماعات (أسبوعية - نصف شهرية - شهرية - فصلية - سنوية) ؟ وكيف يجرى الحوار فيها ؟

وأخيرا نصل إلى **وسائل الإعلام** باعتبارها قد أصبحت بالفعل ذات أثر مباشر على توجيه الرأى العام ، وتكوين ثقافة أفراد المجتمع . والواقع أن دور وسائل الإعلام، وخاصة التلفزيون ، قد تجاوز كثيرا دور كل من الأسرة والمدرسة . فقد دخل هو نفسه إلى الأسرة ، واحتل مكان الصدارة فيها ، ولم ينج من تأثيره حتى الأب والأم ، فكيف بالصغار ؟ أما المدرسة فقد تخلفت عن التلفزيون فى شد انتباه التلاميذ ، كما عجزت عن تقديم المدهش والرائع كما تفعل صوره الملونة ، وبرامجه المتنوعة والمبهرة . وأنا أسأل المتشبثين بمواقع التعليم التقليدية سؤالا واحدا هو : هل تستطيع المدرسة أن تحرك عقل التلميذ وتستثير خياله كما يفعل التلفزيون ؟

إذن فمن الواجب علينا أن ندرك دور وسائل الإعلام الحديثة ، وأن نقدر إمكانياتها الهائلة فى " تعليم الحوار " للشباب . ونحن هنا لا نطمع إلى إيجاد منظومة متكاملة لتحقيق هذا الهدف ، وإنما يكفى الاتفاق على الحد الأدنى من الأسس والمبادئ التى ينبغى مراعاتها ، والالتزام بها قدر الإمكان . ومن أهمها:

١- تحديد مسئولية رؤساء تحرير الصحف ، ورؤساء قنوات الإذاعة والتلفزيون فى استبعاد أنواع الحوار الهابط ، والاحتفاء بالنماذج الجيدة من الحوار البناء.

٢- تنقية الحوار من الألفاظ البذيئة ، والعبارات أو التلميحات التى تستهزئ أو تزدرى الآخرين .

٣- احترام آراء الأطفال ، وتقدير وجهة نظر المرأة ، والإصغاء الكامل لكل من يريد التعبير عن نفسه من مختلف الفئات، أيا كان

مستواها الثقافى .

٤- تقديم ندوات الحوار المتعدد الآراء ، مع تطبيق الضوابط التى تجعله متطورا، وبناء ، وينتهى إلى نتيجة محددة .

٥- بذل المزيد من الجهد للارتقاء بمستوى الحوار فى الأعمال الدرامية بين الشخصيات ، لما لذلك من أثر مباشر على ثقافة المشاهدين .

٦- ضرورة إتقان الصحفيين والمذيعين فن السؤال والتساؤل ، وهو الفن الذى بدونه لا يمكن إجراء أى حوار ناجح مع شخصية كبيرة أو طفل صغير.

إننا نؤكد على أهمية كل العناصر السابقة التى تتعاون فيما بينها لتكوين البيئة اللازمة، والظروف المناسبة لإنتاج الحوار الجيد ، وازدهاره فى المجتمع من أجل تحقيق أفضل النتائج له ، ومما لاشك فيه أن مثل هذه البيئة ستكون قادرة على إفراز العناصر البشرية القادرة على إجراء الحوار وإدارته ، على النحو الذى يجعل منه الوسيلة المثلى لمناقشة قضايا المجتمع ومشكلاته ، بهدف تقديم الحلول المناسبة لها . إن العقل الإنسانى يستطيع وحده أن ينتج فكرة عبقرية ، لكن العقول الأخرى التى تناقشه فيها هى التى يمكنها أن تنقل تلك الفكرة من مجال النظر إلى واقع التطبيق . وليس " **الإجماع** " الذى هو أحد مصادر الشريعة سوى اتفاق العلماء على رأى واحد منهم ، بعد أن تمت مناقشته، وتأكد صوابه .

حوار المجتمعات :

أعتقد أنه بإمكاننا الآن ، وبعد أن حاولنا بيان أسس الحوار الجيد داخل المجتمع، أن نتحدث عن حوار بين مجتمعين أو أكثر . ولكي ينجح مثل هذا الحوار ، لابد أن يكون كل من المجتمعين راغبا في التعرف على المجتمع الآخر، وحريصا على تقوية علاقاته معه . لذلك فمن غير الممكن قيام حوار بين مجتمعين في حالة عداء ، أو في حالة حرب (كما سبقت الإشارة) . كذلك لا يمكن تصور قيام حوار بين المجتمعات بعيدا عن دائرة المصالح المشتركة بينهما، بل إن مثل هذا الحوار ينبغي أن يقوم بدور في تقريب هذه المصالح ، وتوزيعها بعدالة على كلا الطرفين . أمر ثالث هام ، وهو أن الحوار لا ينجح بمجرد البدء فيه، وإنما من خلال استمراره ، وتعدد مستوياته ، وتنوع مجالاته. والدليل على ذلك أننا قد شهدنا الكثير من الحوارات تفشل بسبب افتقادها العناصر التي تضمن استمرارها ، ومن ذلك مثلا قيام حوار سياسي بين بلدين دون أن تدعمها مصلحة اقتصادية ، أو قيام حوار ثقافي دون أن يكون مدعوما بعلاقات اجتماعية أكثر اتساعا . وأخيرا فإن الحوار بين المجتمعات يتطلب قدرا من الندية ، لا أقول من كل الجوانب ، وإنما في الكثير منها . ونحن نعلم جيدا أن حوار الكبير مع الصغير يتحول إلى تلقين ، وحوار الغني مع الفقير يفضي إلى الصدقة ، وحوار القوى مع الضعيف ينتهي بالسيطرة. .

وقد شاع في الآونة الأخيرة مصطلحات " الحوار بين الحضارات ، والحوار بين الثقافات ، والحوار بين الأديان . . " وكلها مصطلحات جيدة لمسميات وهمية ، لا وجود لها في الواقع . وحقيقة ما

يحدث أن الأطراف الضعيفة هى التى تسعى إلى ذلـــك دون أن تكـــون هناك رغبة فعلية من الأطراف الأكثر قوة وهيمنة . لذلك فإن اجتماعات تعقد، وندوات تقام ، تتحدث فيها أطراف مختلفة الثقافات والخصـــائص والأديان ، كل عما لديه، ويستمع إليه الآخرون دون أن يدخلـــوا فـــى حوار حقيقى ، ثم تنفض الجلسات ، ويعود كل طرف إلى مكانـــه، دون أن يكون قد تحققت نتيجة واحدة ، اللهم إلا تعرف هـــؤلاء المجتمعيـــن على بعضهم البعض، وقد كان من الممكن أن يحدث ذلك دون الدخـــول تحت مظلة الحوار المزعوم.

ليس معنى هذا أننى أهاجم هذا النوع من الحوار ولكننى فقـــط أنبه إلى قلة جدواه. وستظل ثمرته ضامرة طالما لم يقم علـــى أســـس واضحة ، أهمها " تحقيق المصلحة " بين المجتمعات الراغبة فى إقامـــة علاقات تعاون حقيقى فيما بينها .

قائمة الأبحاث
التى صدرت فى الأجزاء السابقة
من سلسلة " دراسات عربية وإسلامية "

الجزء الأول

- قراءة فى الترجمة العبرية لمعانى القرآن الكريم — أ.د. عبدالرحمن عوف
- من قضايا المنهج فى علم الكلام — أ.د. حسن الشافعى
- المضاربة بمال الوديعة أو القرض فى الفقه الإسلامى — أ.د. أحمد يوسف
- مفهوم السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية — أ.د. مصطفى حلمى
- التجربة الأخلاقية عند ابن حزم الأندلسى — أ.د. حامد طاهر
- دراسة الواقع اللغوى أساس لحل مشكلات اللغة العربية فى التعليم — أ.د. السعيد بدوى
- فاعلية المعنى النحوى فى بناء الشعر — أ.د. محمد حماسة عبداللطيف
- الواقعية ما هى ؟ دراسة تطبيقية لقصص المدرسة الحديثة — أ.د. حمدى السكوت
- قضية التأثير على شعراء التروبادور — أ.د. أحمد درويش

الجزء الثانى

- مفهوم التطور فى الفكر العربى — د. محفوظ عزام
- تحليل ظاهرة الحسد عند الحارث المحاسبى — أ.د. حامد طاهر
- التأمين فى الفكر الفقهى المعاصر — أ.د. محمد بلتاجى
- تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها — أ.د. أحمد طاهر حسنين
- تعدد أوجه الإعراب فى الجملة القرآنية — أ.د. محمد حماسة عبداللطيف
- تقسيم جديد لتاريخ الأدب العربى لبلاشير — ترجمة د. أحمد درويش
- المرايا الشعرية لدى نازك الملائكة — أ.د. محمد فتوح أحمد
- موقف نقاد الرومانسية من شعر شوقى — أ.د. طه وادى
- قضية ترجمة الشعر — أ.د. رجاء جبر

الجزء الثالث

الجزء الرابع

الجزء الخامس

الجزء السادس

الجزء السابع

الجزء الثامن

● نحو استكمال علامات الرسم الإملائى فى القرآن الكريم لمحمد حميد الله	ترجمة د. محى الدين بلتاجى
● أضواء جديدة على تفسير سورة يوسف من خلال اللغة المصرية القديمة	أ.د. رمضان السيد
● رؤية الجبرتى للحركة السلفية فى مصر وشبه الجزيرة العربية	د. نازك زكى
● الترجمة ودورها فى الفكر العربى	أ.د. حامد طاهر
● المنهج فى كتاب سيبويه	أ.د. صلاح الدين أبوبكر
● محاولات التيسير فى النحو العربى (القسم الأخير)	أ.د. صلاح رواى
● المصطلح ودلالته فى الدرس الصوتى عند العرب (القسم الأول)	د. رفعت الفرنوانى
● التراث والأصول الأوربية للحداثة	أ.د. عبدالحكيم حسان
● الناقد المتخصص وتوثيق الشعر عند ابن سلام	د. حسن البندارى

الجزء التاسع

● تذوق ابن قتيبة للنظم القرآنى	أ.د. منير سلطان
● نحن وقضية التراث الفلسفى عند العرب	أ.د. عاطف العراقى
● خمس مشكلات حقيقية أمام الفلسفة الإسلامية فى العصر الحاضر	أ.د. حامد طاهر
● المصطلح ودلالته فى الدرس الصوتى عند العرب (القسم الأخير)	د. رفعت الفرنوانى
● محاولات تيسير النحو العربى	أ.د. صبرى إبراهيم السيد
● نحو أدب إسلامى مقارن	أ.د. الطاهر أحمد مكى
● عبدالله الطائى وآفاق الشعر المعاصر	أ.د. أحمد درويش
● عمود الشعر فى المصطلح النقدى	أ.د. توفيق الفيل

الجزء العاشر

● موقف الفكر الإسلامى من الفلسفة اليونانية	أ.د. محمد شامة
● المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة	أ.د. حامد طاهر
● فلسفة التاريخ الإسلامى	أ.د. عبدالحميد إبراهيم
● صعوبات فلسفية فى كتاب سيبويه	أ.د. عبدالرحمن أيوب
● مظاهر معاصرة الجيلين لدى شيوخ شعراء الخليج	أ.د. أحمد درويش
● ملامح الشاعر بريشة القصاص	د. إخلاص فخرى

الجزء الحادى عشر

- مشكلة التخلف الحضارى عند المسلمين — أ.د. حامد طاهر
- تصنيف العلوم عند العرب — أ.د. عاطف العراقى
- جهود الشيخ أبوزهرة فى تطوير الدراسات الفقهية — أ.د. محمد أحمد سراج
- اللغة العربية بين المدرسة والجامعة فى دولة الإمارات — د. أحمد طاهر حسنين
- صور الثقافة والتربية فى الأدب العربى القديم — أ.د. أحمد درويش
- التشكيل الفنى للشعر بين الالتزام الاجتماعى والصدق النفسى — د. محمود محمد عيسى
- شعر المناسبات (نظرة منصفة) — د. إخلاص فخرى عمارة

الجزء الثانى عشر

- المنهج العلمى التجريبى فى الحضارة الإسلامية — أ.د. عمار الطالبى
- الإسلام من وجهة نظر المسيحية لجارديه — ترجمة أ.د. حامد طاهر
- توظيف العلوم الطبيعية فى بناء علم كلام إسلامى — د. رزق الشامى
- العلاقة التاريخية بين الأفغانى وناصر الدين شاه — أ.د. مريم زهيرى
- الشخصية العلمية الموضوعية فى البحث — أ.د. محفوظ عزام
- النقود الإسلامية فى الأندلس لخيمى بروسى — ترجمة أ.د. عبدالله جمال الدين
- نحو الكلام ، لا نحو اللغة — أ.د. أحمد كشك
- تقويم برنامج التعليم الجامعى الأساسى — أ.د. على الشرهان
- منهج شوقى ضيف وآراؤه فى التعليم — أ.د. على الحديدى

الجزء الثالث عشر

- حق الإنسان فى مستوى لائق من المعيشة بموجب الإسلام — أ.د. محمد شوقى الفنجرى
- ولاية الفقيه ونظام الحكم فى الإسلام — د. أمية أبوالسعود
- نظرية المعرفة عند الفارابى — أ.د. عبدالفتاح الفاوى
- القاهرة الكبرى : دراسة فى جغرافية المدن — أ.د. جمال حمدان
- دليل عملى لطلاب الدراسات العليا — أ.د. حامد طاهر
- التداخل بين النحو وعلم المعانى — أ.د. محمد فتيح
- حاضر الوضع الأدبى فى مصر — أ.د. حمدى السكوت
- تنويع الحكم التصويرى فى النقد العربى القديم — أ.د. حسن البندارى

الجزء الرابع عشر

● أحكام الشريعة بين الثبات والتغير	د. محمد المنسى
● الإباضية : الطائفة والمذهب	أ.د. عبدالفتاح الفاوى
● دار العلوم : رائعة على مبارك	أ.د. حامد طاهر
● الثقافة فى التليفزيون بين الأصالة والمعاصرة	أ.د. سامية أحمد على
● القيمة اللغوية لخصائص ابن جنى	د. حسام البهنساوى
● إشكالية الفكر والفن	أ.د. صلاح رزق
● الليالى : سيرة حياة وتجربة إنسان	أ.د. ماهر حسن فهمى

الجزء الخامس عشر

● نظريات الإسلاميين فى الكلمة	أ.د. أبو العلا عفيفى
● التمايز بين الفكر الإسلامى والفلسفة الإسلامية	أ.د. محمد إبراهيم الفيومى
● ابن باديس وفلسفته فى الإصلاح والتربية	أ.د. عبدالفتاح الفاوى
● نيروزية ابن سينا	د. إبراهيم محمد صقر
● مستقبل الحواريين العرب وأوربا	أ.د. حامد طاهر
● اللغة العلمية فى العصر العباسى	أ.د. محمد حسن عبدالعزيز
● الأطر الفكرية فى شعر شوقى	أ.د. أبوالقاسم أحمد رشوان

الجزء السادس عشر

● اتساق الجمل فى النص القرآنى	د. مصطفى عراقى حسن
● مشكلة المخدرات فى ميزان الشريعة الإسلامية	أ.د. محمد بلتاجى
● الفكر الإباضى ودوره فى تأكيد الشخصية العمانية	أ.د. حسن الشافعى
● مالك بن نبى وفلسفته الإصلاحية	د. جمال رجب سيدبى
● فكرة شيئية المعدوم عند المتكلمين	د. يوسف محمود
● الفلسفة اليهودية لايبستاين	ترجمة أ.د. حامد طاهر
● ضمير الغائب بين التعريف والتنكير	أ.د. السيد أحمد على محمد

الجزء السابع عشر

الجزء الثامن عشر

الجزء التاسع عشر

الجزء العشرون